مكتبة ٧١١

دار المدى

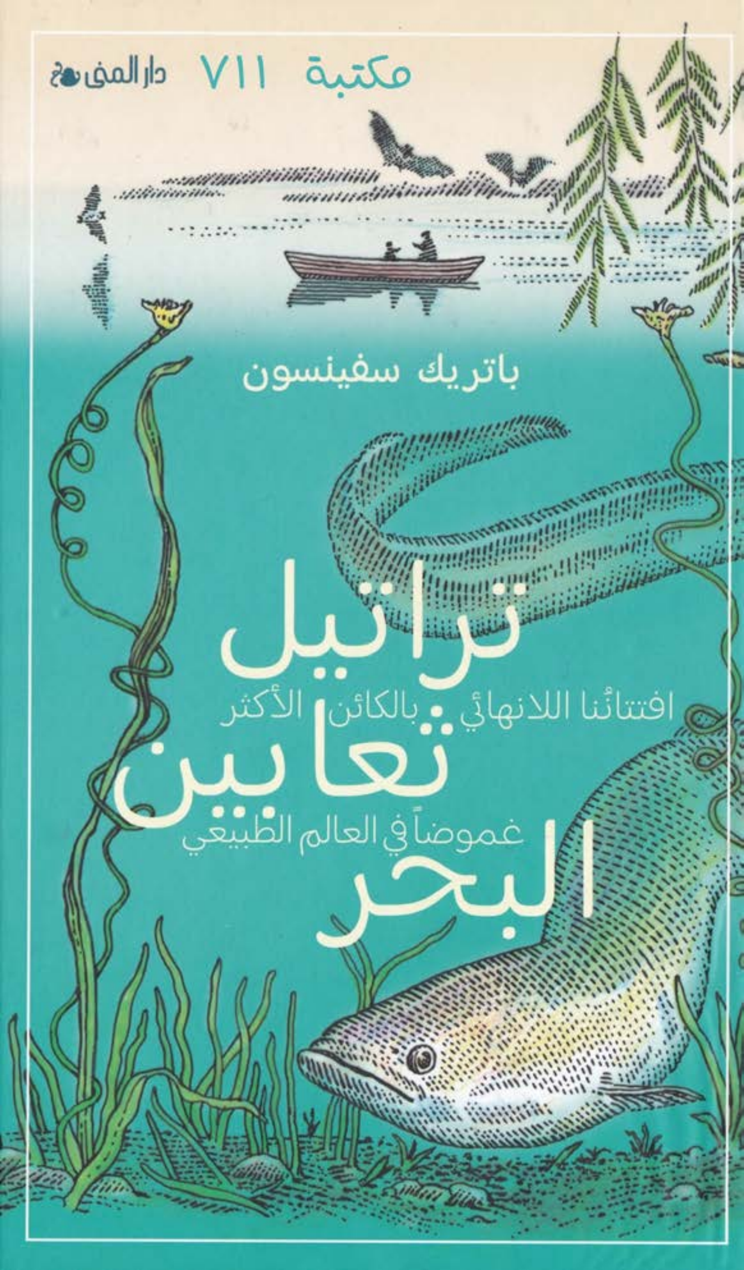

باتريك سفينسون

تراتيل ثعابين البحر

افتتانُنا اللانهائي بالكائن الأكثر غموضاً في العالم الطبيعي

تراتيل ثعابين البحر

مكتبة | 711
سُر مَن قرأ

مكتبة
t.me/t_pdf
٢٠٢١ ٧ ٧

ISBN 978 91 88863 33 1

Arabic edition © Bokförlaget Dar Al Muna AB, 2020

© Text: Patrik Svensson, 2019

© Original cover: Eva Wilsson, Illustrations: Lars Sjööblom

First published in Swedish by Albert Bonnier Förlag under the title:

Ålevangeliet

Published in the Arabic language by agreement with Bonnier Rights, Stockholm

Arabic translation: Ala'eddin Abu Zeineh

Arabic text © Bokförlaget Dar Al Muna

Translation spnosored by the Swedish Arts Council

All rights for Arabic language are reserved

Typesetting: Joachim Trapp

Printed at ScandBook AB, Falun 2020

Bokförlaget Dar Al-Muna AB

Box 127, 18205 Djursholm, Sweden

www.daralmuna.com

باتريك سفينسون

تراتيل ثعابين البحر

افتتاننا اللانهائي بالكائن الأكثر غموضاً في العالم الطبيعي

ترجمة: علاء الدين أبو زينة

مكتبة | 711
سُر مَن قرأ

دار المدى

لاحقاً، في الحقول ذاتِها
وقفَ في الليل
بينما انسلّت ثعابينُ البحر عبر العشب
مثلَ مخاوف وليدَة

شيموس هيني

المحتويات

ثعبان البحر 9
بجوار الجدول 16
أرسطو وثعبان البحر المولود من الطين 23
النظر في عينيّ ثعبان بحر 39
سيغموند فرويد وثعابين بحر ترييستي 47
الصيد غير القانوني 65
الدانماركي الذي وجد أرض نشوء ثعابين البحر 71
السباحة بعَكس التيار 91
صيادو ثعابين البحر 97
خداع ثعبان البحر 113
ثعبان البحر الغامض 119
أن تقتلَ حيواناً 141
تحت سطح البحر 151
نصب مصيدة لثعابين البحر 181
الرحلة الطويلة إلى الوطن 191
أن تصبحَ جاهلاً 215
ثعبان البحر على حافة الانقراض 227
في بحر سارغاسو 257
المصادر 273

ثعبان البحر

هكذا يُولد ثعبان البحر : يحدث ذلك في بُقعة في شمال غرب المحيط الأطلسي اسمُها «بحر سارغاسو» ، وهي مكان مناسب من كل النواحي لتناسُل ثعابين البحر . وفي الحقيقة ، ليسَ بحر سارغاسو جسماً من المياه المحدَّدة بوضوح بقدر ما هو بحرٌ داخل بحر . من الصعب تحديد أين يبدأ وأين ينتهي ، لأنه يراوغ المقاييس المعتادة للعالم ويفلِت منها . يقع شمال شرق كوبا وجزر البهاما بقليل ، إلى الشرق من ساحل أمريكا الشمالية ، لكنه أيضًا مكانٌ في حالةِ تحوُّل مستمر . بحر سارغاسو يشبه الحلم : بالكاد يمكنك تحديد اللحظة التي تدخلُه فيها أو تخرج فيها منه ؛ كلُّ ما تعرفه هو أنكَ كنتَ هناك ، فحسب .

ينجمُ هذا الارتباك من حقيقة أنّ سارغاسو بحرٌ بلا حدود برية ؛ وهو محاطٌ ، بدلاً من ذلك ، بأربعة تيارات محيطيّة قوية عظيمة . في الغرب يحدُّه تيار الخليج واهبُ الحياة ؛ وفي الشمال يحدُّه امتداده ، تيارُ شمال المحيط الأطلسي ؛ وفي الشرق يحدُّه تيارُ الكناري ؛ وفي الجنوب التيارُ الاستوائي الشمالي . ويدوِّمُ بحر سارغاسو ، الذي تبلغ مساحتُه مليوني ميل مربع ، مثل دوامة بطيئة دافئة داخل هذه الدائرة المغلقة من التيارات . ولا يجد الداخلُ فيه دائمًا وقتًا سهلًا في الخروج .

الماء هناكَ صافٍ عميق الزرقة ، يبلغ عمقُه في بعض الأماكن

23.000 قدم تقريبًا ، والسطح مكسوٌ بسجادة شاسعة من طحالبَ بنيةٍ لزجة تسمى «سارغاسوم» ، والتي تُعطي البحر اسمَه . وتنفرش تيارات الأعشاب البحرية لتغطّي عدة آلاف من الأقدام فوق سطح المياه ، موفرةً الغذاء والمأوى لمخلوقات لا تُعدُّ ولا تحصى : اللافقاريات الصغيرة ، الأسماك ، قناديل البحر ، السلاحف ، والروبيان وسرطانات البحر . وأبعدُ في العُمق ، تزدهر أنواع أخرى من الأعشاب البحرية والنباتات . وتضجُّ الحياة وتنشطُ هناك في الظلام ، كما في غابة ليلية .

هذا هو المكان الذي يولد فيه ثعبان البحر الأوروبي ، «أنغيلا أنغيلا» . وهو المكان الذي تتكاثر فيه الثعابين الناضجة في الربيع وتُخصِّب بيضَها . وهنا ، من الأمانِ السّادرِ في ظلمات الأعماق ، تنبثقُ إلى الحياة مخلوقاتٌ صغيرة تشبه اليرقات ، برؤوسٍ صغيرة إلى حدٍّ مُقلق ، وعيونٍ رديئة التطوير ، يُسمّونها «يرقات الرؤوس النحيلة» ، ولها جسمٌ مثل ورقة صفصاف ، مسطح وشفافٌ تقريبًا ، طوله بضعة ملليمترات فقط . هذه هي المرحلة الأولى من دورة حياة ثعبان البحر .

على الفور تنطلقُ أوراق الصفصاف الشفافة هذه في رحلتها . وبعد أن يكنسَها تيار الخليج ، تنجرف آلاف الأميال عبر المحيط الأطلسي باتجاه سواحل أوروبا في رحلة قد تستغرق ثلاث سنوات ؛ وخلال هذا الوقت ، تنمو كل يرقة ببطء ، ملليمتراً في إثر ملليمتر ، مثل بالون ينتَفِخُ تدريجياً . وعندما تصل في النهاية إلى أوروبا ، تشهدُ تحولَها الأول ، وتتحول إلى ثعابين بحر زجاجية . هذه هي المرحلة الثانية من دورة حياة ثعبان البحر .

تشبه ثعابينُ البحر الزجاجية ، إلى حد كبير ، ذواتها السابقة الشبيهة بأوراق الصفصاف ، شبه شفافة كلها ، طولها بين بوصتين

وثلاث بوصات ، ممدودةً زلِقة ، وصافية ، كما لو أن اللون والخطيئة لم تغرسا لهما جذوراً في أجسادها بعد . وتبدو ، على حد تعبير عالمة الأحياء البحرية ، راشيل كارسون ، مثل «قضبانِ زجاجٍ رقيقة ، أقصر من أصبع» . وبضعفها ، وعجزِها الظّاهر عن الدفاع عن نفسها ، تشكل طعاماً شهياً للباسكيين من بين آخرين . وعندما يصلُ ثعبان البحر الزجاجي إلى سواحل أوروبا ، فإنه عادةً ما يسافر عبر جدول أو نهر ، ويتأقلم على الفور تقريباً مع العيشِ في المياه العذبة . وهذا هو المكان الذي يشهدُ فيه تحوُّلاً آخر : يتحول إلى ثعبان بحر أصفر . ويصبح جسمه أفعوانياً وعضلياً ، وتبقى عيونه صغيرة نسبياً ، بمركز مظلم مميَّز ، ويصبح فكُّه واسعًا وقويًا ، وتكون خياشيمه صغيرة ومخفية بالكامل تقريبًا ، وتمتد زعانف نحيلةٌ ناعمة على كامل ظهره وبطنه . وأخيرًا ، يطوِّرُ جلدُه صبغةً تلوِّنه بظلال من البُني والأصفرَ والرمادي ، ويكتسي جلدُه بقشورٍ صغيرة جدًا لا تمكن رؤيتها أو الشعور بها ، مثل دروعٍ وهميةٍ متخيَّلة . وإذا كان ثعبان البحر الزجاجي رقيقاً وهشاً ، فإنَّ ثعبان البحر الأصفر قويٌّ ومتين . هذه هي المرحلة الثالثة من دورة حياة ثعبان البحر .

يستطيع ثعبان البحر الأصفر أن يشُق طريقه عبر أكثر المياه ضحالة وأشدّها كثافة ، ويمكنُهُ أن يجتازَ أسرع التيارات . ويستطيع أن يسبح من خلال البحيرات العكرة والجداول الهادئة ، والأنهار الجامحة والبرك الفاترة . وعند الحاجة ، يستطيع أن يعبُر المستنقعات والحفر . يمضي دون أن يوقفه ظَرفٌ ولا طارئ . وعندما تُستنفَدُ جميع الاحتمالات المائية ، يمكنه أن ينتقل إلى الأرض الجافة ، وينزلق عبر فرشاةِ العشب الرطب في الأجمات نحو مياه جديدة ، في رحلة

قد تستمر لساعات . وهكذا ، يكون ثعبان البحر سمكة تتسامى على الحالة السمكية -بل إنه ربما لا يدركُ أنه سمكة من الأساس .

تستطيع ثعابين البحر أن تهاجر آلاف الأميال ، من دون أن يردعَها أو يفلَّ عزيمتها شيء ، قبل أن تقرر فجأة أنها وجدَت وطناً . ولا تطلب من هذا الوطن الكثير ؛ البيئة المحيطة شيءٌ ينبغي أن تتكيف معه ، وتتحمَّله وتتعرف إليه -سواء أكان مجرى موحلاً أو قاع بحيرة ، ويفضَّل أن تكون فيه بعض الصخور والتجاويف للاختباء ، وما يكفي من الطعام . وبمجرد أن يجد ثعبان البحر موطنه ، فإنه يبقى هناك عامًا بعد عام ، ويتجول عادة ضمنَ دائرة نصف قطرها بضع مئات من الياردات . وإذا نقلَته من هناك قوى خارجية ، فسوف يعود دائمًا ، بأسرع ما يمكن ، إلى مسكنه المختار . وعُرف عن الثعابين التي التقطها الباحثون ، وثبّتوا عليها أجهزة إرسال لاسلكية وأطلقوها على بعد أميال عديدة من نقطة التقاطها ، أنها تعود إلى حيث عُثِر عليها أول مرة في غضون أسبوع أو اثنين . ولا أحد يعرف كيف تجد طريقها بالضبط .

ثعبان البحر الأصفر مخلوق انعزالي ، عادة ما يعيش المرحلة النشطة من حياته وحده ، تاركاً للفصول العابرة أن تملي سلوكَه وتقرِّرَه . عندما تنخفض الحرارة ، يمكنه أن يظل ساكناً بلا حراك في الوحل لفترات طويلة ، سلبياً تمامًا ، وفي بعض الأحيان يتشابك مع ثعابين بحر أخرى مثل كرة غزْل فوضوية .

وهو صياد ليلي . عند الغسق ، يخرج من الرواسب ويشرُع في البحث عن الطعام ، ويأكل كلَّ ما يمكن أن يجده ؛ الديدان ، اليرقات ، الضفادع ، القواقع ، الحشرات ، جراد البحر ، الأسماك ،

وكذلك الفئران والطيور الصغيرة إذا ما أُعطِي الفرصة . ولا يترفَّع على الاقتيات على الفضلات .

بهذه الطريقة ، يعيش ثعبان البحر الجزء الأكبر من حياته في رداءٍ أصفرَ ضاربٍ إلى البُنيّ ، مُراوِحاً بين النشاط والإسبات . ويبدو أنه يفتقر إلى أي شعور بالغاية –سوى في بحثه اليومي عن الطعام والمأوى ؛ كما لو أن الحياة تتعلق أولاً وقبل كل شيء بالانتظار ، ومعناها كامِن في الفجوات ، أو في مستقبل مجّرد سديميّ ، لا يمكن تحقيقه بأي شيءٍ سوى الصبر .

وهي حياة طويلة . يمكن لثعبان بحرٍ يتجنبُ المرض والكوارث أن يعيش لمدة تصل إلى خمسين عاماً في مكان واحد . وهناك ثعابين بحرٍ سويدية تجاوزت الثمانين من العُمر في الأسر . وتتحدث الأساطير والخرافات عن ثعابين بحر عاشت مائة عام وأكثر . وعندما يُحرم ثعبان البحر من طريقة لتحقيق غرضه الرئيسي في الحياة –الإنجاب– فإنه يبدو قادرًا على العيش إلى الأبد ، كما لو أنه يمكن أن يعيشَ مع الانتظارِ حتى نهاية الزمان .

ولكن ، في مرحلة ما من حياته ، عادةً بعد خمسة عشر إلى ثلاثين عامًا ، يقرر ثعبان البحر الجامحِ فجأة أن يتكاثر . أما الذي يدفعهُ إلى هذا القرار ، فهو ما قد لا نعرفه أبداً . ولكنْ بمجرد أن يُتخذ ، يأتي الوجود الهادئ لثعبان البحر إلى نهاية ، وتتخذ حياته طابعًا آخرَ مختلفاً تماماً . عندئذٍ يشرع في شق طريقِ عودته إلى البحر ، بينما يَشهد في نفس الوقت بتحوُّله النهائي : يتلاشى لونُ جلده الباهت الأصفر الضاربِ إلى البُنيّ ، ويصبح لونه أكثر صفاءً وأكثر تميزًا ، ويتحول ظهره إلى اللون الأسود وجوانبه إلى الفضي ،

ويتميّز بخطوط، كما لو أن جسمَه يتغير بالكامل ليعكس عزمَه الجديد. ويصبح ثعبان البحر الأصفر ثعبان بحرٍ فضيًا. هذه هي المرحلة الرابعة من دورة حياة ثعبان البحر.

عندما يطرح الخريف عنها قُتامتُها الحامِية، تتجول ثعابين البحر الفضية عائدة إلى المحيط الأطلسي، وتنطلق نحو بحر سارغاسو. وكما لو أن ذلك يحدث باختيار مقصود، يتكيف جسم ثعبان البحر مع ظروف الرحلة. والآن فقط تتطور أعضاؤه التناسلية؛ تصبحُ زعانفه أطول وأكثر قوة للمساعدة في دفعه؛ وتكبر عيونه وتتحول إلى الأزرق لمساعدته على الرؤية بشكل أفضل في أعماق المحيط؛ وينغلق جهازه الهضمي. تذوب معدته –من الآن فصاعدا، سوف يستمدُّ كل الطاقة التي يحتاجها من احتياطيات الدهون المخزّنة –ويمتلئ جسمه بالبيوض أو السائل المنوي. ولا يمكن لأي تدخل خارجي أن يصرف ثعبان البحر عن غايته أو يحرفَه عن هدفه.

يسبح ما يصل إلى ثلاثين ميلًا في اليوم، أحياناً على عمق ثلاثة آلاف قدم تحت سطح البحر؛ وما نزال نجهل الكثير عن هذه الرحلة. ربما ينهي رحلته في غضون ستة أشهر، أو أنه قد يتوقف لفصل الشتاء. وقد ثبت أن ثعبان البحر الفضي يمكن أن يعيش في الأَسر لمدة تصل إلى أربع سنوات من دون أي طعامٍ على الإطلاق.

وهيَ رحلة طويلة متقشفة متنسِّكة، تُقطَعُ بعزمٍ وجودي يتعذَّرُ تفسيره. ولكن، بمجرد أن يصل ثعبان البحر إلى بحر سارغاسو، فإنه يكون قد وجد مرة أخرى طريقه إلى وطنه البعيد. وتحت غِلالاتٍ مدوِّمة من الأعشاب البحرية، يقومُ بتخصيب بيوضه. وبذلك تنتهي حياةُ ثعبان البحر، وتكتمل قصته، ويموت.

بجوار الجدول

علمني والدي أن أصطاد ثعابين البحر في الجدول المتاخم للحقول في موطن طفولته . كنا نسافر بالسيارة عند الغسق في أغسطس ، وننعطف يسارًا من الطريق الرئيسي ونعبرَ الجدول ، ثم نتحول إلى طريق صغير لا يزيدُ كثيراً عن درب شقّه جرار زراعي في التراب ، والذي يتجه إلى منحدر حاد ثم يمتد في موازاةِ الماء . على يسارنا تنداحُ الحقول ، حيث تمسح سنابل القمح الذهبية جانب سيارتنا . وعلى اليمينِ ، ثمة العشب الذي يهسُّ بهدوء . ووراءه الماء ، بعرض نحو ستة أمتار ؛ تيار هادئ ينساب متعرجاً عبر الامتدادات الخضراء مثل سلسلة فضية تلتَمع بآخرِ شعاعات الشمس الغاربة .

انطلقنا بسيارتنا ببطء على طول منحدرات النهر ، حيث يندفِعُ التيار فجأة بين الصخور متجاوزاً شجرة الصفصاف العجوزِ الملتوية . كنتُ في السابعة من عمري ، وقد قطعتُ هذا الطريق نفسَه عدة مرات من قبل . وعندما انتهى إلى جدار من النباتات العصيّةِ على الاختراق ، أطفأ أبي المحرك وأصبح كل شيء مظلماً وساكناً -سوى خرير الجدول . كنا نرتدي كلانا أحذية بلاستيكية طويلة العنق وبناطيلَ تخويض زلقة من الفينيل ؛ بنطالي أصفر وبنطاله برتقالي . أخذنا دلوين أسودين مملوءين بمعدات الصيد ومصباحاً يدوياً وإناءاً مليئاً بالديدان من صندوق السيارة ، وانطلقنا .

على طول ضفة النهر ، اشتبكَ العشب رطبًا كثيفاً عصياً

على الاختراق، وأكثر منّي طولاً. تولى أبي قيادة الطريق وفتح لنا مساراً؛ وانغلقت النباتات في قوس فوقي بينما أتبعه على الأعقاب. ورفرفت الخفافيش ذاهبةً آيبةً فوق النُّهير، صامتة مثل علامات ترقيم سوداء ترتسِمُ على صفحة السماء.

وبعد نحو أربعين ياردة اثني عشر متراً، توقف أبي ونظر حوله. وقال: «هذا سيكفي».

كانت الضفة موحلة وحادة الانحدار. وإذا ما اضطربَت خطواتُك، فإنك تصبح تحت خطر السقوط والانزلاق مباشرة إلى الماء. وكان ظلام الغسَق قد شرع مُسبقاً في الهبوط.

أمسك أبي حزمَ العشب بيدِه وسار هابطاً المنحدر بحذرٍ في خط مائل، ثم استدار ومدَّ لي يده الأخرى. أمسكتُ بها وتبعتُه بنفس الحذر المدروس. وفي الأسفل عند حافة الماء، وقفنا على حافة صغيرة جاسئةٍ ووضعنا دلاءنا.

قلّدتُ أبي، الذي كان يتفحص الماء بهدوء، وتعقبتُ نظراتِ عينيه، متخيلًا أنني أرى ما يرى. لم تكن هناك، بالطبع، أي طريقة لمعرفة ما إذا كانت هذه بُقعة جيدة. كان الماء مُظلماً، انبثقت منْ هنا وهناك منه حُزم من القصب، مُلوِّحة بطريقة مهدّدة، لكن كل شيء تحت السطح كان محتجباً عنا. لم تكن لدينا طريقة للمعرفة، لكننا اخترنا أن نتحلى بالإيمان من وقت لآخر - كضرورة شخصية. غالبًا ما يتعلق الصيد بذلك بالضبط.

«نعم، هذا سيكفي»، كرر أبي، ملتفِتاً إلي. سحبتُ صنّارة من الدلو وناولتها له. دفع العصا في الأرض وطوى الخيط بسرعة، والتقط الخطاف، وسحب دودة سمينة بحذر من الوعاء. عضّ

شفته ودرَس الدودة في ضوء المصباح ؛ وبعد أن ثبتها على الخطاف ، رفعها إلى وجهه وتظاهر بالبصق عليها جلباً للحظ ، مرتين دائمًا ، قبل أن يلقيها في الماء بتلويحةٍ عريضة . انحنى وتحسس الخيط ، وتأكد من أنه مشدود وأنه لم يبتعد كثيرًا في التيار . ثم استقام وقال ، «حسنًا» ، وعُدنا صاعدين الضفة .

ما كنا نسميها صنانيراً كانت شيئاً آخر في الحقيقة ، كما أعتقد . عادةً ما تشير كلمة صنارة إلى خيط صيد طويل مع العديد من الخطافات والغطاسات . كانت نسختنا أكثر بدائية ، صنَعها أبي بشحذ أحد طرفي قطعة من الخشب بفأس . ثم كان يقتطع قطعة من خيط من النايلون السميك ، حوالي خمسة عشر قدمًا ، ويربط إحدى طرفيها بالعصا الخشبية . وكان يصنع الغطاسات بسكب الرصاص المذاب في أنبوب فولاذي وتركِهِ ليتصلب قبل قصّ الأنبوب إلى قطع قصيرة يقوم بثقبها . وكانت الغطاسة توضع على بعد يد تقريباً من نهاية الخيط ويتم تثبيت الخطاف الوحيد الكبير نسبياً في النهاية . وكانت عصا الصنارَةُ تُدقّ في الأرض ، بينما يستقر الخطاف مع الدودة على قاعِ النُّهير . وكنا نجلب عشر أو اثنتي عشرة صنارة ، ونضع فيها الطُعم ونرميها واحدة تلو الأخرى ، متباعدة بمقدار ثلاثين قدمًا تقريبًا . وبينما نصعد ونهبط الضفة المنحدرة ، كنا نكرر نفس الإجراء الشاق في كل مرة ؛ نفس الإمساك باليد المدرّبة جيداً ، نفس الحركات ونفس البصق من أجل جلب الحظ .

عندما ثُبِّتت الصنارة الأخيرة ، عدنا بنفس الطريقة ، صعودًا ونزولًا على الضفة المنحدِرة ، كي نفحص كل واحدة منها مرة

أخرى ، ونختبر كل خيط بعناية للتأكد مما إذا كانت سمكة قد التقطت الطعم ، ثم نقف هناك دقيقة في صمت ، حتى ندع لغريزتنا أن تقنعنا بأن الأمور جيدة ، وأن شيئًا ما سيحدث هنا إذا منحناه بعض الوقت فحسب . وبحلول الوقت الذي تحققنا فيه من آخر خيط ، كان الظلام قد حطّ تماماً –وأصبحت الخفافيش الصامتة تُرى فقط عندما تنقضُّ عبر شعاعات ضوء القمر . وعندئذٍ ، صعدنا الضفة مرة أخيرة وسرنا عائدين إلى السيارة ، واتخذنا طريقنا عائدَين إلى البيت .

لا أتذكر أننا تحدثنا أبداً عن أي شيء آخر هناكَ ، بجانبِ النُّهَير ، غير ثعابين البحر وعن أفضل طريقة لالتقاطها . لا أتذكر أننا تحدثنا عن شيء آخر على الإطلاق .

ربما لأننا لم نفعل ذلك قط ، لأننا كنا في مكان حيث الحاجة إلى الحديث محدودة ؛ مكانٍ يتمتع المرء بمشهده الفاتنِ أفضل ما يكون بالصمت : ضوء القمر المنعكس على صفحة الماء ، هسيس العشب ، ظلال الأشجار ، الاندفاع الرتيب للتيار ، والخفافيش التي تحلق فوق كل شيء مثل علامات نجمية . كان ينبغي أن تكون هادئًا حتى تصبح جزءًا من هذا الكل .

وقد يكون ذلك ، بالطبع ، لأنني أتذكر كل شيء بطريقة خاطئة أيضاً ؛ لأن الذاكرة شيء غير موثوق ولا يُعتمد عليه ، والذي ينتقي ويختار ما يحتفظ به . وعندما نبحث عن مشهد من الماضي ، ليس من المؤكد بأي حال من الأحوال أن ننتهي باستحضار الشيء

الأكثر أهمية أو الأكثر صلة ؛ بدلاً من ذلك ، نتذكر ما يناسب الصورة المسبقة التي لدينا . وترسمُ ذاكرتنا لوحة تكمل فيها التفاصيل المختلفة بعضها البعض بطريقة حتمية . ولا تسمح الذاكرة بالألوان التي تتصادم مع الخلفية . ولذلك ، دعنا نقل فقط أننا كنا صامتين . وعلى أي حال ، لا أعرف ما قد نكون قد تحدثنا عنه إذا كُنا قد فعلنا .

كنا نقطُن على بعد ميل أو ميلين فقط من النُّهير . وعندما نعود إلى المنزل في وقت متأخر من الليل ، كنا نخلع أحذيتنا وبناطيل تخويضنا على الدرجات الأمامية ، ونذهب مباشرة إلى السرير . وكنتُ أغفو بسرعة ، وبعد الخامسة صباحاً بقليل ، كان أبي يوقظني مرة أخرى . لم يكن بحاجة إلى قول الكثير . كنتُ أنهضُ من السرير على الفور ، ونصبح في السيارة بعد بضع دقائق . وفي الأسفل على ضفة النهر ، تشرِقُ الشمس ويصبغُ الفجر حافة السّماءِ الدّانيةِ ببرتقالي عميق . كان الماءُ يبدو وكأنه يندفع بصوت مختلف ، أوضح وأكثر صفاءً ، كما لو أنه استيقظ للتو من نوم عميق . وكانت أصواتٌ أخرى تُسمَع في كل مكان من حولنا : طائر شحرور يشدو ؛ بطة برية تقتحِمُ الماء باندفاع أخرقَ ناثرةً الماء في الهواء ؛ طائر مالك الحزين يحلق بصمت فوق التيار ، محدِّقاً في الأسفل بمنقاره الكبير الشبيه بخنجر مُشهَر .

مشينا في العشب الرطب وشققنا طريقنا عبرَ دروب جانبية إلى أسفل الضفة إلى الصنارة الأولى . انتظرَني أبي ودرسنا الخيط المشدود معاً ، باحثَين عن علامات على نشاط تحت السطح . انحنى أبي ووضع يده على خيط النايلون . ثم استقام مرة أخرى

وهز رأسه . سحب الخيط ورفع ليَ الخطافَ كي أراه . كانت الدودة قد ذهبت ، ربما سرقتها الأسماك الماكرة .

انتقلنا إلى الصنارة التالية التي كانت فارغة أيضًا . وكذلك كانت الثالثة . ولكن ، بينما كنا نقترب من الرابعة ، استطعنا أن نرى الخيط وقد جُرَّ إلى حزمة من القصب . وعندما سحبه أبي ، كان عالقاً . غمغم بشيء غير مسموع ، وأمسك الخيط بكلتا يديه وشد بقوة أكبر ، ولكن دون جدوى . ربما يكون التيار قد حمل الخطاف والغاطس إلى القصب . ولكن ، ربما كان ذلك أيضًا ثعبان بحر ابتلع الخطاف ثم جعل نفسه والخيط يعلقان في سيقان النباتات ، وهو الآن مستلقٍ هناك ، منتظراً فرصتَه بصمت . إنك إذا أمسكت بالخيط مشدودًا في يدك ، فسوف تستطيعُ أن تشعر أحيانًا بحركات صغيرة ، كما لو أن الشيء العالق تحت السطح على الطرف الآخر يستجمع نفسه ويستعد .

قرفصَ أبي وسحب الخيط ، وعض شفته ولعن عاجزًا . كان يعلم أن هناك طريقتين فقط للخروج من هذا الوضع وأن لكليهما خسارته ؛ إما أن يتمكن من التخلص من ثعبان البحر ويسحب الخيط ، أو أن يقطع الخيط ويترك ثعبان البحر حيث هو ، عالقاً في القصب مع الخطاف والغطاس الثقيل مثل الكرة والسلسلة .

هذه المرة ، لم يبدُ أن هناك أي خيار آخر . سارَ أبي بضع خطوات إلى جانب ، محاولًا من زاوية مختلفة ، وسحب بقوة خيط النايلون الذي أصبح مشدوداً مثل وتر الكمان . ولم ينفع ذلك بشيء .

«كلا ، لا فُرصة» ، قال أخيراً وسحب بأقصى ما يستطيع ، قاطعاً الخيط الذي انقطع نصفين بصوت انقصافٍ عالٍ .

«دعنا نأمل في أن تنجو» ، قال ، ومضينا صاعدين وهابطين ضفّة النُّهير .

عند الصنارة الخامسة ، انحنى أبي وتحسّس الخيط بأناة . ثم استقام وخطا إلى الجانب . «هل تريد أن تأخذ هذه»؟ قال .

أمسكت الخيط وسحبته برفق وشعرتُ على الفور بالقوة التي ردّت عليّ ؛ نفس القوة التي شعر بها أبي بأطراف أصابعه . كان لدي الوقت لأدرك أن الشعور مألوف ، وعندئذٍ سحبتُ بقوة أكبر قليلاً وشرعَت السمكة في التحرُّك . «إنها ثعبان بحر» ، قلتُ بصوتٍ عالٍ .

لا تحاول أسماك ثعابين البحر أبداً أن تندفع سريعاً ، مثلما قد تفعل سمكة البايك ؛ إنها تفضل الانزلاق إلى الجوانب ، صانعةً بذلكَ نوعًا من المقاومة المتموجة . وهي قوية بشكل مدهش بالنسبة لحجمها وسبّاحةٌ ماهرة ، على الرغم من زعانفها الصغيرة .

لففتُ الخيطَ ببطء قدر الإمكان ، دون أن أتركه يرتخي ، كما لو أنّني أستمتع باللحظة . لكنه كان خيطًا قصيرًا ، ولم يكن هناك قصبٌ تختبئُ فيه هذه السمكة ؛ ولذلك ، أخرجتُ السمكة بعد هنيهةٍ من الماء وشاهدت جسمها البني اللامع المصفر وهو يتلوّى في ضوء الصباح الباكر . حاولت الإمساك بها من خلف رأسها ، ولكن ذلك كان مستحيلاً عمليًا . لفَّت نفسها حول ذراعي مثل أفعى ، إلى أعلى كوعي . وشعرتُ بها كقوة ساكنة أكثر من كونها حركية . ولو أسقطتُها الآن ، فسوف تهرب عبر العشب وتعود إلى الماء قبل أن أتمكن من الإمساك بها بطريقة آمنة .

في النهاية ، أخرجنا الخطاف وملأ أبي الدلو بالماء من النهر ،

وجعلتُ ثعبان البحر ينزلق فيه ، وشرعَت السمكة على الفور في السباحة في دوائر . وضع أبي يده على كتفي ، وقال إنها جمال خالِص . وانتقلنا إلى الصنارة التالية ، صاعدَين بخفة ضفة النهر . وكان عليّ أن أحمل الدلو .

مكتبة
t.me/t_pdf

أرسطو وثعبان البحر المولود من الطين

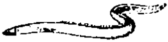

ثمّة ظروف تجبرنا على اختيار ما نصدقه ونؤمن به . وثعبان البحر واحدٌ من هذه الظروف . إذا اخترنا أن نصدِّقَ أرسطو ، فإن كل ثعابين البحر تولَد من الطين . إنها تظهر هكذا ببساطة ، كما لو من العدَم ، في الرواسب في قاع البحر . وبعبارات أخرى ، أنّها لا تنشأ من ثعابين بحر أخرى تتكاثر عن طريق اتحاد الأعضاء التناسلية وتخصيب بويضة .

معظم الأسماك ، كما كتب أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد ، تضع البيض وتنجب ، بطبيعة الحال . لكن ثعابين البحر ، كما أوضح ، هي استثناء . إنها ليست ذكراً ولا أنثى . إنها لا تضع بيوضاً ولا تتزاوج . ثعابين البحر لا تعطي الحياة لثعابين بحر أخرى ، وإنما تنقدِحُ شرارة حياتها من مكان ما آخر .

اقترح أرسطو : تأمّل بركة صغيرة لها رافِدٌ خلال فترة الجفاف . عندما يتبخر الماء ويجف الطين ، لا تعودَ هناك أي حياة على الإطلاق في قاعها المتصلب . لا يمكن أن تستمر أي حياة هناك ، ناهيك عن سمكة . ولكن ، عندما يأتي المطر الأول ويعود الماء ببطء ، ثمة شيء لا يُصدّق يحدث هناك . فجأة تصبح البركة مليئة بثعابين البحر مرة أخرى . فجأة ، تجدُها هناك فحسب ، وكأنما يجلبها ماء الأمطار إلى الوجود .

كان استنتاج أرسطو أن ثعبان البحر ينبثق ببساطة إلى الوجود هكذا، مثل معجزة زلقةٍ غامضة.

وليس اهتمام أرسطو بثعابين البحر شأناً غير متوقعٍ تمامًا. كان مهتمًا بكل أشكال الحياة. وكان، بالطبع، مفكراً ومنظِّراً، والرجل الذي وضع -مع أفلاطون- الأساس لكل الفلسفة الغربية. لكنه كان، فوق ذلك، عالمًا، وفقَ معايير عصره على الأقل. وكثيراً ما يقال إنّ أرسطو كان آخر إنسانٍ «يعرف كل شيء»؛ أو، بعبارة أخرى، كان آخر شخص يمتلك كل المعرفة التي راكمتها البشرية. ومن بين أمور أخرى، كان متقدمًا على عصره عندما يتعلق الأمر بمراقبة ووصف الطبيعة. كان عمله العظيم «تاريخ الحيوانات» Historia Animalium محاولة أولى، قبل أكثر من ألفي عام من لينيوس Linnaeus، لتصنيف مملكة الحيوان بطريقة منهجية. وراقب أرسطو -ووصف- مجموعة واسعة من الحيوانات وما يميز بعضها عن بعض: مظاهرها، وأجزاء أجسادها، وألوانها، وأشكالها، وكيف تعيش وتتناسل، وماذا تأكل، وكيف تتصرف. ونشأ علم الحيوان الحديث من «تاريخ الحيوانات»، الذي ظلّ عملًا معيارياً في العلوم الطبيعية حتى القرن السابع عشر على الأقل.

نشأ أرسطو في مدينة إسطاغيرا الواقعة في خالسيدِس، وهي شبه جزيرة تنتهي بثلاث زوائد ضيقة من الأرض التي تدخل في بحر إيجه مثل يد بثلاثة أصابع. وكانت حياته هانئة حيث كان أبوه طبيبًا للملك المقدوني؛ وتلقى تعليمًا جيدًا، ويغلِبُ أن يكون والده قد تصور مستقبلاً لابنه كطبيب. لكن أرسطو تيتم في سن مبكرة، وتوفي والده عندما كان في العاشرة من عمره -وربما توفيت والدته

قبل ذلك . واحتضنه أحد أقاربه . وعندما أصبح في السابعة عشرة من عمره أُرسل إلى أثينا للدراسة في أفضل مدرسة في العصور القديمة ، «الأكاديمية الأفلاطونية» . وكان شاباً وحيداً في مدينة غريبة ، فضولياً ذكياً شغوفاً بفهم عالم لا يفهمه سوى أولئك الذين تقطّعت جذورهم . وتتلمذ على أفلاطون في أثينا لمدة عشرين عامًا ، وكان نظيراً له في نواح كثيرة . وعندما مات أفلاطون ولم يتم تعيين أرسطو رئيسًا جديدًا للأكاديمية ، انتقل إلى جزيرة ليسبوس . وهناك بدأ دراسة الحيوانات والطبيعة بدأب . وربما كان هذا أيضًا هو المكان حيث بدأ التفكير في كيفية ظهور ثعابين البحر .

لا يُعرف الكثير عن المنهج العلمي الذي اختطّه أرسطو ؛ فهو لم يحتفظ بملاحظات عن مشاهداته وتجاربه التشريحية . ومع أنه قدم روايات أكيدة ومفصلة عن اكتشافاته واستبصاراته ، فإنه نادراً ما قال أي شيء عن كيفية وصوله إليها . ومع ذلك ، يمكننا أن نكون شبه متأكدين من أنه أجرى شخصيًا العديد من عمليات التشريح التي تشكل الأساس لـ«تاريخ الحيوانات» . ويبدو من الواضح حتماً أنه قضى الكثير من وقته في دراسة أشكال الحياة المائية –وثعابين البحر في المقدمة . وإذا لم يكن ثمة شيء ، فإن كتاباته حول ما هو مخفي داخل ثعبان البحر ؛ حول الوضع النسبي لأعضائه وبنية خياشيمه ، جاءت غزيرة ومفصلة بشكل خاص .

عندما يتعلق الأمر بسمك ثعابين البحر ، غالبًا ما اختلف أرسطو مع علماء آخرين ضاعت أسماؤهم ولم تصل إلى الأجيال التالية ، كما لو أنّ ثعبان البحر كان مسبقاً ، في ذلك الوقت القديم ، مصدرًا للتكهنات والآراء المتضاربة والصراع . وأصر أرسطو بشكل قاطع

على أن ثعابين البحر لا تحمل بيضاً في أجسامها ، معلناً أن أي شخص يدّعي خلاف ذلك لم يدرس هذه الثعابين عن كثب بما يكفي ، ببساطة . وكتب أنه ما مِن شك في أن الأمر كذلك ، لأنك عندما تفتح أحشاء ثعبان البحر ، فإن الأمر لا يُقتصر على أنك لن تجد بيضًا فحسب ؛ إنك لن تجد أيضًا أي أعضاء لإنتاج البيض أو نقله أو أي سائل منوي . لا شيء في وجود ثعبان البحر يفسر كيف يُجلَبُ إلى الحياة . وذكر أيضًا أن أي شخص يدّعي أن ثعبان البحر يلد صغارًا أحياء يكون قد ضلَّله جهلُه ، وأن آراءه لم تستند إلى الحقيقة . كما خطّأ أرسطو أيضًا أولئك العلماء الذين زعموا أن بالوسع تمييز جنس ثعبان البحر ، مشيرين إلى أن رأس الذكر أكبر من رأس الأنثى . لقد خلطوا ببساطة بين التباين بين الأنواع وبين التباين في النوع الجنسي .

لقد درس أرسطو ثعابين البحر ؛ هذا الجزء واضح تماماً . ربما في ليسبوس ، وربما في أثينا . وقام بتشريحها ودرس أعضاءها الداخلية ، وبحث عن البيض والأعضاء التناسلية وعن تفسير لكيفية تناسلها . وربما عالجَ عدداً كبيراً من ثعابين البحر ، وفحصها ، وفكر في أي نوع من المخلوقات تكون . وقد توصل إلى استنتاج أن ثعبان البحر هو شيء في حد ذاته .

في نهاية المطاف ، شكّل النهج الذي طوره أرسطو لفهم الحيوانات ، والطبيعة أيضاً –وحده تقريباً– كلاً من علم الأحياء الحديث والعلوم الطبيعية ، وبالتالي جميع المحاولات اللاحقة لفهم ثعبان البحر . وكان قبل كل شيء منهجاً تجريبياً ، حيث ادّعى أرسطو أن وصف الطبيعة ممكنٌ من خلال المراقبة المنهجية ، ولا يمكن فهمها إلا من

خلال الوصف الصحيح .

وكان ذلك منهجاً جذرياً وأصيلاً ، وكان ناجحاً في كل النواحي . كانت العديد من ملاحظات أرسطو دقيقة بشكل مدهش ، على الأقل بالنظر إلى أنها أُجريت قبل وقت طويل من وجود حقل علم الحيوان كمفهوم . وكانت معرفته تتقدم كثيرًا على عصره ، خاصة عندما يتعلق الأمر بالأنواع المائية . وقد شرح ووصف ، على سبيل المثال ، تشريح الأخطبوطات وتناسلها بطريقة أكّد علم الحيوان الحديث صحتها فقط في القرن التاسع عشر . وفيما يتعلق بثعابين البحر ، ادعى أرسطو ، مُحقّاً ، أنها يمكن أن تنتقل بين المياه العذبة والمياه المالحة ، وأن لديها خياشيم صغيرة بشكل غير عادي ، وأنها ليلية ، تختبئ في المياه العميقة خلال النهار .

لكن ثعبان البحر كان أيضًا موضوعًا قدم عنه أرسطو عددًا غير عادي من الادعاءات الغرائبية بوضوح . وعلى الرغم من أسلوبه المنهجي القائم على الملاحظة ، فإنه لم يتمكن أبداً من فهم ثعبان البحر . كتب أن الثعابين تأكل العشب والجذور -والطين أحياناً . وكتب أنه ليس له قشور . وكتب أنه يعيش سبع أو ثماني سنوات ، وأنه يمكن أن يعيش خمسة أو ستة أيام على الأرض اليابسة -وحتى فترة أطول إذا كانت الرياح تهب من الشمال . وكما ذكرنا آنفاً ، أكّد أن ثعابين البحر بلا جنس بيولوجي وأنها خُلقت من العدم . وخلص أرسطو إلى أن أول تجسُّدٍ لثعبان البحر هو في الواقع مخلوق صغير يشبه اليرقات ؛ نوعٌ من دودة الأرض التي تتخلق تلقائيًا من الطين ، من دون مشاركة أي كائن حي آخر . ويمكن أن تنبثق هذه الدودة قادمةً إلى الحياة في كل من البحار والأنهار ،

خاصة حيث تكون هناك الكثير من النباتات المتحللة ، وهي تفضل المستنقعات الضحلة أو أحواض الأعشاب البحرية حيث تدفّئُ الشمس الماء . ويكتب أرسطو : «لا يمكن أن يكون هناك أي شك في أنها هكذا» ، ثم يختتم أطروحته بالقول : «كفى حديثاً عن تناسل ثعبان البحر .»

كل المعرفة تأتي من التجربة . كانت هذه أولى نظرات أرسطو وأكثرها أهمية . ينبغي أن تكون أي دراسة للحياة تجريبية ومنهجية . ويجب وصف الحقيقة كما تدركها حواسنا . أولاً ، يجب أن يثبت المرء أن الشيء كائن -له ماهيّة ؛ ثم يمكن أن يركز على تفسير ماهيته . وفقط عندما يجمع المرء كل الحقائق حول ماهية الشيء ، يصبح من الممكن مقاربة السؤال الميتافيزيقي عن سبب كينونته كما هو . وكان هذا أيضاً هو الاستبصار الذي أرسى الأساس لمعظم المحاولات المبذولة لاكتساب فهم عِلمي للعالم منذ زمن أرسطو .

ولكن ، لماذا تمكن ثعبان البحر من الانزلاق من قبضة أرسطو؟ هذا هو السؤال الذي تبدو الإجابة عنه مستحيلة . مهما يكن مدى دقة ومنهجية دراسته لثعبان البحر ، توصل إلى استنتاجات تبدو الآن غير علمية إلى حد السُّخف تقريباً . وهذا ما يجعل ثعبان البحر فريدًا . وقد واجه العِلمُ الكثيرَ من الألغاز ، لكن القليل منها أثبت أنه مستعصٍ على الحل مثل ثعبان البحر . وتبيّن أن ثعابين البحر ليست صعبة المراقبة بشكل غير مألوف فحسب -بسبب دورة حياتها الغريبة ، وحذرها ، وتحولاتها ، ودورة تكاثرها- وإنما

لأنها تتوخى السرية بطريقة تبدو متعمّدة ومصمَّمة سلفاً. وحتى عندما تكون المراقبة الناجحة ممكنة؛ حتى عندما يقتربُ المرءُ من فهمه حقاً، يبدو ثعبان البحر وكأنه يفرُّ مبتعِداً. وبالنظر إلى المقدار المفرط من الوقت الذي أنفقه العديد من الأشخاص في دراسة ثعبان البحر ومحاولة فهمه، كان ينبغي أن نعرف عنه، كما يمكن القول، أكثر مما نعرف حقاً. أمّا أننا لا نفعل، فلغزٌ غامض. ويسميه علماء الحيوان «سؤال ثعبان البحر».

ربما كان أرسطو أول من وثّق سوء فهمه لثعبان البحر، لكنّه لم يكن الأخير، كما نعلم. فقد استمر ثعبان البحر في مراوغة الدراسة العلمية والتهرب منها في عصرنا الحديث. وقام عدد من الباحثين البارزين، وكذلك الهواة، بدرجات متفاوتة من الحماس، بدراسة ثعبان البحر من دون أن يتمكنوا من فهمه على الإطلاق. وحاولت بعض الأسماء الأكثر شهرة في تاريخ العلوم الطبيعية -عبثاً- العثور على إجابة لسؤال ثعبان البحر. ويبدو الأمر كما لو أن حواسهم لم تكن كافية في حد ذاتها. في مكان ما في الظلام والطين، تمكّن ثعبان البحر من الاختباء بعيداً عن المعرفة البشرية. وعندما يتعلق الأمر بثعابين البحر، أُجبرت البشرية -هائلة المعرفة بخلاف ذلك- على الاعتماد على الإيمان إلى حد ما.

في الأيام الخوالي، كثيراً ما جرى التمييز بين ثعابين البحر والأسماك الأخرى. كان ثعبان البحر مخلوقًا منفصلًا، بمظهره وسلوكه، وقشوره غير المرئية وخياشيمه المرئية بالكاد وقدرته على البقاء خارج الماء. كان مختلفاً بما يكفي لجعل العديد من الناس يعتقدون أنه في الواقع ثعبان مائي أو برمائي. وحتى هوميروس

نفسه بدا أنه ميّز ثعابين البحر . بعد أن قتل أخيل أستيروبايوس في «الإلياذة» ، «تركه مستلقياً حيث هو على الرمال ، بينما تدفقت المياه المظلمة فوقه ، وانهمكت الأسماك وثعابين الماء في قضم الدهون التي حول كليتيه» . واليوم ، ما يزال السؤال يُطرَح من وقت لآخر : هل ثعبان البحر سمكة حقاً؟

غالبًا ما أدى هذا العوَز إلى اليقين بشأن الطبيعة الأساسية لثعابين البحر إلى وضع مسافة بيننا وبينها . فقد وجد الناس ثعابين البحر مخيفة أو مقرفة . إنها نحيفة ولزجة ، وتبدو في هيأتها مثل الأفاعي ويقال أنها تأكل أجساد البشر ؛ وهي تتحرك خلسة في الظلام والطين . كان ثعبان البحر كائناً غريباً ، على عكس الحيوانات الأخرى ، وبغض النظر عن مدى انتشاره في بحيراتنا وأنهارنا وعلى موائدنا ، فقد ظل غريبًا دائماً في بعض النواحي .

كان موطن الغموض الأكثر ديمومةً وإثارة للجدل حول ثعبان البحر هو طريقته في التكاثر . وكان في القرن الماضي فقط حين تمكنّا من إنتاج تفسير معقول –وإن لم يكن حاسمًا . لفترة طويلة ، اختار العديد من الناس ببساطة أن يصدقوا أرسطو ونظريته حول الديدان التي تنبثق إلى الوجود من الطين بطريقة عفوية . وانحاز آخرون إلى الفيلسوف الطبيعي بلينوس الأكبر Pliny the Elder ، الذي مات في ثوران بركان جبل فيزوف في العام ٩٧م ، وادعى أن ثعبان البحر يتكاثر بفرك جسمه بالصخور ، وهو ما يحرر جزيئات من جسمه والتي تصبح بدورها ثعابين بحرٍ جديدة . ويصدّق البعضُ المؤلف اليوناني أثيناوس Athenaeuss ، الذي شرح في القرن الثالث أن ثعبان البحر يفرز نوعًا من السوائل التي تغوص في الطين ثم تصبح

حياة جديدة .

تم اقتراح نظريات أكثر أو أقل خيالية عبر التاريخ . كان المصريون القدماء مقتنعين بأن ثعابين البحر خرجت إلى الحياة من العدم عندما دفأت الشمسُ مياه النيل . وفي أجزاء مختلفة من أوروبا ، كان يُعتقد أن ثعبان البحر وُلد من نباتات متحللة في قاع البحر ، أو نما من جثث متعفنة لثعابين بحرٍ أخرى ميتة . ويعتقد البعض أن ثعبان البحر ولد من رغوة البحر أو خُلِقَ عندما سقطت أشعة الشمس على نوع معين من الندى الذي يغطي شواطئ البحيرات وضفاف الأنهار في الربيع . وفي الريف الإنجليزي ، حيث كان صيد ثعابين الماء شائعاً ، اعتنق معظم الناس نظرية تقول بأن ثعبان البحر يولد عندما يسقط شعرٌ من ذيول الخيول في الماء .

تدور العديد من النظريات المختلفة حول ولادة ثعبان البحر بوضوح حول فكرة شائعة . وهذا يعني أن فكرة إمكانية انبثاق الحياة من شيء يبدو بلا حياة ، هي صدى دقيق لولادة الكون نفسه ؛ بعوضةٌ تولد من ذرة غبار ؛ ذبابةٌ تولد من قطعة لحم ؛ وثعبان بحر يولد من الطين –وهي فكرة يشارُ إليها بـ«النشوء التلقائي» . وكانت واسعة الانتشار تاريخيًا ، خاصة قبل اختراع المجهر . ببساطة ، صدق الناس ما استطاعوا رؤيته ، فإذا كنت تنظر إلى قطعة من اللحم المتعفن وفجأة رأيت يرقات تزحف خارجة منها ، دون أن تلاحظ أي ذباب أو بيض ذباب ، كيف يمكنك أن تستنتج أي شيء سوى أن اليرقات خُلقت من العدَم؟ وبالطريقة نفسها ، لم يلاحظ أي إنسان تناسل ثعابين البحر ، وبالقدر الذي يمكن أن يخمنه أي شخص ، لم تكن لها أعضاء تناسلية .

تعود فكرة النشوء التلقائي، بطبيعة الحال، إلى خلق كل شيء؛ إلى خلق الحياة نفسها. إذا كان ثمّةَ في الحقيقة بداية ذات مرة، عندما ظهرت الحياة إلى الوجود من لا شيء (سواء كنتَ تنسِبها إلى التدخل الإلهي أو إلى عامل آخر)، فإنه ربما لا يكون من الغريب جدًا افتراض أن هذا النشوء التلقائي يمكن أن يتكرر.

شُرحَت الكيفية التي يُفترض أن يحدث فيها ذلك بعدة طرق. في سفر التكوين، هناك إشارة إلى «ريح من الله» تجتاح الأرض القاحلة المقفرة، والتي لا تخلق الضوء والأرض والنباتات فحسب، وإنما جميع الحيوانات أيضًا. وتحدث الفلاسفة القدماء المعروفون باسم «الرواقيّون» عن الروح الحيوية، ونفَس الحياة، ومزيج الهواء والحرارة اللازمين لوجود الأجسام الحية والروح. والفرضية الأساسية هي الاعتقاد بأن المادة غير الحية يمكن أن تتحول إلى مادة حية، وأن الأحياء والأموات يعتمدون في الواقع على بعضهم البعض، وأن نوعًا من الحياة يمكن أن يوجد في شيء يبدو ميتًا. وعندما تعذر فهم ثعبان البحر أو تفسيره، كان هذا النوع من التفكير قريبًا جدًا وفي المتناول. وأصبح ثعبان البحر انعكاساً للغموض العميق لأصول الحياة.

ومع ذلك، فإن ما يجعل ثعبان البحر خاصاً هو أننا ما نزالُ مجبَرين على الاعتماد على الإيمان إلى حد ما بينما نحاول فهمه. قد نعتقد أننا نعرف الآن كل شيء عن حياة ثعبان البحر وتناسله -عن رحلته الطويلة من بحر سارغاسو، وتحولاته، وصبره، ورحلة عودته ليتكاثر ويموت- ولكن، حتى لو أن كل ذلك حقيقي وصحيح، فإن الكثير منه يظل قائماً على الافتراض.

لم ير إنسان أبداً ثعابين البحر وهي تتكاثر ؛ لم يشاهد أحد ثعبان بحر وهو يقوم بتخصيب بيض ثعبان آخر ؛ لم يتمكن أحد من جعل ثعابين البحر الأوروبية تتكاثر في الأسر . ونحن نعتقد أننا نعلم أن جميع ثعابين البحر تفقس في بحر سارغاسو ، حيث عُثِر على أصغر الأمثلة على وجود اليرقات الشفافة الشبيهة بأوراق الصفصاف . لكنّ أحداً لا يعرف على وجه اليقين لماذا يصر ثعبان البحر على التناسل هناك -وهناك فقط . لا أحد يعرف على وجه اليقين كيف يتحمل قسوة رحلة عودته الطويلة ، أو كيف يشق طريقه ويتدبر أمرَ الملاحةِ في البحر المتلاطِم . ويُعتقد أن جميع ثعابين البحر تموت بعد فترة وجيزة من التكاثر ، حيث لم يتم العثور أبداً على أي ثعابين بحر حية بعد موسم التكاثر ؛ ولكن ، مرة أخرى عندئذٍ ، لم يتم العثور على ثعبان بحر ناضج ، حيٍّ أو ميت ، على الإطلاق في مكان التكاثر المفترض . وبعبارات أخرى ، لم ير أي إنسان ثعبان بحر في بحر سارغاسو . ولا يمكن أن يفهم أحدٌ تماماً الغايةَ من التحولات العديدة لثعبان البحر . ولا أحد يعرف أي مدة يمكن أن تعيشها ثعابين البحر .

بعبارات أخرى ، بعد أكثر من ألفي عام على أرسطو ، تظل ثعابين البحر نوعًا من اللغز العلمي ، وأصبحت بطرق عديدة رمزًا لما يُشار إليه أحيانًا بأنه «ميتافيزيقي» . وكما يحدث ، يمكنُ تعقب الميتافيزيقا أيضاً إلى أرسطو (على الرغم من أن المفهوم سُمي بعد وفاته فحسب) . وهي فرع من الفلسفة يهتم بما هو موجود خارج -أو

وراء- الطبيعة الموضوعية، وراء ما يمكننا ملاحظته ووصفه بمساعدة حواسنا. والميتافيزيقا لا تتعلق بالله بالضرورة. إنها بالأحرى محاولة لوصف الطبيعة الحقيقية للأشياء، كلِّ الحقيقة. وهي تدَّعي أن هناك فرقاً بين الوجود في حد ذاته وبين ماهيّة ذلك الوجود. كما تدعي أنهما مسألتان منفصلتان. وثعبان البحر كذلك. وجودُه يأتي أولاً، أما ماهيّته، فشأن مختلف تمامًا.

أحب أن أعتقد بأن هذا هو السبب في أن ثعبان البحر استمر في أن يكونَ مصدرًا للافتتان. لأن هذا التقاطع بين المعرفة والإيمان، حيث تكون المعرفة غير مكتملة -وبالتالي يُسمح لها بأن تضمَ كلاً من الحقيقة وآثار الأسطورة والخيال، هي شأن مُلزم قاهر. لأنه، حتى أولئك الناس الذين يثقون بالعلم وبعالَم طبيعيّ منظَّم، يريدون أحيانًا أن يتركوا فُسحة صغيرة جداً للمجهول الذي لا سبيل إلى معرفته.

إذا كنتَ مع الرأي القائل بأنه ينبغي السماح لثعبان البحر بأن يبقى ثعبان بحر، فهذا يعني أن عليك السماح له بأن يبقى لغزاً بدرجةٍ ما -للوقت الحالي على الأقل.

كان ثعبان البحر -ويظل- لغزًا. هل هو سمكة أم شيء آخر تمامًا؟ كيف يتكاثر؟ هل يضع بيضًا أم يلد صغاراً أحياء؟ أهو بلا جِنس؟ هل هو خنثوي؟ أين يولد وأين يموت؟ لقرون بعد أرسطو، ظلّ ثعبان البحر موضوعاً لنظريات لا تعد ولا تحصى، وكانت كل محاولة لفهمه تحتشد حتماً بالغموض. خلال العصور الوسطى، شاعت نظريتان على وجه الخصوص، غالبًا ما كانتا مجتمعتين: واحدة قالت إن ثعبان البحر وَلود، أي أنه يلد صغاراً أحياء؛ وقالت

الأخرى أن ثعبان البحر خنثى ، ذكر وأنثى معاً .

ومع عودة ظهور العلوم الطبيعية في القرن السابع عشر ، أصبحت مسألة ثعبان البحر موضوعاً لبحث أكثر منهجية . تم إحياء مناهج أرسطو -وخاصة إصراره على الحاجة إلى مراقبة الطبيعة بطريقة منهجية- ونتيجة لذلك ، تغيرت نظرتنا إلى العالم -وثعبان البحر . ولكن ، حتى مع ذلك ، سوف يستغرق الأمر وقتًا طويلاً قبل أن تبدأ الأسئلة حول ثعبان البحر في العثور على إجاباتها . جادل أرسطو بقوة ضد النظرية القائلة بأن ثعبان البحر وَلود ، لكن هذه النظرة أصبحت الآن أكثر شيوعًا . وقد دافع عنها ، من بين آخرين ، المؤلف الإنجليزي إيزاك والتون Izaak Walton ، الذي نشر في العام 1653 أول كتاب ناجح تجاريًا في العالم عن صيد الأسماك ، «الصياد الكامل» The Compleat Angler . وادعى فيه أن ثعبان البحر حيوان ولود يهب الحياةَ لصغار أحياء ، لكنه أيضاً بلا جنس . ثمّة ثعابين بحر جديدة تتخلق داخل القديمة من دون حَمل .

ثم نشر الطبيب والعالم الإيطالي فرانشيسكو ريدي Francesco Redi ، من مدينة بيزا ، أول نقد قائم على الأدلة لمفهوم النشوء التلقائي . في العام 1668 ، أثبتت تجاربه على الذباب أن البيض والإخصاب مطلوبان معاً لتخليق الحياة . وخلُص إلى أن «كل الحياة تنشأ من بيضة» . كما درس ثعابين البحر ، وتمكن من إظهار أن المخلوقات الشبيهة بالديدان التي توجد أحيانًا داخل هذه الثعابين ، والتي اعتبرها البعض صغاراً غير مولودين ، كانت في الواقع طفيليات على الأرجح . وكتب ريدي أن ثعبان البحر هو في جميع الأحوال غير ولود ، على الرغم من أنه لم يتمكن أبدًا من

العثور على أي أعضاء تناسلية أو بيض، ولم يتمكن بالتالي من تقديم إجابة محددة عن السؤال حول الكيفية التي يتكاثر بها هذا الحيوان حقًا.

كان في هذا السياق حين حطّت بعض الإثارة على طاولة في جامعة بادوفا في إيطاليا. حدث ذلك في العام 1707، حين قام جراح اسمه سانكاسيني Sancassini بزيارة مرفق لصيد ثعابين البحر في كوماشيو Comacchio على الساحل الشرقي لإيطاليا. وهناك رأى ثعبان بحر كبيراً وسميناً، وشعر بأنه مدفوع إلى حمل مشرطه وفتح أحشاء الثعبان. وداخل ثعبان البحر ذاك، وجد شيئًا يشبه إلى حد كبير أعضاءً تناسلية، وشيئًا يشبه البيوض.

بعد ذلك، قام بإرسال ثعبان البحر الذي تم تشريحه إلى صديقه أنطونيو فاليسنيري Antonio Vallisneri، أستاذ التاريخ الطبيعي في بادوفا. وكان فاليسنيري، العدو اللدود لفكرة أن الحياة يمكن أن تنبع من لا شيء، متحمسًا -بشكل مبرر- وأرسل ثعبان البحر هو الآخر إلى جامعة بولونيا، حيث يوجد العديد من أبرز العلماء في عصره.

بث ثعبان البحر من كوماشيو حياة جديدة في مسألة تكاثُر ثعابين البحر، والتي كان حلُّها لفترة من الوقت الهدف الرئيسي للجهود العلمية خلال عصر التنوير. ولكن، لم يحظَ ثعبان البحر نفسه بالاستقبال الذي أملِهُ فاليسنيري. ما الذي تم العثور عليه فيهِ حقًا، بعد كل شيء؟ صحيح، قد تبدو هذه مثل أعضاء تناسلية وبيوض، ولكن كيف يمكن لأي أحدٍ أن يعرف على وجه اليقين؟ حتى يتم اعتبار شيء بأنه مُثبت، سوف يحتاج إلى المراقبة المنهجية

والمزيد من الدراسة . وهكذا ، بدلاً من أن يجل الاستنارة ، أحدث ثعبان البحر من كوماشيو إثارة متواضعة في النقاش الأكاديمي .

كان أستاذ علم التشريح الشهير ، أنطونيو ماريا فالسالفا Antonio Maria Valsalva ، مع الرأي القائل بأن ما يريد فاليسنيري تسميته بالأعضاء التناسلية والبيوض هو ، وفق أغلب الاحتمالات ، مجرد أنسجة دهنية غير حسيّة . وادعى شخص آخر أنها ربما تكون مثانةَ سِباحة تالِفة . وأثارت تلك الشكوك شجاراً داخل المجتمع العلمي . وعرض أستاذ اسمه بيترو مولينيللي Pietro Molinelli مكافأة لأي شخص يستطيع أن يُنتج ثعبان بحر مع بيوض يمكن التحقق منه . وحصل حقاً على عيِّنة واعدة ، إلى أن تم اكتشاف أن الصياد الذي جلب ثعبان البحر على أمل الحصول على المكافأة كان قد حشاه عن آخره ببطارخ من أنواع مختلفة تمامًا من الأسماك .

وهكذا أصبح ثعبان بحر كوماشيو نوعاً من الأسطورة الأكاديمية -لكنّ سؤال ثعبان البحر ظلّ من دون إجابة . كان ما تم اكتشافه في الواقع شيئاً لم يُتَّفق عليه بالكامل . وفي السويد ، توصل كارل لينيوس Carl Linnaeus ، الذي منح في العام 1758 ثعبانَ البحر الأوروبي اسمه العلمي ، إلى الاستنتاج الذي ربما يكون أكثر ملاءمة : أن ثعبان البحر ربما يلِد صغارًا .

وسوف يتطلب الأمر انقضاء سبعين سنة أخرى بعد استبصار فاليسنيري قبل حدوث انفراج آخر في مسألة ثعابين البحر . في حالة تكرارية غير عادية تقريباً ، انتهى المطاف بثعبان بحر آخر ، تم التقاطُه هو أيضًا بالقرب من كوماشيو ، على طاولة في جامعة بولونيا . وهذه المرة ، كانت الطاولة تخص كارلو مونديني Carlo

Mondini ، أستاذ علم التشريح الذي اشتهر لاحقًا بوصف وتسمية تشوُّهٍ في الأذن البشرية يسبب الصمم. وقام مونديني بفحص ثعبان البحر وكتب أطروحة أصبحت كلاسيكية الآن، والتي وصف فيها الأعضاء التناسلية والبيوض لأنثى ثعبان بحر ناضجة جنسياً لأول مرة، بقدرٍ من الدقة العلمية. إن ثعبان بحر كاماشيو الأصلي، الذي أرسله أنطونيو فاليسنيري إلى بولونيا قبل سبعين عامًا، قد أسيء فهمه، وفقًا لمونديني. ومن خلال مقارنة النتائج التي توصل إليها مع نتائج أسلافه، تمكن من إثبات أن ما تم العثور عليه في ثعبان البحر يمكن أن يقال بدرجة ما من اليقين أنه مثانة سباحة تالفة. لكن هذا الثعبان الجديد هو الشيء الحقيقي. كانت الثنايا الموجودة بداخله هي أعضاؤه التناسلية، والأجسام الصغيرة المتخِذةُ شكل قطرات بداخله هي بيوضه.

كان ذلك في العام 1777، وأصبح من الممكن القول أخيرًا أن سؤال ماهيّة ثعبان البحر قد أجيب عنه مؤقتاً. وإذا أمكنَ أن تكونَ لثعابين البحر أعضاء تناسلية، وتم إثبات أنها تنتج بيوضًا، فإن ذلك قد يُظهِرُ على الأقل أنها لم تكن نتاجات نشوء تلقائي. ومع أن ثعبان البحر ظلّ لغزاً في كثير من النواحي، فقد أصبح على الأقل لغزاً يتسمُ بنوع من الاستقرار في العالم القابل للمراقبة والملاحظة، والذي يمكن وصفه. وأدى اكتشاف مونديني إلى جلبِ ثعبان البحر والبشر أقرب قليلاً إلى بعضهما البعض. والآن، كل ما باتَ مفقودًا هو العثور على النصف الثاني من المعادلة.

النظر في عينيّ ثعبان بحر

أحبَّ والدي صيد ثعابين البحر لعدة أسباب . ولا أعرف أيها هو الذي كان الأكثر أهمية .

لكنَّ ما أعرفه حقاً هو أنه أحبَّ المكان هناك بجوار النُّهير . أحبَّ تلك البيئة السحرية مفرِطةِ النّماس وضافية الخضرة ، والماء المندفع بهدوء ، وشجرة الصفصاف ، والخفافيش . كانت قريبة ، على بعد بضع مئات من الياردات من منزل طفولته ؛ مزرعةٍ بمسكَنٍ رئيسي واسطبلات ، والتي يفضي منها مسار ضيق من الحصى إلى أسفل المنحدر الخفيف في اتجاه النُّهير . وقد ركضَ أبي هابطاً وصاعداً هذا الطريق عندما كان طفلاً يذهب للصيد أو السباحة . وشكّل النُّهير الحدُّ الخارجي المجازيَّ لعالَمه . كان قد زحف عبر الحشائش الطويلة عند حافة المياه ، واصطاد الفئران الحية ، التي وضعها في جيبه وجلبها إلى المنزل ليتدرّبَ بها على الرماية بمقلاع في الفناء . وكان قد تزلج على المياهِ المتجمدة في الشتاء . وفي الصيف ، كان يستمِعُ إلى صوت جريان النهر بينما يكون راكعاً في الحقول ، يقلَعُ البنجر أو يجمع البطاطا .

كانَ النُّهير له بمثابةِ الجُذور وكلِّ شيء مألوف يريدُ أن يعود دائماً إليه . لكن ثعابين البحر التي تتحرك في أعماقه ، وتشِفُّ عن نفسها بين فينة وأخرى ، شكلت شيئاً آخر مختلفاً تماماً . كانت ، إذا كان ثمة شيء ، تذكيراً بكم هو قليل ما يمكن أن يعرفه حقاً عن ثعابين

البحر والناس الآخرين ، وعن المكان الذي تأتي منه والذي تذهبُ إليه .

وأعرفُ أيضاً أن أبي أحبَّ أكلَ ثعابين البحر . في الصيف ، عندما يكون الصيدُ وفيراً ، كان يأكل ثعابين البحر بسعادة عدة مرات في الأسبوع ، عادةً مع البطاطا والزبدة المذابة . كانت أمي هي التي تطهو بعد أن تأخذ السمكة منزوعة الجلد والمنظفة التي جلبناها لها ، وتقطعها إلى قطع بطول أربع بوصات ، وتشويها أو تقليها في الزبدة مع شيءٍ من الملح والفلفل . وكنتُ أحب أنا أن أشاهد ذلك . في كل مرة وُضعت السمكة في المقلاة الساخنة ، حدث شيء لا يصدق . كانت قطع ثعبان البحر تتحرك . كانت ترفُّ بشكل متقطع في الحرارة الحارقة ، كما لو أن حياة ما تزال هناك ، قابعةً فيها .

كنتُ أقف بجانب أُمي وأشاهد في عجب . ثمةَ جسدٌ كان على قيد الحياة للتوّ ، لكنه الآن ميت ، بل ومقطع إلى قطع . ومع ذلك ، يتحرك! إذا كان الموت يعني الجمود ، هل يمكن القول حقاً إن ثعبان البحر كان ميتاً . إذا كان الموت يسلبُنا القدرة على الشعور ، كيف يحدث أن ثعبان البحر ما يزال يشعر بالسخونة في المقلاة؟ لم يكن هناك قلب ينبض ، ولكن كان ثمة نوع من الحياة فيه . كنتُ أتساءل : أين يمكننا أن نرسم الخط الفاصل بين الحياة والموت .

في وقت لاحق ، قرأت أن الأخطبوطات لها نهايات عصبية لا تُعد ولا تحصى في أطرافها . وهناك في الواقع من الخلايا العصبية في أطراف الأخطبوط أكثر مما في دماغه ، وكل ذراع قادر على الإمساك هو أيضا مركز عصبي مستقل عن الدماغ المركزي في رأس الحيوان .

إنه كما لو أن للأخطبوطات أدمغة صغيرة، وإنما مستقلة، في نهاية كل ذراع -وهو ما يعني أن كل واحد منها يمكن أن يعمل بإرادته الخاصة. يستطيع الأخطبوط، على سبيل المثال، أن يتذوق وأن يلمس بذراعه، بل إنَّ لبعضِ الأنواع خلايا حساسة للصور في أطرافها، والتي تزوِّدُها بدرجة ما من الرؤية. لكن هناك ما هو أكثر من ذلك؛ إنك إذا بترتَ ذراع الأخطبوط، فإنها لا تواصل التحرك فحسب، وإنما تعمل تقريباً كمخلوق مستقل. ألقِ لها قطعة من الطعام وسوف تستولي عليها وتحاول أن تُطعم بها الرأس الذي لم يعد متصلاً بالجسد.

وقد رأيت سلوكاً مماثلاً في ثعابين البحر. قطعتُ رأس واحد وشاهدت باقي جسمه وهو ينزلق مبتعداً كما لو أنه يحاول أن ينقذ نفسه. واصل التحرك لدقائق من دون رأس. بالنسبة لثعبان البحر، بدا الموت شيئاً نسبياً.

من جهتي، كنتُ آكل ثعابين البحر فقط إذا اضطررتُ إلى ذلك -ليس لأنني أرثي لحالها، وإنما لأنني لم أحبَّ طعمها. كانت النكهة الدهنية الدبقة تصيبني بالغثيان. لكنَّ أبي أحبَّ ثعابين البحر. كان يأكلها بيديه؛ يلتهمها ويلعق العظام والدهن عن أصابعه. «دسمة جداً ولذيذة»، كان يقول. وإذا لم يأكل ثعابين البحر مشوية، كان يأكلها مسلوقة. كانت القطع التي بطول أربع بوصات توضع في وعاء من الماء المملح مع البهارات وأوراق الغار. وكان اللحم يتحول بالكامل إلى قوام أبيض مغلّف بنعومة زيتيّة. وكنتُ أتقبّل ثعابين البحر المسلوقةِ أقّل من المقلية.

ومع ذلك، لم أمانع أبداً الاعتناء بالأسماك التي كنا نصطادها.

عندما نعود من الجدول في الصباح الباكر، جالبينَ معنا ثعابين البحر في ذلك الدلو الأسود المليء بمياه النُّهير، كنا نملأ دلوًا أكبر بالمياه النظيفة وننقل الثعابين إليه، وندعها تستقر هناك لبضع ساعات، وأحيانًا طوال اليوم. وقد نغير الماء في وقت ما.

وكنت أخرج في كثير من الأحيان لإلقاء نظرة عليها. كانت أمي تدير مركزاً للرعاية النهارية، ولذلك ظلّ منزلنا مليئًا بالأطفال. وكنتُ آخذُهم إلى المرآب، حيث يوجدُ الدلو، وألكزُ الثعابين، محاولاً أن أجعلها تسبح. وكنتُ أشرحُ لهم كيفية حملها، بوضع السبابة والوسطى على جانبي الجسم، والإبهام مثل خطاف تحتها. وكنتُ أرفع ثعابين البحر إلى أعلى وأتركها تتأرجح وتنثني في الهواء. كان يمكن أن تستقرّ هناك ساكنةً تمامًا في الدلو، كما لو أنها مشلولة أو ميّتة، ولكن بمجرد أن ألتقط واحدة، فإنها تصبح قوية وعنيفةً فجأة، وتلفُّ نفسها حول ذراعي. وسرعان ما تفوحُ منّي رائحةُ دهن الأسماك اللزج. ولم أدع الأطفال الآخرين يلمسون ثعابين البحر.

عندما يحل المساء، كنا نقتل ثعابين البحر؛ وهو مشهد وحشي. كان أبي يلتقط ثعبان البحر ويثبّته على طاولة، ويرفع سكين صيده، ويغرس رأسها الحاد مباشرة في رأسه. وكان ثعبان البحر يتلوى بتشنجات سريعة، وينشدُّ جسمه كما لو أنه عضلة واحدة كبيرة. وعندما يهدأ قليلاً، يسحبُ أبي السكين ويضع الثعبان على لوح خشبي بطول ثلاثة أقدام، ويثبّته على اللوح بمسمار طوله خمسة بوصات مدقوق في رأسه حتى يصبح ثعبان البحر معلّقاً كما لو على صليب. وبسكينه، يقوم بعد ذلك بعمل شق دائري

حول كل الجسم ، أسفل الرأس مباشرة . «دعنا نخلع ملابس النوم هذه» ، يقول أبي ويعطيني كماشة . وكنتُ أقبض بقوة على حافة الجلِد وأسحبه في حركة واحدة طويلة ، رشيقة . كان لون الجلد مائلاً إلى الزرقة من الداخل ، مثل بيجاما طفل . وفي بعض الأحيان ظلّ الجسد يتلوى طويلاً ببطء وخمول .

كنا نفتح بطن ثعبان البحر وننتزع الأحشاء ، ونقطع الرأس ، ويكون العمل قد أُنجز . وإذا كان ثعبانَ بحرٍ كبيرًا ، كنا نزنه في بعض الأحيان ، لكنها دائمًا ما تكون بنفس الوزنِ تقريبًا ؛ ما بين أوقيتين وثلاث . وقد يختلف الطوق واللون قليلاً ؛ بعضها شاحب والبعض الآخر بلونٍ بُنيّ مصفر أكثر قتامة ، لكنها بدت بشكل عام متشابهة بشكل ملحوظ . وطوال السنوات التي اصطدنا فيها ثعابين البحر ، لم نلتقط أبدًا واحداً يزن أكثر من كيلوغرام واحد . ومن المؤكد أننا اعتبرناه ثعبان بحر عملاقًا ، لكننا كنا نعرف أيضاً أن من المفترض وجود ثعابين بحر يصل وزنها إلى أربعة أو خمسة كيلوغرامات . وكانت تلك هي الثعابين التي حلم بها والدي . كان يقرأ في الصحيفة عن صياد هاوٍ جعلَ من نفسه خبيراً في اصطياد ثعابين البحر الكبيرة .

«سوف يجلس بجوار النهر ثلاثة أيام متتالية» . قال لي أبي . «ليلا ونهاراً . يجلس هناك فقط ، وينتظر . يستطيع أن يجلس وينتظرَ ثلاثة أيام دون أن يحدث أي شيء . ثم فجأة ، ها هو ذا . ثعبان بحر بوزن ستة أوقيات»!

يبدو أن الصبر هو المتطلب الأول . عليك أن تعطي لثعابين البحر وقتك . وفكرنا بالأمر كما لو أنه صفقة .

جرَّبنا أيضًا أنواعًا مختلفة من الطُعم. وضعنا سمك الجمبري المجمد على رأس الخطاف. وجربنا الرخويات والخنافس السمينة. ولا شيء عمل أفضل كثيراً من أي شيء آخر. ذات مرة عثرنا على ضفدع ميت في العشب بجوار النُّهير. كان سميناً ولامعاً –ربما دُسنا عليه بالخطأ. وضعه أبي على طرف الخطاف وألقى به في الماء، لكنّه في صباح اليوم التالي كان قد اختفى والخطاف نظيفاً. وبذلك عدنا إلى الديدان وواصلنا العمل في استثمارنا. ذات يوم، سوف يأتي ثعبان البحر الكبير.

لكنه لم يفعل قطّ، وهو ما ساهم في تعميق غموض ثعبان البحر فحسب. وأظنُّ أن هذا الغموض بالذاتِ هو الذي جعل أبي صياد ثعابين بحر. أخبرني دائماً عن ثعابين بحر زجاجية، ثعابين بحر صفراء وأخرى فضية؛ عن كيف تتغير أشكالها؛ عن ثعابين أكبر عُمراً من أي إنسان؛ وعن ثعابين بحر تعيش في آبار ضيقة مظلمة. أخبرني عن رحلتها الطويلة عبر المحيط الأطلسيّ عائدة إلى مسقط رأسها؛ إلى مكان أبعد كثيراً من أي شيء أعرفه –أو حتى أتخيله؛ وعن ملاحتها باستخدام حركات القمر –أو ربما كانت الشمس؛ وكيف أن كل ثعبان بحر يعرف ببساطة، ولسبب عصيّ على الفهم، إلى أين يذهب. كيف تستطيع أن تكون متأكدة من شيء كهذا؟ كيف يمكن لأي كائنٍ أن ينطوي على هذا الإيمان الغامر بالمسار الذي اختاره؟

عندما تحدث والدي عن بحر سارغاسو، بدا وكأنه عالم خرافيّ سحري، أو مثل نهاية العالم. تصورتُ في خيالي ميلًا بعد ميل من البحر المفتوح الذي يتحول فجأة إلى غلالة من الأعشاب البحرية

التي تعج بالحياة والحركة وثعابين البحر التي تتلوى حول بعضها البعض وتموت وتغرق في قاع المحيط ، بينما تطفو أوراق صفصاف شفافة صغيرة جديدة سابحةً نحو الضوء ، وتسمح للتيار غير المرئي بأن يأخذها . كل مرة نلتقط فيها ثعبان بحر ، كنت أنظر في عينيه ، محاولاً التقاط لمحة مما رآه . لكن أياً منها لم يردَّ مطلقاً على تحديقتي .

سيغموند فرويد وثعابين بحر تريستي

كم يمكنك أن تعرف حقاً عن ثعابين البحر؟ أو عن أي إنسان؟ اتضح أن السؤالين مترابطان.

كان سيغموند فرويد Sigmund Freud في التاسعة عشرة من عمره عندما التقط، في العام 1876، القفاز الذي ألقاه أرسطو قبل أكثر من ألفي عام، والذي التقطه آخرون -عبثاً- مرات عديدة من قبل. كان هو الشخص المقدر له أن يعثر على «الكأس المقدسة» للعلوم الطبيعية: خصيتي ثعبان البحر.

ولد فرويد في العام 1856 في فرايبرغ في مورافيا (الآن بريبور في جمهورية التشيك)، لكن عائلته انتقلت إلى فيينا قبل عيد ميلاده الرابع. وحتى عندما كان طفلاً، كان طالبًا ممتازًا، مع اهتمام بالأدب وموهبة ملحوظة في اللغة. والتحق بجامعة في فيينا عندما كان في السابعة عشرة من عمره. وكان فرويد طالب طب في المقام الأول، لكنه درس أيضًا الفلسفة وعلم وظائف الأعضاء وعلم الحيوان تحت إشراف الأستاذ الشهير كارل كلاوس Carl Claus.

كان كلاوس متخصصًا في علم الحيوانات البحرية، داروينيًا متحمسًا وخبيرًا بارزًا في القشريات. ومثل أي شخص آخر في مجاله، انطوى على اهتمام بثعابين البحر. وأجرى بحثًا عن الحيوانات الخنثوية التي اعتقد أن ثعبان البحر واحد منها. وبالإضافة إلى أستاذيته في جامعة فيينا، كان أيضًا رئيسًا لمحطة

أبحاث بحرية في مدينة تريستي .

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، كان سؤال ثعبان البحر في سُبات . وبما أن كارلو مونديني وجد وقدّم وصفًا معقولًا للأعضاء التناسلية لثعبان البحر الأنثوي ، بدا أنها ستكون مسألة وقت فقط قبل أن يتم العثور على الأعضاء الذكرية وتحديدها أيضاً . وبمجرد تحديد موقعها ، سيتم حل اللغز المستعصي لتكاثُر ثعابين البحر .

ومع ذلك ، كان الكثير من الناس غير مقتنعين باكتشاف مونديني . وأحد المشككين كان العالم الإيطالي لازارو سبالانزاني Lazzaro Spallanzani ، الذي سيدخل التاريخ في نهاية المطاف باعتباره الشخص الذي فكّك بنجاح فكرةَ النشوء التلقائي . وقد سافر سبالانزاني إلى كوماتشيو بنفسه للتحقيق في نتائج مونديني ووصَفها بأنها بعيدة الاحتمال . وكان ذلك ، بالطبع ، مسألة هيبة أيضاً . الكثير من الباحثين البارزين حاولوا لفترة طويلة شرح ووصف الأعضاء المسؤولة عن تكاثر ثعبان البحر وطريقه تناسله . فلماذا لم ينجح أي شخص آخر في الوصول إلى شيء؟ مجرد ثعبان بحر واحد فقط بأعضاء تناسلية وبطارخ بعد كل تلك السنوات؟ لماذا لا يمكن العثور على المزيد؟ كلا ، بدا ثعبان بحر مونديني فريداً من نوعه . وبدا غير قابل للتصديق . وإلى جانب ذلك ، تكون الإمكانية الموضوعية في بعض الأحيان ، أقل أهمية مما يريد الناس تصديقه . وفي العالَم العلمي ، لم يرغب الكثير من الناس أن يؤمنوا بثعبان بحر كارلو مونديني ، ببساطة .

في ألمانيا ، أصبح البحث عن الأعضاء التناسلية لثعابين البحر ،

لفترة من الوقت ، مشهدًا شعبياً . عُرضت مكافأة بقيمة خمسين مارك لأي شخص يستطيع العثور على ثعبان بحر يحمل البيوض . وكتبت الصحف في جميع أنحاء البلاد عن ذلك . وكان يجب أن تُرسل الثعابين إلى أستاذ معين ؛ رودولف فيرشو Rudolf Virchow ، الذي سيجري فحصًا دقيقًا لكل منها ؛ ووافقت سلطات الصيد الألمانية على دفع رسوم البريد . وأدت الجلبة والجائزة السخية إلى قيام الكثيرين بحزم عدد كبير من ثعابين البحر وإرسالها بالبريد ؛ مئات ثعابين البحر من كل جزء من ألمانيا –ثعابين نصف مأكولة ، وثعابين متعفنة وثعابين تضج بالطفيليات . وتدفقت الطرود بمعدل جعل سلطة الصيد تكاد تفلس . ومع ذلك ، لم يُعثَر على ثعبان بحر ناضج جنسيًا مع بطارخ في جوفه .

كان في العام 1824 فقط حين تمكن مارتن راثِكه Martin Rathke ، أستاذ التشريح الألماني ، من العثور على ثعبان بحر أنثى ووصفه بما يكفي ، بأعضاء تناسلية متطورة بالكامل ، وبشكل مستقل عن كارلو مونديني . وفي العام 1850 ، عثر راثِكه أيضًا على ثعبان بحر مع بيض متطور بالكامل في داخله . واتضح أن مونديني ربما كان على حق طوال الوقت ؛ فقد توافق وصفه للأعضاء التناسلية مع وصف راثِكه ،لكن البيض في ثعبان بحر مونديني كان أصغر بكثير ، لأ نه لم يكن قد تطور بشكل كامل بعد . ومع التحقق من النصف الأول من المعادلة البيولوجية ، أمكن أن يبدأ البحث عن الجزء الثاني ؛ الخصيتين الأسطوريتين ، بشكل جدي . لكنه مضى ببطء في البداية . كان العديد من الباحثين ما يزالون يختارون الاعتقاد بأن ثعابين البحر خنثوية . ورأوا أن الأنسجة الدهنية الموجودة بالقرب

من الأعضاء التناسلية في الإناث الناضجة هي الأعضاء الذكرية غالباً في واقع الأمر. وإلا كيف أمكن أن تراوغ إجابة اللغز وتتهرّب من العلم كل هذه الفترة الطويلة؟

كما فضل الأشخاص العاديون بشكل عام التمسك بالنظريات القديمة، الأكثر خيالية بعض الشيء. في العام 1862، نشر باحث هاوٍ، ديفيد كايرنكروس David Cairncross، كتابًا بعنوان «أصل ثعبان البحر الفضي»، والذي أحيا فيه إيمانًا قديمًا يحمله الصيادون الصقلّيون بأن أول تجلٍ لثعبان البحر كان في الواقع خنفساء، وأن ما يثبتُ ماضيه هو قدرته على البقاء في حالٍ حسنٍ بنفس القدر على الأرض الجافة كما في الماء.

وبعد ما يقرب من مائة عام من اكتشاف كارلو مونديني، في العام 1874، أعلن عالم حيوانٍ بولندي، سيمون سيرسكي Szymon Syrski، أنه وجد هو وزملاؤه في متحف التاريخ الطبيعي في ترييستي شيئًا قد يكون ثعبان بحر ذكراً ناضجًا. وفي داخله، وجدوا جهازًا صغيرًا على شكل فص، والذي يختلف عن الأوصاف التي قدمها مونديني وراثكِه. وفي الواقع، قد تكون هذه خصية ثعبان البحر التي طال انتظارها. ولكن، بما أن سيرسكي لم يتمكن من وصف العضو بشكل كافٍ وإثبات أنه ينتج السائل المنوي حقاً، لم يكن هناك شيء مؤكد. وتطلّب المجتمع العلمي إجراء ملاحظة إضافية.

وهكذا، في مارس 1876، قرر كارل كلاوس إرسال أحد طلابه الشباب من جامعة فيينا إلى محطة أبحاثه في ترييستي. وبهذه الطريقة، في سن التاسعة عشرة، وجد سيغموند فرويد نفسه فجأة

في مختبر بسيط على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بسكين في يد، وثعبان بحر ميت في الأخرى.

كان سيغموند فرويد الشاب في سن المراهقة رجلاً صغيراً بخطط كبيرة. في العام السابق، زار مدينة مانشستر وأحبها -حتى مطرها ومناخها. وأصبح أكثر توقاً إلى السفر وكان، قبل كل شيء، حريصًا على قضاء مزيد من الوقت في العمل العلمي العملي، وتعلُّم المزيد عن كل شيء، وتحقيق الاكتشافات، ووصف الأشياء، وفهمها. وقد أحبَّ المختبر. هناك، يكون كل ما يراه عبر المجهر دائمًا صحيحًا بشكل لا لبس فيه؛ لم يكن ثمة مجال للأحكام المسبقة أو الخرافة. والمعرفةُ البشرية كلّها جاءت من المختبر. وتصوَّر فرويد حياة يقضيها في خدمة العلم، ربما في إنجلترا، وربما في مكان آخر تمامًا. وفكّر بجدية في تكريس حياته للعلم الطبيعي المحسوس والملموس، مثل علم الأحياء أو علم وظائف الأعضاء. وفي صورة عائلية من العام 1876، يظهَرُ واقفاً في المنتصف وقد أسندَ يده على كرسي أمه، أماليا، الأطول بين أشقائه، مرتدياً بدلة من ثلاث قطع، وشعره مفروق إلى جانب، مع لحية داكنة مشذبة جيداً. وحدّق مباشرة في الكاميرا بنظرة ثابتة، وكأن شيئاً في العالم لا يمكن أن يقلِقه.

كان هذا هو الفتى ذو التسعة عشر ربيعاً، الذي وصل إلى ترييستي في ربيع العام 1876، مع طموح حل لغز ثعبان البحر وترك بصمته على تاريخ العلم. كانت ترييستي، الواقعة في الركن

الشمالي الشرقي للبحر الأدرياتيكي ، تنتمي في ذلك الوقت إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية ، وكانت مدينة مهمة ؛ موطنًا لقاعدة بحرية وميناء كبير . ومنذ استكمال حفر قناة السويس في العام 1867 ، أصبحت أيضًا بوابةً إلى آسيا . وكانت شحنات القهوة والأرز والتوابل تُفرّغ في أرصفة المدينة . وجاءتها السفن من جميع أنحاء العالم ، وتجمع الناس هناك من كل أنحاء أوروبا : الإيطاليون والنمساويون والسلوفينيون والألمان واليونانيون . وفي وقت مبكر من العصر الروماني ، شكلت تريستي نقطة التقاء وموقعًا للحج ؛ مكانًا تلاقت فيه كلُّ أنواع اللغات والثقافات . وبالمقارنة مع فرايبرغ أو فيينا ، من شبه المؤكد أنها كانت مدينة تصنع انطباعاتٍ معقدة مراوِغة .

وإذن ، ما الذي وجده الشاب سيغموند فرويد في تريستي؟ ثمة الكثير المعروف عن ذلك ، لأنه كتب عدة رسائل إلى صديق طفولته ، إدوارد سيلبرشتاين Eduard Silberstein ، والتي يصف فيها تجربته . وقد كتب بالإسبانية –حيث أصبح الشابان صديقين قريبين أثناء دراسة تلك اللغة– عن المدينة ومطاعمها ومتاجرها وسكانها . وفي بعض الأحيان ، كانت اختياراته للكلمات غريبة ، ربما لأن الأسبانية لم تكن لغته الأم –وإنما على الأرجح لتكون نوعاً من اللغة المشفَّرة بين الصديقين .

في أول رسالة موجزة له بتاريخ 28 مارس ، كتب فرويد أن تريستي مدينة جميلة جدًا وأن «وحوشها وحوش جميلة جداً» . وبوحوش ، قصد فرويد النساء . ويبدو أن نساء المدينة قد بهرنَه

خلال أيامه القليلة الأولى في تريستي أكثر من أي شيء آخر. وفي رسائله، يكتب عن اندهاشه خلال يومه الأول في المدينة بحقيقة أن كل امرأة قابلها بدت مثل «إلهة». ويصف مظاهرهن وصفاتهن الجسدية بالتفصيل، فيقول إنهن طويلات نحيلات بأنوف طويلة وحواجب داكنة، وأنهن أكثر بياضاً مما ينبغي، ولهن شعر جميل وترخي بعضهنّ غرّة تنساب بحريّة أمام إحدى العينين مثل صنارة مغوية.

ثم يزور مدينة موغيا المجاورة، ويكتب عن كيف أن النساء هناك لا بُد أن يكنّ فائقات الخصوبة بشكل خاص، بما أن كل امرأة رآها من اثنتين كانت حاملاً، وأن القابلات المحليات ربما لا يجدن صعوبة في العثور على عمل. ويتساءل ساخراً عما إذا كانت النساء ربما تأثرن بـ«الحيوانات البحرية»، مما جعلهن «يثمرن على مدار العام»، أو ما إذا كُنَّ يُنجِبن في أوقات معينة معًا. «يجب أن يجيب علماء الأحياء المستقبليون عن هذه الأسئلة.»

يراقب فرويد النساء ويصفهنّ مثل عالِم تقريباً، لكنّهن يبقَين في نفس الوقت غريبات عنه، مثل أفراد من نوع حيّ مختلف. ومع ذلك، لا يبدو أن فرويد قد أقام أي صلات قريبة من النساء في تريستي. وقبل انقضاءِ طويل وقت، تغير مزاجه وموقفه من المدينة. وشرعَ في التعبير عن الإحباط من وضعه في رسائله إلى سيلبرشتاين: عن النساء اللواتي يجتذبنه، كبيرات وصغيرات على حد سواء، لكنهن تسببنَ له بارتباك عاطفي أيضاً. ويعلق على إفراطهن في استخدام الماكياج. ويكتب عن كيف أن لديهنّ عادة الجلوس في نوافذهن، والنظر، والابتسام والتواصل بالأعين مع

الرجال بلا خجل . ويشكو ، ساخراً قليلاً ، من اضطراره إلى النأي بنفسه عنهن ، بسبب عمله .

ثم ، فجأة ، يكتب أن جميع النساء في تريستي «قبيحات للغاية» . ويبدو الأمر كما لو أنه غير مرتاح مع إدراك أن مشاعره تجاههُنّ لا تتوافق مع نموذج رجل العِلم البارد والمنهجي الذي يسعى إلى أن يكونه . ويكتب : «بما أنه لا يُسمح لنا بتشريح الناس ، فإنه لا شأن لي بهنّ» ، بعد أن لاحظ أنه في تريستي ، حتى الفتيات الصغيرات يضعن الماكياج .

وكما لو أنه يحصّن نفسه من التشتيت الذي يصنعُه ارتباكه الجنسي ، يركز فرويد بدلاً من ذلك على عمله . لديه غرفته الخاصة في المختبر الواقع على مرمى حجر من البحر الأدرياتيكي . ويكتب لسيلبرشتاين : «أنا على بعد خمس ثوان من أحدث موجة من الأدرياتيكي» ، ثم يقدم وصفاً مفصلاً لمكان عمله :

«لغرفتي الصغيرة مخطط غريب ، نافذة واحدة ، تقفُ أمامها المنضدة التي أعمل عليها ، بعدد كبير من الأدراج وسطح علوي كبير ، وطاولة ثانية للكتب والأدوات المساعدة ، وثلاثة مقاعد ، والعديد من الرفوف التي تحمل حوالي عشرين أنبوب اختبار . وأخيرًا وليس آخرًا ، هناك أيضًا باب كبير يأخذك ، إذا عبرته ، إلى الخارج . وعلى الجانب الأيسر من الطاولة ، في الزاوية ، يقف المجهر ؛ وفي الزاوية اليمنى ، طبق التشريح ؛ وفي المركز أربعة أقلام رصاص بجوار ورقة (رسوماتي متحركة ، وليست بلا قيمة) ؛ وفي المقدمة تقف سلسلة من الأواني الزجاجية ، والمقالي ، والأوعية ، والأحواض التي تحتوي على وحوش صغيرة أو أجزاء من وحوش

أكبر في ماء من البحر. وفي الوسط تقف أو تستلقي أنابيب الاختبار، والأدوات، والإبر، وأغطية زجاجيةٌ للعينات، وشرائح المجهر، بحيث عندما أكون مشغولاً في العمل، لا يتبقى مكان يمكن أن أريح عليه يدي. وأجلس إلى هذه الطاولة من الثامنة صباحاً إلى الثانية عشرة، ومن الواحدة حتى السادسة، وأعمل بدأب».

في كل صباح، يذهب فرويد للقاء الصيادين القادمين إلى الميناء بصيد اليوم -سلالٍ مليئة بثعابين البحر الأدرياتيكي السمينة- ثم يعود مباشرة إلى المختبر ويبدأ العمل. ويشرح موضوع مهمته لسيلبرشتاين، مرفقاً برسومات بسيطة:

«أنت تعرف ثعابين البحر. لفترة طويلة، كانت الإناث فقط هي المعروفة من هذا النوع. حتى أرسطو لم يعرف من أين جاء الذكور، ولذلك ادعى أن ثعابين البحر تنبثق من الطين. طوال العصور الوسطى، وحتى في عصرنا الحديث، ساد جنون حقيقي من أجل العثور على ثعبان البحر الذكر. في علم الحيوان، ليس لدينا وصول إلى شهادات الميلاد، وتتصرف المخلوقات -وفقًا لمُثُل بانيث- من دون أن الخضوع لملاحظة مبكرة، ولا يمكننا أن نعرف أيًا منها أنثى وأيها ذكر ما لم تعرِض الحيوانات اختلافات خارجية.

«أما أن هناك اختلافات في الواقع بين الجنسين، فهو ما ينبغي إثباته أولاً، ولا يستطيع أن يفعل ذلك سوى عالِم التشريح (لأن ثعابين البحر لا تحتفظ بمذكرات يمكننا من خلالها استخلاص استنتاجات بشأن جنسها)؛ لذلك يقوم العالِم بتشريحها واكتشاف إما خصيتين أو مبيَض. في الآونة الأخيرة زعم عالِم حيوان في

تريستي أنه عثر على الخصية، وبالتالي اكتشف ثعبان بحر ذكراً، ولكن، بما أنه لم يكن يعرف ما هو المجهر، فشل في تقديم وصف دقيق لها».

يومًا بعد يوم، جلَس فرويد إلى مكتبه في المختبر، يقطع الثعابين، ويبحث، وينظر عبر مجهره ويدون الملاحظات بحثًا عن إجابة للغز الغامض. من المحتم أن تظهر جميع الإجابات تحت المجهر -هذا هو وعد العلم، وإذا كنت لا تثق في ذلك، فما الذي يتبقى لتؤمن به؟

لكن فرويد لا يجِد أي خصية لثعبان بحر، ويصبح أكثر إحباطاً باطّراد. كل ليلة في الساعة السادسة والنصف، كان يمشي عبر الأزقة الضيقة في تريستي، ويمر بالمتاجر والمطاعم ذاهباً في اتجاه البحر، حيث تحوِّل الشمس الغاربة الماءَ إلى مرآة، وتختبئ الحياة كلُّها تحت السطح؛ ويسمع عمال الموانئ وهم يتحدثون بالألمانية والسلوفينية والإيطالية، ويشُم روائح البهارات والقهوة، ويرى الصيادين وهم يجمعون آخر الصَّيد، ويشاهد النساء بعيونهن المرسومة بالماكياج في طريقهنّ إلى البارات في الساحة. يرى كل ذلك ويفكر في ثعابين البحر.

«يداي ملطختان بالدماء الحمراء والبيضاء لمخلوقات البحر، وكل ما أراه عندما أغمض عينيّ هو النسيج الميت المتلألئ الذي يطارد أحلامي، وكل ما يمكنني التفكير فيه هو الأسئلة الكبيرة، تلك التي تسير يداً بيد مع الخصيتين والمبايض -الأسئلة الكونية، المحورية».

لما يقرب من شهر، يجلس فرويد في مختبره البسيط، منكبّاً على عمله الرتيب والعقيم، ولكن في النهاية، يتحتم عليه أن

يعترف بأنه فشل . لم يتمكن من العثور على ما جاء في طلبه : الجهاز التناسلي لثعبان بحر ذكر ، والإجابة النهائية عن سؤال ثعبان البحر . «لقد عذبت نفسي وثعابينَ البحر في محاولة عبثية لاكتشاف ثعبان بحرٍ ذكر ، لكن كل الثعابين التي قمت بتشريحها تبين أنها تنتمي إلى الجنس الأكثر جمالاً .»

كانت هذه أول مهمة علمية للشاب سيغموند فرويد ، وكان الفشل هو مصيره . لأسابيع متتالية وقف إلى طاولته ، يقطِّع بعناد ثعابين البحر ويفحص أجسادها الباردة الخالية من الحياة بحثًا عن الأعضاء التناسلية ؛ وعمل أياماً طويلة تفوح برائحة الأسماك الميتة ، ومغلّفة بدهن ثعابين البحر اللزج . ولم يجد حتى خصية واحدة . فحَص فرويد أكثر من أربعمائة ثعبان بحر ولم يظهر من بينها أي ذكر . وكان يعرف أين بالضبط يجب أن يبحث في ثعبان البحر ، ويستطيع أن يصف الشكل الذي يجب أن تبدو عليه الأعضاء . ولكن ، حتى مع ذلك ، لم يجد ما كان يبحث عنه أبداً .

في واحدة من رسائله إلى إدوارد سيلبرشتاين ، رسم فرويد ثعبان بحر يسبح في النصّ ؛ شفتاه ملتويتان بابتسامة ساخرة . وفي نفس الرسالة ، تحدَّث عن الثعابين باستخدام الكلمة التي كان قد استخدمها سابقًا للدلالة على مخلوق مختلف ، وإنما غامض بنفس المقدار : «الوحوش» .

وإذن ، ما الذي توصل إليه سيغموند فرويد حقاً في ترييستي؟ ربما ، إذا لم يكُن ثمة شيء ، مجرد تأمُّل أولي في عمق بعض الحقائق

المخفية –في ثعابين البحر وفي البشر على حد سواء . وهكذا ، أصبح ثعبان البحر يؤثر على التحليل النفسي الحديث .

كان فرويد بعمر تسعة عشر عامًا عالِمًا شابًا طموحًا . وذهب إلى ترييستي لكتابة تقرير رائد ينبغي أن يجيب ، مرة واحدة وإلى الأبد ، عن السؤال الذي أربك العلم لقرون : كيف تتكاثر ثعابين البحر؟ وهناك ، ربما يكون قد تعلم الكثير عن أهمية الملاحظة الصبورة والمنهجية في البحث ، وهي المعرفة التي سيطبقها لاحقًا على مرضاه في أريكة العلاج .

ذهب إلى ترييستي مع إيمان لا يتزعزع بالعِلم والمكافآت التي تنتظر شخصًا مستعدًا للعمل بجدٍّ من أجله . لكن ثعبان البحر أجبره على مواجهة محدودياته ومحدوديات العِلم أيضاً . لم يجد أي حقيقة تحت مجهره . وظلَّ سؤال ثعبان السمك بلا إجابة . وبعد استكمال تقريره بعد عام ، كان عليه أن يعترف بأنه لا يمكن إثبات أي شيء عن جنس ثعابين البحر وتناسُلِها . وختم تقريره بسرد حقائقي مباشر مقوِّضٍ لذاته تقريباً : «إن الفحص النسيجي الذي أجريته للأعضاء التي على شكل الفص لا يسمح لي بأن أقدم رأياً قاطعاً بأنه خصية ثعبان البحر ، ولا هو يعطيني سببًا جوهريًا لرفض هذا الرأي» .

استعصى ثعبان البحر على سيغموند فرويد ؛ وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلته يتخلى في نهاية المطاف عن العلوم الطبيعية البحتة والاتجاه إلى مجال التحليل النفسي الأكثر تعقيدًا وغير القابل للقياس الكمي . وقد انطوت الطريقة التي عانده بها ثعبان البحر على مفارقة خاصة ، بالنظر إلى ما سيركز عليه فرويد

في النهاية : لقد أخفى ثعبان البحر نفسه عنه جنسياً . وبذلك ، لم يستطع الرجل الذي سيعرِّف لاحقاً تفكير القرن العشرين في الجنس والجنسانية ، والذي سيذهب أعمق في الأعمال الداخلية للنفس البشرية أكثر من أي شخص قبله ،لم يستطع ، حيث يتعلق الأمر بثعابين البحر ، تحديد موقع أعضائها الجنسية . لقد ذهب إلى تريستي للعثور على خصيتي ثعبان البحر ، ولكنه اكتشف لغزًا دائمًا . أراد أن يفهم الطبيعة الجنسوية لسمكة ، لكنه وجد ، في أحسن الأحوال ، جنسويته هو .

وانطوى ذلك على مفارقة أيضاً لأن علاقة فرويد بالمخلوقات المائية كانت معقدة مسبقاً إلى حد ما . وقد كُتِب الكثير عن علاقة الشاب فرويد بفتاة تدعى جيزيلا فلوس Gisela Fluss . وبدأ الأمر في العام 1871 ، عندما عاش فرويد الذي كان عمره خمسة عشر عامًا لفترة من الوقت كمستأجر أقامَ مع عائلة جيزيلا في فرايبرغ . وقد انجذب فرويد بوضوح إلى جيزيلا ، التي كان عمرها في ذلك الوقت اثني عشر عامًا فقط ، وأسهب في شرح كم كانت جميلة ومغرية في رسائله إلى إدوارد سيلبرشتاين ، من بين آخرين . ربما شكلت تلك صحوته الجنسية الأولى ، ولكنها انتهت ، على أي حال ، بالإحباط والقمع . وعندما تزوجت جيزيلا من شخص آخر بعد ذلك ببضع سنوات ، أطلق عليها فرويد لقب «السمكة السحليَّة» ، أو «إيكتوصورا» Ichtyosaura ، الاسم العلمي للزواحف المائية لما قبل التاريخ ، التي عاصرت الديناصورات .

بالنسبة لفرويد ، كان ذلك بوضوح شكلاً من التلاعب بالألفاظ على طريقة المراهقين . «فلوس» تعني «نهر» أو «تدفق» . وكانت

جيزيلا ، بصفتها فرداً من عائلة فلوس ، نوعًا من وحش بحر ، والذي يمثل كل شيء مكبوت ومُحبِط ، مثل النشاط الجنسي ، الذي يتحرك بمكر تحت السطح . أمّا أن فرويد اختار كائناً مائيًا من عصور ما قبل التاريخ ليلقبها به ، فربما كانت هذه أيضاً طريقته ليقول لنفسه أن الشغف الفتيّ الفالِت من السيطرة الذي شعر به نحوها ، أصبح ينتمي الآن إلى ماضيه . لن يدع نفسه تستسلم على هذا النحو لإغواء أي إنسانٍ أو أي شيء مرة أخرى أبداً -إلى أن ظهرت «وحوش» تريستي مثل نسل رمزي لـ«سمكته السحلية» الأولى .

بعد إقامته في تريستي ، ستمر سنوات قبل أن يقترب سيغموند فرويد من موضوع الجنس مرة أخرى . ولكن ، بمجرد أن فعل ، كانت الجنسوية المختفية أو المكبوتة هي التي أثارت اهتمامه .

ترتكز نظريته حول «قلق الإخصاء» ، كنقطة انطلاق ، على افتراض أن الطفل يطوّر في سن مبكرة خوفًا من التعرُّض للإخصاء ؛ للتشويه وتجريده من جنسه/أو جنسها ، وجعله/ها منقوصين ومُسالِمين . ويكون الأولاد الذكور في سن الرابعة أو الخامسة ممتلئين بتوقٍ جنسي غير واعٍ إلى أمهاتهم ويشعرون بأنهم في منافسة مع آبائهم . ويتصورون تهديدًا خوفًا من العقاب على رغباتهم ، لكنهم أيضًا يشعرون بالخجل والدونيّة ؛ وهو ما يجعلهم يدركون عدم أهميتهم الخاصة في العالم ، مما يؤدي إلى تطوُّر الذات ؛ وفي الوقت المناسب ، يُستبدَل توقهم إلى الأم بالتماهي مع الأب . وتكون اللحظة المحورية في هذه العملية ، وفقاً لفرويد ، هي عندما يدرك الصبي أن النساء ليست لديهن قضبان ذكورية . أي أنه يرى المرأة ، وغياب عضو جنسي ذكري لديها ، وفي تلك اللحظة يصبح

مدركًا لنفسه ومكانته في العالم. وترتبط نظرية فرويد عن «حسد القضيب» بقلق الإخصاء، لكنها تتعامل مع التطور النفسي الجنسي لدى النساء أيضاً. ويزعم أن الفتيات، مثل الأولاد، يرتبطن في البداية ارتباطًا وثيقًا بأمهاتهن. وعندما يكتشفن لأول مرة أنهن لا يملكن قضيبًا فقط يبدأن في الانفصال عن أمهاتهن ببطء ويصبحن منجذبات إلى آبائهن بدلاً من ذلك. وترى الفتيات القضيب كسمة ترمز إلى القوة والنشاط. وعندما يدركن، بهذه الطريقة، مكانهن في العالم، فإنهنّ يطوِّرن الحسد ويختبرن الشعور بالذنب الذي يُسقطْنهُ على أمهاتهن. إنهن يستطعن رؤية ما يفتقرن إليه، ورؤية غياب العضوي الجنسي الذكري، وفي تلك اللحظة يصبحن واعيات لأنفسهن ومحدودياتهنّ.

وقد تم تحدي هذه النظريات عدة مرات منذ صيغَت لأول مرة، ومن منظورات مختلفة. هل يمكن أن يشكل العضو الذكري -امتلاكه أو الافتقار إليه- مثل هذا التفصيل المحوري في التطور النفسي الجنسي للإنسان؟ يبدو هذا غرائبياً وسخيفاً بعض الشيء. كما أنها نظريات تنتمي إلى زمن مختلف، نشأت من سياق تاريخي مختلف. وهي نظريات تتخطى المنهج العلمي المقبول. إنها تعمل في منطقة المكبوت والمخفيّ. ولا تمكن ملاحظتها أو التحقق منها أو رفضها بشكل منهجي. إنها ليست من أنواع الحقائق التي يمكن أن يكشف عنها مجهر.

لكنها يجب أن أن تكون متأسسة، مع ذلك، على نوع من الخبرة. ويمكننا أن نتصور العالِم الشاب في مختبر مزدحم بالأشياء في تريستي، بعيداً عن الوطن في مدينة غريبة، يرتدي معطفاً

أبيض ونظارات، بلحية داكنة حسنة التشذيب، واقفاً بجانب طاولة أمام نافذة صغيرة، بثعبان بحر دبقٍ ميت في يده، وينظر من عدسات مجهره كما فعل أربعمائة مرة من قبل، ولا يعود ما يستطيع رؤيته من خلال العدسة مجرد ثعبان بحر، وإنما نفسَه هو أيضاً.

على الرغم من الجهود المنسقة المتحمسة التي بذلها فرويد الشاب، فإن سر تكاثر ثعابين البحر ظل بلا حل لفترة أطول. في العام 1879، كتب عالم الأحياء البحرية الألماني، ليوبولد جاكوبي Leopold Jacoby، مُحبطاً بعض الشيء، في تقرير للجنة الأميركية للثروة السمكية ومصايد الأسماك:

«بالنسبة لشخص لا يعرف ملابسات القضية، يجب أن يبدو مدهشًا، ومن المؤكد إلى حد ما أن يكون مُهيناً لرجال العلم، أنَّ سمكة أكثر شيوعاً في أجزاء كثيرة من العالم من أي سمكة أخرى... والتي تُرى يوميًا في السوق وعلى المائدة، استطاعت على الرغم من المساعدة القوية للعلم الحديث، أن تُسدل على طريقة تناسلها وولادتها وموتها ستاراً من الظلام لم تتم إزاحته حتى يومنا هذا. كان سؤال ثعبان البحر هذا حاضراً منذ بداية وجود العلم الطبيعي».

كان ما لم يعرفه فرويد، وجاكوبي، بطبيعة الحال، هو أن ثعابين البحر لا تكون لها أعضاء جنسية مرئية -إلى أن تحتاج إليها؛ أن تحولاتها ليست مجرد تكيفات سطحية مع ظروف الحياة الجديدة،

وإنّما وجوديّة ؛ أن ثعبان البحر يصبح ما يحتاج إلى أن يكون عندما يكون الوقت مناسباً .

بعد عشرين عامًا من محاولات فرويد الفاشلة ، تم العثور في النهاية على ثعبان بحر فضي ناضج جنسيًا قبالة ساحل ميسينا في صقلية . وهكذا ، أصبح ثعبان البحر ، أخيراً ، سمكة ؛ مخلوقاً لا يختلف كثيراً عن المخلوقات الأخرى .

مكتبة
t.me/t_pdf

الصيد غير القانوني

في بعض الأحيان، كنا نصطاد بشكل غير قانوني. كان الأمر فوق كل شيء مسألة راحة شخصية. لأنه في حين أن المسار الضيق قد يكون هو الطريق الصحيح، فإن المسار العريض يكون في بعض الأحيان أسهل كثيرًا للمشي عليه. وبما أن حقول جدتي وجدي لأبي كانت تجاور النُّهير، سُمح لنا بالصيد فيه، وإنّما على جانبنا فقط من المجرى، جانب المزرعة. وهو ما كان أيضاً الجانب الصعب، مع العشب الطويل والضفاف الموحلة المنحدرة. أما على الجانب الآخر من النُّهير، فكان كل شيء مختلفًا؛ هناك، انبسط مرجٌ مستوٍ ممتداً حتى حافة الماء. لكن حقوق الصيد على ذلك الجانب كانت مملوكة لنادي صيد السمك في المدينة.

كان الجانب الآخر من النُّهير شيئاً من عالَم الأحلام؛ ليس لأنه بدا قريبَ المُتناول فحسب، وإنما أيضاً لأنه رمز إلى شيء اعتبرناه غير عادل. في عطلة نهاية الأسبوع، كان أعضاء نادي الصيد يقفون هناك على أرض مستوية في ستراتهم الرياضية الخضراء عديدَة الجيوب، بصنانير صيد باهظة الثمن وقبعات صغيرة سخيفة، وهم يلوحون بخيطانهم السميكة اللامعة فوق رؤوسهم محاولين الإمساك بواحدة من أسماك السلمون النادرة الذي تحتل المستوى الأعلى من التسلسل الهرمي الطبقي لأسماك الجدول.

لم نر أبداً سمك السلمون في النُّهير -ليس سمكة سلمون حيّة

على الأقل. عثر أبي ذات مرة على سمكة سلمون ضخمة ميتة، عائمة وبطنها إلى أعلى، وأحضرها إلى المنزل. كانت سمينة ومنتفخة تزِنُ أكثر من تسعة كيلوغرامات، ورائحتها سيئة للغاية. ودفنّاها بعد الإعجاب بها وأيدينا على أفواهنا وأنوفنا.

ذات صيف، حصل أبي على زورق خشبي قديم. رآه في إعلانٍ في الجريدة واشتراه بمائتي كرونة؛ وقمنا بصقله وطلائه على العشب، وأرسيناه إلى شجرة الصفصاف فوق منحدرات النهر مباشرة. وفي إحدى الليالي عندما وصلنا إلى النُّهير، اقترح أبي أن نجدف عبر النُّهير وننصبَ صنانيرنا على الجانب الآخر بدلاً من هنا. لم تكن تلك الفكرة قد خطرت ببالي أبدًا، لكنها بدت فجأة عقلانية تمامًا. لم يكن هناك، لأسباب واضحة، أحدٌ على الجانب الآخر من النُّهير في ذلك الوقت. وإلى جانب ذلك، فإنّ هذا هو النُّهير نفسه؛ وبدا الفرق بين الصيد هنا والصيد هناك شيئاً نظريًا تمامًا.

وفوقَ ذلك، كيف يمكن لأي أحدٍ أن يدّعي امتلاك حقوق شيء عابر مثل المياه المتدفقة؟ «ولكن إذا جاء القطار، سيتعيَّن علينا أن نختبئ»، حذّر أبي. كانت السكة الحديدية تمتد فوقَ جسر بجوار المرج المنبسط. تأتي من حول منحنى على بعد بضع مئات من الأمتار من المكان الذي كنا فيه، ثم تجري في موازاةِ النُّهير، معَ رؤيةٍ بلا عائق للمرج وعلى طول الطريق وصولاً إلى حافة الماء. وربما يكون على متنه عضو في نادي الصيد في هذه الليلة بالذات، والذي قد يرانا نصطاد ويدُقّ ناقوس الخطر، ويقبضون علينا متلبسين مثل المجرمين الذين كنّاهم.

جدّفنا عبر النهر وأرسينا القارب؛ كنتُ مرتعباً ومبتهجاً في آن.

والتقطنا أغراضنا وسرنا على طول النهر ، ونحن نعلِّق على كم هو هذا الجانب أكثر ملاءمة بما لا يُقاس . لم يكن ذلك شيئاً يتعلق بالأحلام ، وإنما أصبح حقيقيًا ؛ ولم يكن هناك عشب طويل ورطب يشق المرء طريقه بمشقّة خلاله ، ولا ضفافٌ موحلة ينزلقُ عليها . قلت لنفسي أنّ من واجبنا الأخلاقي -عملياً- اصطياد الأسماك هناك .

لكننا نصبنا صنانيرَنا أسرع من المعتاد ، بينما نلقي نظرات عصبية سريعة على السكة الحديدية كلَّ الوقت ، مستعدَّين للفرار عند أول صوت بعيد ينطلق من القطار المقترب . وعندما وصلَ فعلاً ، مضى منطلقاً عبرَ المنحنى أسرع بكثير مما استطعتُ أن أتخيل ؛ أطفأنا مصباحنا وألقينا بنفسينا في العشب . وضغطتُ نفسي على الأرض ، باذلاً قصارى جهدي كي أختفي بين كتل العشب النامي ، مُخفياً وجهي وحابساً أنفاسي . ومرَّ القطار مُرعداً وأضاء السهل كله مثلما يحدُث عندما يوقِف البرقُ الوقت ، وتخيلت أننا غير مرئيَّين حقًا وأن والدي يستلقي هناك مثلي تماماً ، ويداه على وجهه ، من دون أن يتنفس .

والآن أفكِّر بأنه ربما كان يبتسم ؛ بأنه لم يكن خائفاً من الإمساك به على الإطلاق -لماذا قد يهتم أحد؟ كيف سيعرفوننا؟- لكنَّه كان يسايرني من أجلي فحسب ؛ بأنه رتَّب المشهد كلَّه ليجعل الأمر أكثر إثارة . ربما ساورهُ القلَق من أنني قد أمَلُّ من الأمر كله بخلاف ذلك .

لا أعرف لماذا يمكن أن يكون قد ساوره القلق بشأن ذلك -لم يكن هناك شيء أحبُّه أكثر- لكنني الآن أيضاً فقط ، بعد وقت طويل

لاحقاً ، بدأت أتساءل عما إذا كان أبي قد ذهب حقاً لصيد ثعابين البحر عندما كان طفلاً . كنت أحسب دائماً أنه لا بد أن يكون قد فعل . كنت أظن دائمًا أنه وأنا كُنا نواصل تقليدًا بدأ قبل وجودِ أيٍّ منا بوقت طويل ؛ أنه يفعل معي ما كان قد فعله شخص آخر معه ، وأن تلك الليالي عند الجدول شكلت نوعًا من الاستمرارية العابرة للزمن والأجيال -تقريباً مثلَ طقس .

لكنه بالتأكيد لم يصطد أبداً مع والده (الرجل الذي سمّاه الأب) . جدِّي (الذي كنتُ أناديه جدّي) لم يكن يصطاد . لم يكُن يفعل أي شيء لا يكون مفيدًا على الفور . كان يعمل ويستريح ، وعندما يأكل ، فإنّه يفعلُ بسرعة وصمت . كان لا يشرب الكحول ويكره آثارها ؛ وعلى قدر علمي ، لم يأخُذ إجازة حتى ليومٍ واحدٍ في حياته قط ، ولم يسافر أبدًا إلى أي مكان ، ولم يكن خارجَ البلد في أي وقت . لم يكن إهدار الوقت والطاقة على شيء يبدو تافهًا مثل صيد ثعابين البحر شيئاً مخلوقاً له . ولم تكن له أي علاقة بالصبر ؛ لقد تعلّق أكثر بالالتزام . المجازُ الضيق يبدو مختلفًا باختلاف الأشخاص .

ربما اصطاد أبي بمفرده ، أو مع شخص آخر تمامًا ، لكنه إذا فعل ، فإنني لا أعرف شيئاً عن ذلك . أتذكّر أبي وهو يخبرني عن كمية الأسماك التي اعتادت أن تكون في النُّهير قبل وقت طويل ؛ عن كيف غصّ القاع بثعابين البحر وتحول السطح إلى اللونِ الفضيّ عندما سافرَت أسماكُ السلمون إلى أعلى المجرى في الربيع . لكنه لم يتكلم من واقع الخبرة ؛ كانت هذه قصصًا جاءَت من زمن قبل أن يولد والتقطها من مكان ما . أما قصصه الخاصة عن الثعابين

التي اصطيدَت أو أفلتت ، فكنت أعرفها بالفعل ، لأنني كنت معَه هناك . كانت قصصه هي قصصي . وبدا كما لو أنه لم يكن هناك أي شيء قبلنا .

هل كان هذا هو واقع الحال؟ هل بدأ الأمر بنا نحن الاثنين؟ إذا كان الأمر كذلك ، فهل له علاقة بحقيقة أن الشخص الذي سماه «الأب ، وأسميه أنا جدّي كان شخصًا آخر حقًا؟ هل كانت ليالينا بجوار النُّهير محاولة للتعويض عن شيء لم يكن أبي يحصُل عليه ؛ لتحقيق رؤيته الخاصة لما يمكن أن يكون عليه الأب والابن لبعضهما البعض؟ طريقةً لشق طريقه الضيق الخاص عبر مسالك الحياة؟

الدانماركي الذي وجد أرض نشوء ثعابين البحر

إلى أي مدى ينبغي أن تكون مستعدًا للذهاب حتى تفهم ثعبان بحر؟ أو شخص؟ كان يوهانس شميدت Johannes Schmidt في السابعة والعشرين من عمره عندما صعد على متن الباخرة «ثور» في العام 1904 وانطلق ليعثُر على مسقط رأس ثعابين البحر. وسوف يمر نحو عشرين عاماً قبل أن يبلُغَ وجهته. وبعد سنوات قليلة من وصوله، كتب عالم الأحياء البحرية البريطاني، والتر غارستانغ Walter Garstang، قصيدة لشميدت، والتي نُشرت في النهاية في ما قد يكون المجموعة الوحيدة من القصائد التي كتُبت عن مرحلة اليرقة للحيوانات المختلفة، وأشكال اليرقات، مع أبيات أخرى عن علم الحيوان.

المجدُ كُلُه للدنماركيين، الذين حلوا الأحجية القديمة،
الذين كشفوا، خطوة بخطوة، وسنة بعد سنة، لثام التاريخ:
يوهانس شميدت القائد، و«البابا» بيترسن خلفه
اللذان جعلاً سفن «ثور» و«دانا» معروفتين للبشرية جمعاء

حدث الكثير في سعي البشرية الشاق إلى فهم حياة ثعبان البحر ووجوده منذُ بحث سيغموند فرويد الذي بلا طائل عن الخصيتين في تريستي. تمكّن عالِم أحياء بحرية دنماركي، سي.

جي . بيترسن C. G. Petersen ، في تسعينيات القرن التاسع عشر من مراقبة التحول الأخير لثعبان البحر ، واقترح أن جميع ثعابين البحر تتكاثر في البحر . وحتى أرسطو كان قد لاحظ ، كما نعلم ، أن ثعابين البحر مكتملة النمو تنتقل أحيانًا إلى البحر ، وفي القرن السابع عشر ، لاحظ فرانشيسكو ريدي Francesco Redi أن ثمةَ ثعابين بحر زجاجية تظهر على طول السواحل في الربيع وتتجول في مجاري الأنهار . لكن بيترسن استطاع أن يصف كيفية حدوث ذلك بمزيد من التفصيل . وعلى وجه الخصوص ، لاحظ بنجاح ووصَف كيف تتحول ثعابين البحر الصفراء إلى فضية . وحتى ذلك الحين ، كان الكثير من الناس غير مقتنعين بأن الاثنين ينتميان إلى نفس النوع . وأثبت بيترسن بشكل لا لبس فيه أن كليهما كانا تجليات لنفس السمكة . ورأى أن الجهاز الهضمي لثعبان البحر الفضي يتقلص ، ورآه وهو يتوقف عن الأكل ، ورأى أعضاءه التناسلية تتطور وزعانفه وعيونه تتغير . ويبدو أن هذا التحول كان طريقة ثعبان البحر للإعداد للإنجاب . وفي العام 1896 ، قدّم باحثان إيطاليان ، جيوفاني باتيستا غراسي Battista Grassi Giovanni وتلميذه سالفاتوري كالاندروتشيو Salvatore Calandruccio ، شرحاً للتحول الأول لثعبان البحر . وأجريا دراسة تشريحية مقارنة لتحول أنواع مختلفة من اليرقات التي يتم صيدها في البحر الأبيض المتوسط إلى ثعابين زجاجية ، وخلُصا منها إلى أن مخلوقاً صغيراً على شكل ورقة صفصاف يسمى «ليبتوسيفالوس بريفيروستريس» Leptocephalus brevirostris يجب أن يكون الشكل الأول لثعبان البحر الأوروبي المسمى «أنغيلا أنغيلا» . وكان يُعتقد في السابق

أن هذه اليرقة هي نوع مستقل بذاته . والآن أصبح من الواضح أنها في الواقع ثعبان بحر . وبالإضافة إلى ذلك ، كان غراسي وكالاندروتشيو أيضًا هما أول من شهد التحول على الإطلاق ، عندما حولت ورقة صفصاف صغيرة في حوض السمك الخاص بهما في ميسينا في صقلية نفسها بأعجوبة إلى ثعبان بحر زجاجي .

كان ذلك اكتشافًا مثيرًا . وكتب غراسي في تقرير : «عندما أفكر في أن هذا اللغز قد أسَر انتباه علماء الطبيعة منذ أيام أرسطو ، يبدو لي أن مقتطفاً قصيراً من عملي ربما لا يكون غير جدير بتقديمه إلى الجمعية الملكية في لندن» . وسيتم نشر تقريره في نهاية المطاف في ما كانت في ذلك الوقت واحدة من أعرق المجلات العلمية في العالم ، «وقائع الجمعية الملكية في لندن» Proceedings of the Royal Society of London . وأشار غراسي في تقريره إلى أن هذا النوع من اليرقات ، الذي ثبت الآن أنه أول تجسيد لثعبان البحر ،له عيون كبيرة نسبيًا ، وبالتالي ربما فقس في أعماق كبيرة . ربما في البحر الأبيض المتوسط ، كما اقترح .

بحلول أوائل القرن العشرين ، كان معروفًا في ذلك الحين أن ثعبان البحر الأصفر يتحول إلى ثعبان البحر الفضي الناضج جنسيًا ويتجول عائداً مرة أخرى إلى البحر في الخريف ، ولا يعود أبدًا . وكان من المعروف أيضًا أن يرقات ليبتوسيفالوس تتحول إلى ثعابين زجاجية صغيرة ولذيذة تظهر حول سواحل أوروبا في الربيع بحثًا عن مكان يمكن أن تعيش فيه وتتحول إلى ثعابين صفراء كاملة النمو . ولكن ما الذي يحدث بين هذين الطورَين؟ وأين يحدث؟

عندما ألقى عالم الحيوان الألماني كارل إيغنمان Carl H. Eigenmann

كلمة أمام الجمعية الميكروسكوبية الأمريكية في دنفر، كولورادو، في العام 1901، عنون محاضرته بعنوان «حل مسألة ثعبان البحر». لكن ذلك لم يكن هو المقصود حرفياً. كان لا يزال غير قادر على تقديم الحل النهائي لمسألة ثعبان البحر. على العكس من ذلك، سرد حكاية علمية مفادها أن «جميع الأسئلة المهمة قد أجيبَ عنها، باستثناء سؤال ثعبان البحر». لكن السؤال نفسه، كما شرح إيغنمان، تغير. في السابق، كان سؤال ثعبان البحر حول ما هي حقيقة ثعبان البحر، أهو سمكة أم شيء آخر جملة وتفصيلاً. كان السؤال حول تناسل ثعبان البحر -حول العثور على أعضائه التناسلية، حول ما إذا كانت ثعابين البحر تلد صغارًا، حول ما إذا كانت خنثوية أم لا- وحول ما تشير إليه تحوّلاتها.

أما الآن، في فجر القرن الجديد، فأصبح سؤال ثعبان البحر هو: ما الذي تفعله ثعابين السمك الناضجة بعد العودة إلى البحر؟ متى وأين تتكاثر؟ وأين تموت؟

وإذن، أين ذهبت ثعابين البحر الفضية؟ ومن أين جاءت كل أوراق الصفصاف الغامضة؟ أين هو مكان ميلاد ثعابين البحر؟ هذا ما شرع يوهانس شميدت، الذي كان في السابعة والعشرين من العمر في حينه، في محاولة اكتشافه في ربيع العام 1904.

كان يوهانس شميدت عالم أحياء بحرية من الدنمارك. عاش سنواته الأولى في منزل صغير من الطوب الأحمر في أنحاء قلعة جيكرسبريس في نورد شيلان، على بعد حوالي ثلاثين ميلاً

شمال كوبنهاغن ، حيث عمل والده وكيلاً لها . ونشأ في بيئة دافئة ومحميَّة ، محاطة بالغابات والطبيعة ، بعيدًا عن المدينة الكبيرة وعالَم العلوم -بل وأبعد عن بحر سارغاسو .

ومع ذلك ، في سن السابعة الغض ، فقد يوهانس شميدت والده ، واضطر هو ووالدته وشقيقاه الأصغر فجأة للانتقال إلى فيستربروغاد Vesterbrogade في كوبنهاغن ، أحد أكثر شوارع المدينة حيويةً ، وإلى نوع مختلف تمامًا من الحياة ، محاطين بأنواع مختلفة من الناس . كانت تلك ثورة أثرت على حياة يوهانس شميدت -ليس عاطفيًا فقط ، وإنما عملياً أيضاً . كان مصنع كارلسبيرغ للجعة يقع على بعد بضع مئات من الأمتار من منزله الجديد ، وحتى أقرب كان منزل عم يوهانس شميدت ، يوهان كجيلدال ، الذي يعمل كيميائياً في مختبر أبحاث كارلسبيرغ ، حيث بدأ شميدت في نهاية المطاف مسيرته العلمية الخاصة .

في نفس سنة انتقال يوهانس شميدت بعمر سبع سنوات إلى كوبنهاغن مع عائلته ، زار العالم الكيميائي الشهير لويس باستور Louis Pasteur المدينة . وكان باستور قد طور طريقة لحماية الغذاء من البكتيريا والكائنات الدقيقة ؛ وكانت البسترة ، كما سُمِّيت تكريماً له ، ذات أهمية كبيرة لمصانع البيرة . وعندما جاء باستور إلى كوبنهاغن ، دُعي لزيارة كارلسبيرغ ، وكان صاحب مصنع الجعة الفخور ، جيه . سي . جاكوبسِن ، معجبًا جدًا بالعالِم العظيم الذي قرر الاستثمار في مختبر أبحاث متطور في الوطَن .

بالإضافة إلى تخمير البيرة ، سيتابع مصنع كارلسبيرغ أيضًا عملاً بحثياً حديثاً ومتقدمًا -وليس حول صنع البيرة وحفظ الطعام

فحسب ، وإنما إجراء البحوث العلمية البيولوجية والطبيعية الرائدة . وكانت تلك مسألة مكانة وحفظ هيبة ، لكنها كانت أيضاً حسابًا تجاريًا . بمرور الوقت ، ساعدت الأبحاث كارلسبيرغ في النمو من مصنع جعة صغير مملوك لعائلة إلى واحد من أكبر مصانع العالم ، في حين أن قسم أبحاث الشركة سيساهم أيضًا ، بطريقة غير مباشرة ، في جعل الفجوة بين الجنس البشري وثعابين البحر أضيق قليلاً .

بعد انتقاله إلى كوبنهاغن ، وخلال سنواته الأولى في المدرسة ، بدأ يوهانس شميدت يقضي المزيد والمزيد من الوقت في مختبر أبحاث كارلسبيرغ ، في ظل عمه يوهان كجيلدال ، الذي عاش معه في منزله أيضًا لبعض الوقت . وكان هناك ، في المختبر ، حيث تعلّم أساسيات العمل العلمي . وكان هناك أيضاً حيث نشأ فيه شغف بالعلم -تلك الحاجة الغامرة إلى الملاحظة والوصف ، والفهم . وعندما شرع في نهاية المطاف في مسيرته الأكاديمية الناجحة ، وسافر حول العالم سعياً وراء أبحاثه ، كان ذلك أيضاً بدعم مالي من كارلسبيرغ .

حصل يوهانس شميدت على شهادة في علم النبات ومنحة لدراسة الغطاء النباتي لما كانت تُعرف آنذاك باسم سيام (تايلاند الآن) في العام 1898 . وفي العام 1903 ، قدم أطروحة دكتوراه في أشجار القُرم ، فقط ليحوِّل تركيزه على الفور إلى الحيوانات البحرية .

في 17 سبتمبر 1903 ، تزوج من إنغيبورغ فان دير آ كوهل ، التي عرفها منذ قدومه أول الأمر إلى كوبنهاغن في سن السابعة ، وابنة سورين أنطون فان دير آ كوهل ، خليفة جيه . سي جاكوبسِن كمدير لكارلسبيرغ . وأقيم حفل الزفاف في كنيسة كارلسبيرغ الخاصة ،

كنيسة يسوع في كوبنهاغن ، وفي ربيع العام 1904 ، حصل الزوجان على شقة خاصة بهما في إستربورغاد . وبالكاد نقلا أثاثهما إليها قبل أن يبحر يوهانس شميدت للعثور على أصل ثعابين البحر .

كتب يوهانس شميدت لاحقًا في تقرير إلى الجمعية الملكية في لندن : «إن مشكلة أماكن التناسل في ثعبان البحر العادي أو ثعبان بحر المياه العذبة هي واحدة من مشاكل العصور القديمة العظيمة . منذ أيام أرسطو شغل علماء الطبيعة أنفسهم بها ، وفي مناطق معينة من أوروبا حفزت الخيال الشعبي بدرجة ملحوظة» .

وكتب «أماكن» بصيغة الجمع ، لأنه : كيف يمكن لأحدٍ أن يعرف على وجه اليقين أن هناك مكانًا واحدًا للتكاثر؟ وأطال المكوث في العمل على ذلك اللغز المغري ، الذي شغل منذ قرون كثيراً من العلماء والذي يبدو الآن أنه أوقعه في شِراكه هو أيضًا .

«نحن نعلم ، إذن ، أن ثعابين البحر المُسنّة تختفي من نطاق معرفتنا في البحر ، وأن البحر يرسل إلينا في المقابل عددًا لا يحصى من ثعابين البحر الدوديّة الصغيرة . ولكن أين تجولت ، هذه الثعابين المُسنّة ، ومن أين جاء الصغار؟ وما هي مراحل السنّ الأصغر التي تسبق المرحلة الدّودية في تطور ثعبان البحر؟ إنها هذه المشاكل وأمثالها هي التي تصنَع 'مسألة ثعبان البحر'» .

وبشكل أكثر تحديدًا ، هناك جانب واحد من مسألة ثعبان البحر أزعج يوهانس شميدت . كان سلفاه الإيطاليان ، غراسي وكالاندروتشيو ، قد اقترحا أن ثعابين البحر ، أو الإيطالية منها على

الأقل، تتكاثر في البحر الأبيض المتوسط، الذي كان المكان الوحيد حيثُ وجدا يرقات ليبتوسيفالوس. ولكن في الوقت نفسه، كانت اليرقات التي تم صيدها في البحر الأبيض المتوسط كبيرة، طولها من ثلاث إلى أربع بوصات، ومن الواضح أنها لم تفقس حديثًا. كيف لم يعثر أحد على عينات أصغر؟

في وقت مبكر من مايو 1904، غالباً بفعل الصدفة المحضة وقبل أن تصبح مهمته رسمية من الناحية الفنية، تمكن يوهانس شميدت من الإمساك بيرقة ليبتوسيفالوس في البحر غرب جزر فارو. وكانت أيضًا كبيرة الحجم طولها ثلاث بوصات، لكنها كانت المرة الأولى التي يرى فيها أحد يرقات ثعبان بحر خارج البحر الأبيض المتوسط، وأقنع ذلك شميدت بأن غراسي وكالاندروتشيو كانا مخطئين على الأرجح بشأن مكان تكاثر ثعابين البحر. وأدرك شميدت أيضًا أنه من أجل حل اللغز، سيتعين عليه تعقُّب ثعبان البحر إلى مصدره، بحثًا عن اليرقات الأصغر فالأصغر، إلى مكان ما في المحيط الشاسع، والعثور على أول ثعبان بحر حديث الفقس في طور ورقة الصفصاف الشفافة، وبالتالي مكان ميلاد ثعابين البحر. كان بحاجة إلى العثور على إبرة في كومة قش. وكانت كومة القش مُحيطاً.

كتب شميدت لاحقًا: «لم تكن لدي فكرة في ذلك الوقت عن الصعوبات الجمّة التي تنطوي عليها المهمّة، سواء فيما يتعلق باستخلاص الملاحظات المهمة، أو ما يتعلق بتفسيرها». وكان هذا، بكل المقاييس، تبخيساً مهذبًا ومحافظاً بالمهمة.

بين عامي 1904 و1911، أبحر يوهانس شميدت بصبر أعلى

وأسفل سواحل أوروبا بشبكة صيد : عبر المياه قبالة أيسلندا وجزر فارو في الشمال ؛ عبر بحر الشمال قبالة النرويج والدنمارك ، وجنوبًا على طول ساحل الأطلسي للقارة ، مروراً بالمغرب وجزر الكناري ، وإلى البحر المتوسط ، وصولاً إلى الساحل المصري . وقد وجد الكثير من يرقات ليبتوسيفالوس ، لكنها كانت كلُّها تقريبًا بنفس حجم أول يرقة تم صيدها ، بين بوصتين ونصف وثلاث بوصات ونصف .

بعد أكثر من سبع سنوات من البحث ، كان ما يزال عالقًا في المربع الأول ، ومن الواضح أنه عانى من درجة معينة من اليأس . وكتب : «تبيّن أن المهمة تتزايد في مداها ، عامًا بعد عام ، إلى درجة لم نحلم بها أبدًا . وقد أُعيقَ هذا العمل طوال الوقت بسبب نقص السفن والمعدات المناسبة ، ونقص الأموال ؛ في الواقع ، لولا الدعم الخاص الممنوح من العديد من المصادر المختلفة ، لكان علينا أن نتخلى عن المهمة منذ فترة طويلة» .

شعر على الأقل بأنه يستطيع استخلاص نتيجة واحدة حازمة : بما أن جميع اليرقات التي وجدها على طول سواحل أوروبا كبيرة نسبيًا ومن الواضح أنها لم تفقس حديثًا ، أدرك أن ثعابين البحر ربما لا تتكاثر بالقرب من الساحل ، وأن بحثه يجب أن يستمر إلى أماكن أبعد بقدر يُعتد به في البحر . ولهذا ، لم تكن السفينة البخارية «ثور» كافية ؛ وبدلاً منها ، تمكن يوهانس شميدت من الاستعانة بشركات الشحن الدنماركية التي تبحر عبر المحيط الأطلسي . وقام بتجهيز سفنها بالشِّباك والتعليمات ، وبين عامي 1911 و1914 ، شاركت ثلاثة وعشرون سفينة شحن كبيرة في البحث عن اليرقات الصغيرة الشفافة .

لم يكن لدى طواقمها أي تدريب علمي ولا معدات أخرى غير شباك الصيد التي قدمها لهم شميدت، لكنهم كانوا يتلقون تعليمات بسحب الشباك خلف سفنهم، ووضع علامة على مكان رفعها وإرسال صيدهم إلى المختبر في الدنمارك. وتم تسجيل أكثر من خمسمائة صيد بواسطة سفن الشحن التي تغطي مساحات كبيرة من الجزء الشمالي من المحيط الأطلسي.

انطلق شميدت من ناحيته في صيف العام 1913 على متن السفينة مارغريت، التي أقرضتها له شركة دنماركية. وتجول في المياه على طول الطريق من جزر فارو إلى جزر الأزور، وغربًا نحو جزيرة نيوفاوندلاند ثم جنوبًا في اتجاه البحر الكاريبي.

وأسفر البحث المكثف عن نتائج. قبل مضي وقت طويل، وجد يوهانس شميدت أن يرقات ثعبان البحر أصبحت أكثر عددًا عندما انتقل إلى الغرب، بينما صغُر حجمها. وعند نقطة ما، في منتصف الطريق تقريبًا عبر المحيط الأطلسي، بين فلوريدا وغرب إفريقيا، التقط يرقة بطول 1.3 بوصة فقط، وهو رقم قياسي جديد. وفي نهاية المطاف، وبينما يندفع أبعد إلى الغرب، وجد عينة بقياس أقل من 0.7 بوصة.

جمع شميدت جميع يرقات ليبتوسيفالوس الهشة، من كل من رحلاته الاستكشافية الخاصة وتلك التي قام بها مساعدوه، ودرسها تحت المجهر، وقاسها، واحتفظ بملاحظات دقيقة: الطول والعدد؛ العمق والتاريخ؛ وخط العرض وخط الطول. وببطء -وإنما بثبات- راكَم مجموعة هائلة من البيانات، التي وجهته، ببطء لا يكاد يُحَسّ، نحو هدفه. ومن بين أمور أخرى، استطاع

تمييز صلة بين تحركات أوراق الصفصاف الصغيرة عبر المحيط الأطلسي وبين تيارات المحيط العظيمة القوية . كما وجد شيئًا آخر ، بالصدفة تقريبًا .

كان من المعروف مسبقاً أن ثعابين البحر التي تسبح في الأنهار والممرات المائية الأخرى في القارة الأمريكية تنتمي إلى أنواع مختلفة عن نظيراتها الأوروبية . وهذان النوعان من ثعابين البحر متطابقان تقريبًا ، ويخضعان لنفس التحولات ، ولكنهما مع ذلك ينتميان إلى أنواع مختلفة من عائلة أنغيلا . والشيء الوحيد الذي يميز بينهما هو أن ثعبان البحر الأوروبي ، أنغيلا أنغيلا ، لديه بضع فقرات أكثر من ثعبان البحر الأمريكي ، أنغيلا روستريت .

كانت مهمة يوهانس شميدت ، بطبيعة الحال ، هي العثور على مسقط رأس ثعبان البحر الأوروبي ، ولكن ما اكتشفه عندما ارتحل أبعد وأبعد إلى الغرب كان أن المزيد والمزيد من اليرقات التي يتم اصطيادُها تنتمي إلى الأنواع الأمريكية . وطرح ذلك مشاكل معينة . بعيداً عن قياس وإحصاء عدد اليرقات ، ترتّب عليه الآن أيضًا تصنيف كل عينة . في الخارج في المحيط ، على متن سفينة متدحرجة متقافزة ، كان عليه أن يضع كل ورقة صفصاف صغيرة تحت المجهر وأن يحاول عدّ ألياف العضلات على ظهرها ؛ الألياف التي تتوافق مع عدد الفقرات التي تظهر في ثعبان البحر الناضج بالكامل . ومن خلال القيام بذلك ، يمكنه تحديد الأنواع التي تنتمي إليها اليرقات ، ثم بناء الجداول التي توضح أين كان كل نوع أكثر شيوعًا . وكان ما اكتشفه هو أن السكان يكونون مختلطين في الجزء الغربي من المحيط الأطلسي . هناك امتزجت اليرقات

الأوروبية والأمريكية ، عاجزة على ما يبدو عن مقاومة التيارات ، واصطيدَت بالشباك نفسها . وينبغي أن يعني ذلك ، من الناحية المنطقية ، أن ثعابين البحر الأوروبية والأمريكية لم تكن متطابقة تقريبًا فحسب ، وإنما وُلدت في البقعة نفسها أيضاً .

إذا كان هذا هو واقع الحال -والذي عنى بدوره أن شميدت ، إذا استطاع العثور على مسقط رأس ثعبان البحر الأوروبي ، فإنه سيجد أيضًا مسقط رأس ثعبان البحر الأمريكي افتراضياً -فسوف يتبقى لديه لغز واحد فقط : كيف تعرف هذه الأسماك من أي نَوع هي؟ كيف تعرف أوراق الصفصاف الصغيرة التي تنجرف في تيارات المحيط الأطلسي إلى أين تذهب؟ من الواضح ، كما كتب شميدت ، أن يرقات كلا النوعين من ثعابين البحر تسافر معًا في تيار الخليج ، لكن وجهاتها تفترق في مرحلة ما من رحلاتها . فجأة تتجه اليرقات الأمريكية نحو الغرب ، وتتحول إلى ثعابين بحر زجاجية ، وتتجول في الممرات المائية الأمريكية ، بينما تندفع اليرقات الأوروبية باتجاه الشرق . وكتب يوهانس شميدت : «كيف تقوم مجموعات اليرقات في غرب المحيط الأطلسي بفرز نفسها ، بحيث تجد تلك التي تنتمي إلى 'أنغيلا أنغيلا' أنفسها في نهاية المطاف في أوروبا ، في حين 'تَحُطّ' تلك المنتمية إلى 'أنغيلا روستريت' على شواطئ أمريكا وجزر الهند الغربية»؟

كان استنتاجه أن الأنواع المختلفة من اليرقات ، مهما قد تظهر متشابهة ، تكون مبرمجة منذ الولادة للبحث عن وجهات مختلفة . ببساطة ، تنمو اليرقات الأميركية أسرع من بنات عمومتها

الأوروبيات ، ما يعني أن تكون لديها القوة للخروج من تيار المحيط القوي عندما يمر عبر الساحل الأمريكي بدلاً من الانجراف نحو أوروبا . وتمر يرقات ثعبان البحر الأمريكي بأول تحول لها إلى ثعابين زجاجية بعد عام واحد فقط ، بينما تقضي الأوربية عامين طويلَين في الانجراف مع التيارات ، ولا تصبح ثعابين زجاجية إلا بعد ثلاث سنوات .

هذا هو ما يجعل ثعبان البحر فريداً ، كما قال يوهانس شميدت . ليس تحولاته ، وليس لأن ثعابين البحر الفضية الناضجة تتجول عائدةً مرة أخرى إلى البحر وتعبُر المحيط كلَّه حتى تتكاثر .

«النقطة التي تجعل ثعبان البحر استثناءً بين الأسماك ، وبين جميع الحيوانات الأخرى ، هي المدى الهائل لرحلاته في مرحلة اليرقة .»

في ربيع العام 1914 ، كان يوهانس شميدت على بُعد لمسَة من هدفه . كان يقترب ببطء من مكان ميلاد ثعابين البحر . وكانت جميع ملاحظاته تشير إلى الاتجاه نفسه ؛ كل ما هو مطلوب الآن هو المزيد من الحملات الاستكشافية . والمنهج العلمي -الملاحظة التجريبية والمنهجية- أثمر بعد عشر سنوات من البحث اليائس في بعض الأحيان . وسوف تكشف الحقيقة قريبًا عن نفسها تحت عدسة مجهر يوهانس شميدت . في مايو 1914 ، عثر على زوج من يرقات ثعابين البحر طولُ كلٍّ منهما ثلث بوصة فقط .

حدث ذلك عندما دخلت شؤون أكثر دنيوية فجأة في الطريق .

أولاً ، غرقت السفينة «مارغريت» بعد اصطدامها بالأرض قبالة جزيرة سانت توماس في منطقة الكاريبي . ولحسن الحظ ، أمكن إنقاذ العينات التي تم جمعها ، ولكن ، كتب شميدت ، «ها نحن ذا ، في سانت توماس بلا سفينة . الشيء الوحيد الذي يجب عمله في الوقت الحالي هو السعي إلى المضي قدماً بالعمل الذي تقوم به السفن التجارية» . وبعد ذلك بوقت قصير ، في يوليو 1914 ، اندلعت الحرب العالمية الأولى . فجأة ، لم يعد المحيط الأطلسي ذلك الموضع الغامض لتكاثر ثعابين البحر فحسب ، وإنما أصبح منطقة حرب أيضاً . كانت الغواصات تذرع البحر ، مهدِّدة أيَّ وكلَّ من يتجرأ على الخروج ؛ وغرقت العديد من السفن التجارية المشاركة في بحث شميدت ؛ ولم يعد الإبحار في المحيط بحثًا عن أوراق صفصاف صغيرة شفافة مجرد مسعى غير واعد إلى حد كبير فحسب ؛ لقد أصبح مسعى خطيراً للغاية أيضاً . لخمس سنوات طويلة ، جلس يوهانس شميدت في غرفته ، منتظرًا انتهاء المشاجرات غير ذات الصلة بين القوى العالمية حتى يتمكن من استئناف مهمته الأكثر إلحاحًا مرة أخرى . وأثناء انتظاره ، عمل على البيانات التي كان قد جمعها مُسبقاً ؛ صوّر عيناته ، وفهرسَها ، ووضع الجداول والرسوم البيانية . وكان نافد الصبر وقد عرَف بالضبط ما الذي ينبغي عليه فعله «بمجرد أن تتوقف الحرب» .

في العام 1920 ، عندما كانت أجزاء كبيرة من أوروبا لا تزال في حالة خراب ، أبحر يوهانس شميدت مرة أخرى . وكان قد تأكّد ، خلال فترة التوقف المفروضة ، من أن يكون أفضل تجهيزًا من ذي قبل . من خلال شركة «إيست إيسياتيك» East Asiatic

في كوبنهاغن، تمكن من الحصول على السفينة رباعية الصواري، «دانا»، وزودها بكل المعدات العلمية اللازمة. والأهم من ذلك أنه أصبح يعرف الآن أين يبحث.

خلال عامي 1920 و1921، التقطت «دانا» أكثر من ستة آلاف يرقة «ليبتوسيفالوس» في الجزء الغربي من المحيط الأطلسي. وتمكن شميدت من رسم خريطة تفصيلية للمكان الذي عُثِر فيه على أصغر العينات؛ عينات دقيقة جداً، كما كتب يوهانس شميدت «حتى أنه لا يمكن أن يكون هناك أي شك... حول أين تم إنتاج البيض».

سوف يكون شخص بصدد البحث عن أصل شيء ما بصدد البحث عن أصله هو أيضاً. هل هذه عبارة منطقية؟ هل كان هذا صحيحاً بالنسبة ليوهانس شميدت، الرجل الذي عاش منذ سن السابعة مع ذكريات والده المتلاشية فحسب؟ هل بحث عن ثعابين البحر عندما كان طفلاً؟ هل حمل ثعبان بحر وحاول أن ينظر في عينيه؟ في العام 1901، قبل سنوات قليلة من انطلاقه في رحلته الأولى، غرق عمُّه يوهان كجيلدال، الذي كان له في بعض الأحيان نوعًا من الأب البديل. وفي العام 1906، بينما يبحر على طول سواحل أوروبا، توفيت والدته. كان يوهانس شميدت، الذي أبحر غربًا، خارجاً إلى المحيط المفتوح باتجاه المجهول؛ شابًا انقطعت كل صلة له بأصله.

أما ما عناه ذلك حقًا له، فشيء لا يمكن أن نعرفه على وجه

اليقين. ثمة في خلفيته، أو في ما نعرفه عنها على الأقل، القليل جدًا مما يفسر السبب في أنه قضى حياته في البحث عن مسقط رأس ثعبان البحر. من المؤكد أنه كان عالِمًا بارعًا. ووُصف في كثير من الأحيان بأنه مفرط الكفاءة: لقد لاحظ، ووصف، وحاول أن يفهم؛ ونادراً ما بدا أنه يزعج نفسه بالسؤال عن السبب في أنه يفعل ما يفعل. وقد ألقى نظرة واقعية على العالم ومكانه هوَ فيه. في الرسائل والتقارير، كان صريحًا ورسميًا. وفي الصور، بدا دافئًا ودودًا، وعادة ما ارتدى بدلة من ثلاث قطع وربطة عنق. وقيل إنه أحبّ الحيوانات، مع حب خاص للكلاب. لكنَّ دافعه ظل سراً مدفوناً ومخبأً جيداً. نشأ في البيئة الآمنة للطبقة المتوسطة وشعر بالراحة وكأنه في منزله مع عالَم العلوم منذ سن مبكرة. وبزواجه من إنغيبورغ، أصبح أيضًا عضوًا في المراتب العليا لبرجوازية كوبنهاغن. كان بإمكانه أن يختارَ حياة أسهل وأكثر راحة. ومن حيث المقاييس الشائعة للنجاح -الثروة، والازدهار والمكانة- كان من الواضح أنّ لديه مما يخسره أكثر مما يكسبه من رحلاته. ومع ذلك، يبدو أنه لم يخطر بباله أبدًا أن يشكك في فائدة قضاء ما يقرب من عقدين من الانجراف مع التيارات في أنحاء المحيط الأطلسي الشاسع، للعثور على أوراق صفصاف شفافة صغيرة جدًا.

بوضوح، كان يوهانس شميدت منبهراً بسؤال ثعبان البحر، بالغموض الدائم للمكان الذي يتكاثر فيه ثعبان البحر الأوروبي، وكيف يولد وكيف يموت. وكتب: «أعتقد أن تاريخ حياة ثعبان البحر، من حيث إثارة الاهتمام، لا يُدانيها أي نوع آخر في مملكة الحيوان».

ربما هناك أشخاص لا يستسلمون بمجرد أن يفكروا في الإجابة عن سؤال يثير فضولهم ، ويمضون قدُماً حتى يجدوا ما يبحثون عنه ، بغض النظر عن المدة التي يقضونها في ذلك ؛ عن كم يكونون وحيدين ، أو مهما بدت الأشياء ميؤوساً منها ، مثل رحلة جيسون على متن «آرغو» بحثاً عن «الصوف الذهبي» .

أو ربما يستنهضُ سؤال ثعبان البحر نوعًا مختلفًا من الإصرار بين أولئك الذين يناجِزونه . كلّما عرفتُ أنا نفسي أكثر عن ثعبان البحر ، وكلما أصبحت أكثر إدراكًا للتكلفة التي رتّبها اكتساب هذه المعرفة عنه على مر التاريخ ، أصبحت أكثر ميلاً إلى تصديق أن هذا هو واقع الحال . قبل كل شيء ، أريد أن أصدِّق أن الغموض يجذبنا لأن بعض جوانبه تبدو مألوفة . إن أصل ثعبان البحر ورحلته الطويلة ، على الرغم من غرابتها ، هي أشياء ربما نتعلق بها ، بل ونقدِّرها : انجرافه المطول مع تيارات المحيط في محاولةٍ لمغادرة الوطن ، وطريقه الأطول والأكثر صعوبة للعودة -تلك الأشياء التي نكون نحن مستعدين لفعلها من أجل العودة إلى الوطن .

ربما يكون بحر سارغاسو نهاية العالم ، لكنه أيضًا بداية كل شيء . هذا هو الكشف الكبير . حتى الثعابين الصفراء الشاحبة التي اعتدنا أن نستخرجَها أنا وأبي من النُّهير في أواخر ليالي أغسطس كانت ذات يوم أوراق صفصاف انجرفَت مسافة أربعة آلاف ميل من مكان غريب يشبه عالَم الحكايات ، أبعد كثيراً مما أمكنني أن أتخيله . وعندما كنتُ أحملها في يدي وأحاول النظر في عيونها ، فإنني أكونُ قريباً من شيء تسامى على حدود الكون المعروفة . هذه هي الطريقة التي يجذبك بها ثعبان البحر . يصبح

غموضه صدى للأسئلة التي يحملها كلُّ الناس في دواخلهم : من أنا؟ من أين جئت؟ إلى أين أنا ذاهب؟

فهل كان الأمر كذلك بالنسبة ليوهانس شميدت؟

ربما ، ولكن من الممكن تمامًا بطبيعة الحال أن كل تلك الأشياء لم تكن ذات أهمية بالنسبة له . لقد قبل التحدي وقرر أن يقطع الشوط إلى منتهاه . وصاغ سؤاله الصريح الخاص -أين تولد ثعابين البحر؟- وصنعَ منهجاً ولد زخمه الخاص ، إذا جاز التعبير . التقطَ أوراق صفصاف شفافة صغيرة ، ومع كل عينة يتم التقاطها ، أصبحت المهمة التقاط واحدة أصغر . وهكذا ، استمرت أهدافُه في التغيُّر . كان الأمر بهذه البساطة .

وثعابين البحر ، من جانبها ، تناثرَت هناك تحت قدميه أثناء عبوره المحيط الأطلسي ، كما كان حالها دائمًا . ثمّة أوراق الصفصاف الصغيرة تنجرف على تيارات المحيط في اتجاه ، والثعابين الفضية السمينة الناضجة تماماً ، التي عيّنت مسارها وسلكتهُ بعناد نحو بحر سارغاسو ، تسبح في الاتجاه الآخر . عامًا بعد عامٍ واصلت رحلتها الغامضة بعيدًا عن الوطن وعائدة إليه مرة أخرى ، غيرَ عابئة بالحروب العالمية ولا الفضول البشري . تمامًا كما فعلت قبل وقت طويل من إبحار البشر ؛ قبل وقت طويل من أن يرى أرسطو أول ثعبان بحر على الإطلاق ويحاول فهمه ؛ وقبل وقت طويل من أن يطأ أول إنسان على هذا الكوكب . لم تهتم ثعابين البحر بسؤال ثعبان البحر ، ولماذا تفعل؟ بالنسبة لها ،لم يكن هذا سؤالًا في المقام الأول .

في تقريره الضافي ، الذي ظهر في «التبادلات الفلسفية للجمعية الملكية في لندن» ، والذي نُشر أخيراً في العام 1923 ، سرد يوهانس شميدت قصّة ما يقرب من عقدين من العمل . وعلى خريطة ، قام بترسيم المنطقة التي استطاع أن يزعم ، بدرجة كبيرة من اليقين ، أنها موضع تكاثُر ثعبان البحر . وتُحدد المنطقة البيضاوية التي رسمها بالضبط تقريبًا ما نسميه اليوم بحر سارغاسو .

وكتب ، كنوع من الخلاصة : «خلال أشهر الخريف ، تغادر ثعابين البحر الفضية البحيرات والأنهار وتنتقل خارجة إلى البحر . وبمجرد تجاوز حدود المياه العذبة ، تصبح ثعابين البحر ، في معظم أنحاء أوروبا ، خارج نطاق ملاحظتنا . وعندما لا تعود عرضة لمطاردة البشر ، تستطيع أسرابُ ثعابين البحر القادمة من أقصى أركانِ قارتنا أن تتبعَ الآن مسارها في اتجاه الجنوب الغربي عبر المحيط ، كما فعلت أسلافها منذ أجيال لا حصر لها قبلها . أما كم تدوم الرحلة ، فلا نستطيع أن نعرف ،لكننا نعرف الآن الوجهة التي تسعى إليها : منطقة معينة في غرب المحيط الأطلسي ، في شمال شرق وشمال جزر الهند الغربية . هنا تقع أرض تكاثر ثعابين البحر» .

هذا هو السبب في أننا نعرف الآن -بدرجةٍ من اليقين على الأقل- أين تتكاثر ثعابين البحر . وتعتمد كل معرفتنا في هذا الشأن على عمل يوهانس شميدت . أما الذي لا نعرفه فهو السبب . لماذا هناك بالتحديد؟ ما هو المغزى من الرحلة الطويلة اليائسة وكل تلك المحاولات والتحولات؟ ما الذي ينطوي عليه بحر سارغاسو لثعبان البحر؟

ربما كان يوهانس شميدت ليجيب بأن هذا غير ذي صلة . الوجود

يأتي أولاً . العالم مكان سخيف مليء بالتناقضات والارتباك الوجودي ؛ وأولئك الذين لديهم غاية فقط هم الذين يتمكنون في النهاية من العثور على المعنى . على المرء أن يتخيل أن ثعابين البحر كائنات سعيدة .

ويوهانس شميدت أيضاً . في العام 1930 ، حصل على وسام داروين المرموق من الجمعية الملكية في لندن . وبذلك ، انتهت مهمته واكتملت قصته . وبعد ثلاث سنوات ، توفي بالأنفلونزا .

السباحة بعكس التيار

كان يوليو وأغسطس هما ذروة موسم صيد ثعابين البحر. ليس قبل منتصف الصيف. «لا فائدة من محاولة الصيد قبل منتصف الصيف»، كان أبي يقول. «الجوُّ يكون مشرقاً للغاية، لن يعضّ ثعبان البحر الطُّعم، يجب أن يكون أكثر ظلاماً».

كان يتحدث كثيرًا عن ظلام ثعابين البحر، عندما تكون الليالي في أكثر أطوارها قتامة وثعابينُ البحر في أكثر أحوالها جرأة؛ عندما تخرج بدفع عطشٍ إلى المغامرة أو التهور، لتعرضَ نفسَها للبشر.

لكنه، بالطبع، فهم الأمر خطأً. أو ربما اختار أن يصدِّق حقيقته الخاصة لأنها جعلت الحياة أسهل قليلاً.

ثمة حقاً شيءٌ مثل ظُلمة ثعبان البحر؛ تأتي في نهاية الصيف وتستمر لبضعة أشهر. هذا هو الوقت الذي تبدأ فيه ثعابين البحر الفضية رحلتها نحو بحر سارغاسو، بحيث يمكن إغواؤها إلى مصائد الصيادين على طول السواحل. لكنّ ظلمة ثعابين البحر كانت بالنسبة لنا شيئاً آخر. حدث ذلك عندما كان أبي في إجازة الصيف، ولذلك استطاع أن يُمضي لياليه بجانب النهر بدلاً من قضائها في السرير.

لقد عمل طوال حياته. منذ جئتُ إلى الحياة، وقبل ذلك أيضًا، عمِل في رصف الطرق. كان يستيقظ كل صباح قبل السادسة، يشربُ قهوته ويأكل شطائره، ويكون في مكانِ العمل قبل السابعة.

كان جزءًا من فريق عمل يتجولو بحرية نسبية -عصبة متسلسلة بلا سلاسل- يُعبِّدون أو يشقون طرقاً جديدة أو يصلحون الطرق القديمة . كان ذلك عملاً شاقاً لهُ رائحة كريهة وحارة . ترتّب على شخص ما أن يقود الماكينة الكبيرة التي تفرِد الإسفلت على سطح الطريق الممهد ، ولكن كان على شخص ما أن يسير خلفه أيضًا ، بمجرفة أو رفش ، في سحابة من القطران والشُّخام . وكانوا يعملون بالعمولة ، لذلك عنَت كل خطوة تُخطى أو مجرفة تُرفع كسبَ كرونَة إضافيّة .

كانوا يعملون من السابعة حتى وقت الغداء ، يتناولون القهوة والشطائر في سقيفة العمل ، ثم يعودون من الغداء حتى الرابعة -ما لم يكن لديهم قدر استثنائي من العمل الذي يتعين إنجازُه بحيث يُضطرون إلى البقاء حتى وقت متأخر . وكان يعود إلى المنزل عادة في حوالي الرابعة والنصف ؛ يخلع ملابس العمل القذرة ويذهب مباشرة إلى السرير . وكان جسده حارًا ومتعرقًا ، وقد استنفد العمل وجوده كله . وكان يُسمح لك بدخول غرفته ، لكنه لم يكن يقول الكثير . «أحتاج فقط إلى قسط من الراحة» .

وفي بعض الأحيان كان يغفو ، لكنّه يعود فيستيقظُ بعد ثلاثين دقيقة لتناول العشاء وقضاء ما تبقى من اليوم .

كان العمل بالنسبة له أكثر من مهنة ، كان جزءًا لا يتجزأ منه ؛ وقد كسَره ، لكنه جعله قويّاً أيضًا ، وشكّله ولوّنه . كان رجلاً ضخماً إلى حد ما ، ليس طويلًا جدًا ، لكن له جسداً عضلياً وثقيلاً من الأعلى . وكان عنيدًا وقويًا ، بعضُدين قويين صارمين ؛ لم تكن كلتا يدَيّ تكفيان لتطويقهما . وفي الصيف ، عمَل عاري الصدر

وبدا جلده مسفوعاً مثل الصدأ الداكن بحيث أصبح الوشم الباهت على ساعده، رسم مرساة بسيطة، غير مرئي تقريبًا. (كان قد وضع الوشم قبل أن يبلغ سن الرشد، ثملاً وضائعاً في نيهافن في كوبنهاغن، وربما ظلَّ السبب في أنه اختار نقش مرساةٍ بالتحديد لغزاً حتى له نفسه، لأنه لم يسبق له الذهاب إلى البحر). كانت يداه كبيرتان بخرَقٍ ولهما جلد سميك. وكان أحد خنصريه مفقوداً؛ كان قد كُسر مرات عديدة حتى أنه تيبس في شكل تكشيرة ملتوية مثل مخلب كبير، فطلب من طبيب إزالته، واضطر الطبيب إلى ذلك.

وقد عمل لعقود، وظهر عليه ذلك. بدا أن الإسفلت الساخنِ الطازج الذي يحملُه ويجرفه ويسويه كل يوم قد تسرب إلى داخل جلده. وفاحت منه رائحة القطران بعمق، حتى بعد غسل ملابسه وتغييرها. كانت تلك علامة للطبقة العاملة.

عندما كنا نخرج بالسيارة، كان يشير إلى شارع مُعبّد ويقول «لقد صنعت هذا». وقد أحبَّ عمله وكاد يعترف، تقريبًا، إذا تم الضغط عليه، بأنه ماهر فيه. كان فخره المهني من النوع الطبيعي الشامل - من النوع الذي يأتي من معرفة أنك جيد جدًا في شيء لا يعرف الكثير من الناس كيف يفعلونه، ومن معرفة أن هناك ديمومة معينة لما تصنعه وأن الآخرين يقدِّرونه. لكن هويته لم تتمحور حول كونه رصّافاً. كانت مهنته مجرد كلمة. عندما تحدث عن نفسه، سمى نفسَه عاملاً، ومحتواةً في هذا المفهوم تراصفَت معظم الأشياء التي اعتبرها أساسية لوجوده. ولم تكن مسألة اختيار. كان عاملاً منذ الولادة وكانت هويته موروثة. كان عاملاً لأن شيئًا أكبر منه وأقوى

قد اختار تلك الحياة له . كان مسار حياته محدداً سلفاً .

ولكن إذا كان هذا هو ميراثه ، فماذا كان ميراثي؟ ربما —وهنا يكمن التحول الدقيق بين الأجيال ، الذي لا يكادُ يُدرك– هُتافٌ غير منطوق ، لكنُّه دائم الوجود : كلا ، ليس كلُّ الأبوابِ مفتوحة لك ، والوقت أقصر مما تعتقد ، ولكنك ، بالطبع ، حر دائمًا في أن تبذُل المحاولة .

خلال عطلة الصيف ، كنا نذهب في بعض الأوقات إلى النُّهير في وقت أبكر من اليوم ، بينما ما يزال ثمةَ ضوء . وبدلاً من الخفافيش ، كانت طيور السنونو هي التي تنقض غائصةً فوق الماء ؛ من البُعد ، بدت الخفافيش والسنونو متطابقة تقريباً ، لكنّها تتحرك بطريقة مختلفة . لمعت الشمس على صفحة النهر ولوَّح العشب الطويل متمايلاً بجفاف في النسيم .

في واحدٍ من تلك المساءات المبكرة ، وقفنا بجانب شجرة الصفصاف على مسافة من أسفل منحدر النهر .

«هل تعتقد أنكَ تستطيع أن تسبحَ هنا»؟ سأل أبي .

«بالطبع أستطيع .»

«سوفَ أعطيك عشرَ كرونات إذا قطعت النهر بشكل مستقيم .»

«بالتأكيد» .

«ولكن يجب أن يكون ذلك مباشرة ؛ بشكل مستقيم عبر التيار . لا ينبغي أن تنجرِف . إذا سبحتَ مباشرة وعبرت الماء دون انجراف ، سأعطيك ورقة عشر كرونات» .

خلعت ثيابي ودخلت في الماء . كان بارداً وقذراً . تردَّدتُ ثانية أو اثنتين .

«هناك» ، قال أبي مشيراً . «مباشرة عبر هذا المكان ، من الشجرة إلى الصخرة على الجانب الآخر .»

انزلقت هابطاً إلى النهر وشرعتُ في السباحة ؛ ولحوالي خمسة أقدام أبليتُ حسناً . رفعت رأسي عالياً وأبقيت عيني على هدفي ، مباشرة عبر النهر إلى الصخرة . لم يبدُ ذلك صعباً بشكل خاص . لكنني وصلت عندئذٍ إلى منتصف المجرى حيث التيار في أقوى حالاته ، والتقطني مثل يدٍ تكنس فُتاتاً عن طاولة .

جرفَني التيّار إلى الجانب بضعة أقدام ، وطواني تحته ، ابتلعتُ الماء وسعلت قبل أن أتمكن من الانقلاب بعكس اتجاه التدفق والبقاء بلا حراك في منتصف التيار لبضع ثوان ، مثل قارب أنزل المرساة ، وأنا أجدف بشكل محموم ضد التيار . وفجأة شعرت به يرفعني ويدفعني للأمام . دفعت نفسي فعليًا نحو الشاطئ . وخرجتُ متسلقاً على ساقين مرتجفتين ، على بعد حوالي 15 قدمًا من الصخرة .

ضحك أبي وأشار من الجانب الآخر .

«لديكَ فرصة أخرى . بما أنه يتعين عليك العودة ، أيضاً» .

«ألا تستطيع أن تأتي وتأخذني بالقارب»؟ صرخت .

«أوه ، كلا . هيا تعال . بشكل مستقيم .»

مشيت إلى الصخرة ، ونفضتُ حمض اللاكتيك من عضلاتي وعدتُ إلى الماء . هذه المرة ، استهدفتُ أعلى النهر منذ البداية ، وأطلقتُ نفسي نحوه ؛ وساعدني زخمُ الانطلاقة على السباحة

قطريًا ضد التيار لبرهة وجيزة . وفي تلك الثواني القليلة ، أصبحتُ أيضًا على الجانب الصحيح من شجرة الصفصاف في الجانب الآخر ، ولكن عندئذٍ انتبه الماء لما يحدُث وصارعني بعنف دافعاً إيايَ أسفل الجدول . وتمكنت من توجيه طريقي إلى الشاطئ ، والإمساك بفرعٍ وسحبِ نفسي إلى الأرض الجافة ، على بعد ثلاثة أقدام أو نحو ذلك من شجرة الصفصاف .

«هذا قريبٌ ، من كان ليظن»؟ قال أبي واستدار ليذهب ويحضرَ معدات صيدنا .

بقيت حيث كنت ، تاركاً شعاعات الشمس الغاربة الأخيرة تجففُني . وعندما عاد ، ارتديت ملابسي وسرنا بصمت على طول المجرى ، وخرجنا إلى مجازٍ ضيق من الأرض حيث شرعنا في الصيد في انتظارِ أن يحين الوقت المناسب لنصب صنانيرنا من أجل ثعابين البحر .

اصطدتُ سمكة برش صغيرةٍ ابتلعَت الخطّاف بشكل سيىء لدرجة أننا اضطررنا إلى كسر رقبتها لإخراجه . قال أبي أنّ بوسعنا محاولة استخدامها كطعم . وبينما غمزت الشمس الغاربةُ تحت خط الأفق ، طار خفاش بسرعة وبهدوء فوق رؤوسنا .

«أعتقد أن الوقت قد حان» . قال أبي .

ولم أحصل أبداً على ورقة العشر كرونات ، بطبيعة الحال .

صيادو ثعابين البحر

خليجُ هانو على الساحل الشرقي لمنطقة سْكونهِ في السويد هو المكانُ لواجهة شاطئ فريدة تمتد لحوالي ثلاثين ميلًا ، من ستينهوفود في الجنوب إلى أهوس في الشمال . هذا ما يطلق عليه غالبًا ساحل ثعابين البحر في السويد .

وهو موضِع لمشهد جميل ، وإنما ليس بطريقة رعوية أو مبالغ فيها . ثمة جمالٌ طبيعي هناك ، ولو أنّه ليس من النوع الذي يتعذر الوصول إليه إلى حد ما . يستديرُ ساحل خليج هانو برفق ، مطوِّقاً بغابة من أشجار الصنوبر المتناثرة التي تمشّطها الريح . ويخطِّط شاطئ طويل ضيق أبيضُ تقريبًا ، والذي كثيراً ما يكون مرئيًا من الطريق ، حافة الغابة على جانب البحر . ويبدو مثل قماشة مهملة بيّضتها الشمس ، مفرودةٍ على طول الخليج . والبحرُ ضحل والماء ظلٌّ من الزُّرقةِ العميقة .

ترتفع أعمدة خشبية كبيرة وسميكة من الرمال على مسافات منتظمة ؛ سبعة أو ثمانية في كل عنقود صغير . وهي تشبه أعمدة الهاتف ، وإنما التي بلا أسلاك ، والتي نُصِبت بشكل عشوائي على ما يبدو . ويتم استخدام هذه الأعمدة لتعليق معدات وشبكات الصيد ، لتجفيفها وإصلاحها . وحيثما ترى مجموعة من الأعمدة رافعةً رؤوسها في الأفق ، يمكنك أن تكون متأكداً تقريباً من أنك ستجد أيضاً منزلاً صغيرًا ، مبنياً عادة من الطوب أو الحجر القديم ،

غالبًا بسقف من القش ، وأحيانًا نصف مدفون في الكثبان الرملية ، والذي يواجه البحر دائمًا تقريبًا . وتسمى هذه المنازلُ سقائف ثعابين البحر .

يعودُ أقدم سقائف ثعابين البحر إلى القرن الثامن عشر . وكان هناك مائة منها على الأقل على طولِ هذا الساحل الممتد لمسافة ثلاثين ميلاً ، وما تزال خمسون منها أو نحو ذلك واقفة . وعادة ما تُسمى على اسم الصيادين الذين استخدموها أو الأساطير والخرافات التي قيل إنها حدثت فيها . ويُطلق عليها أسماء مثل «سقيفة الإخوة» ؛ «سقيفة جيبا» ؛ «سقيفة نيلز» ؛ «سقيفة هاسنا» ؛ «سقيفة التوأم» ؛ «سقيفة الملك» ؛ «سقيفة المهرّب» ؛ «سقيفة الذَّنَب» ، «سقيفة الوقواق» ؛ و«سقيفة شاهد الزور» . بعض الحظائر مهجورة ، وبعضها تم تحويله إلى أكواخ صيفية على شاطئ البحر ، لكن حفنة منها ما تزالُ تُستخدم لغرضها الأصلي . وهذه هي السقائف التي تجد فيها فئة ثانية من الناس ، متميزين تمامًا عن علَماء الطبيعة ، والذين لهم -تاريخياً- علاقة وثيقة بثعابين البحر : صيادو ثعابين البحر .

هنا ، على ساحل ثعابين البحر السويدي ، لم يتبقَّ سوى القليل منهم ، وهم أخوية متقلصة ، لكن وجودهم ومهنتهم شكلت الحياة في هذا الجزء من العالم لوقت طويل ، طويل . لعدة قرون ، كان صيد ثعابين البحر شأناً محوريًا لثقافة المنطقة وتقاليدها ولغتها . هنا ، يعرف الجميع تقريبًا صيادي ثعابين البحر القدامى بالاسم . هنا ، حضر معظمهم في وقت أو آخر وليمةَ ثعبان البحر -تلك الاحتفالات الخاصة في أواخر الصيف أو أوائل الخريف المكرَّسة لهذه الأسماك . هنا ، أصبح ثعبان البحر والتقاليد المبنية حوله

والمعرفة عنه جزءًا لا يتجزأ من الهوية المحلية .

وكان الأمر هكذا منذ العصور الوسطى على الأقل . كانَ الصيد على طول ساحل ثعابين البحر منظماً بتوزيع نوع خاص من حقوق الصيد ، تسمى أولدراتّر åldrätter . وتأتي كلمة drätt من الفعل السويدي «يسحب» وتشير إلى تقنية الصيد المستخدمة هنا عادة . وهو نظام قديم ، له جذور في زمن إقطاعيٍّ قبل-ديمقراطي ، والمكان الوحيد الذي ما يزال عاملاً فيه هو هنا ، على ساحل ثعابين البحر السويدي . ويأتي النظام من وقت كانت فيه منطقة سْكونه ما تزال جزءاً من الدنمارك . ويرجع تاريخ أقدم الوثائق الموجودة عنه إلى العام 1511 ، وتخبرنا بأن شخصاً اسمُه ينس هولغرسن أولفستاندس من جليمينجهوس اشترى زوجاً من صكوكِ حقوق الصيد من رئيس الأساقفة . وقد سعى الناسُ إلى الحصول على هذه الحقوق ، لأن ثعابين البحر كانت طعاماً وفيراً وشعبياً . وعندما أصبحت سْكونه سويدية في العام 1658 ، استولى الملك السويدي على حقوق الصيد المحلية وأعاد توزيعها وفقًا لسياسة «السودَنة» الاستبدادية التي انتهجها ، ومنحها لأعضاء رجال الدين والنبلاء مقابل الولاء . واستطاع مالِكو صكوك الحقوق ، بدورهم ، عقد صفقات مربحة بتأجير تلك الحقوق للصيادين والمزارعين . وبذلك ، كان ثعبان البحر أيضًا أداة لممارسة السلطة .

«وليمة ثعبان البحر» هي بقايا تلك الأيام . والكلمة السويدية لها ، gille ، تأتي من كلمة gäld ، التي تعني «الدَّين» أو «الدفع» ، وهي تشير إلى الرسوم التي يجب أن يدفعها الصياد مقابل حقوق صيده . وعادة ما يستحقُّ الدفع في نهاية موسم ثعابين البحر ، ويتم

بثعابين بحر حقيقية . وبذلك ، كان ثعبان البحر بمثابة نوع من العُملة .

عادة ما تتطلب مأدبة ثعابين البحر التقليدية صناعة أربعة أطباق مختلفة من الثعابين ؛ ثمةَ العديد من التخصصات المحلية . ثعبان البحر المقلي ؛ ثعبان البحر المسلوق ؛ وحساء ثعبان البحر . ويُنظف ثعبان البحر المدخن وينقع في محلول ملحي ليلة كاملة قبل شيّه وتدخينه على خشب شجر جار الماء . ويوضع ما يسمى ثعبان البحر الفتى Luad ، المُملَّح قليلاً ، على أسياخ ، ثم يُخبز في فرن ساخن ، فيكونُ مدخناً ومحمَّراً في الوقت ذاته . وثمة طبق هالماد Halmad ، وهي ثعابين بحر كبيرة مقطّعة إلى قطع صغيرة الحجم ومقلية في فرن ساخن في مقلاة مليئة بقش الجاودار . وهناك ثعبان بينا Pinna ، وهي ثعابين بحر أصغر مملحة ومقلية بعيدان جار الماء وأوراق العرعر . وطبق ثعبان البحار ، وهو ثعابين بحر مطهوة ببطء في البيرة الداكنة ومقلية بالزبدة . وثعبان فليك Fläk ، وهو ثعابين بحر منظفة ، منزوعة الأشواك ، ومخبوزة بالفرن بعد حشوها بالشبَت والملح . وبهذه الطريقة ، أصبح ثعبان البحر مركزاً لثقافة طعام فريدة .

ينقسم ساحل ثعابين البحر إلى 140 من مناطق حقوق صيد . ويتراوح عرض الواحدة منها بين خمسمائة وألف قدم ، وتمتد في البحر بضع مئات من الأقدام . ويستطيع صاحب صك الحقوق أو مستأجره فقط اصطياد ثعابين البحر في هذا الموقع بالذات . وقد بُنيت سقائف ثعبان البحر بجوار مناطق الحقوق المحددة . كانت منازل صغيرة وبسيطة ، مع غرفة تخزين وغرفة معيشة صغيرة

بطاولة وبضع أسرة خفيفة للنوم . وخلال موسم الصيد ، أقام الصيادون فيها عادة من أجل حراسة المخازنِ حيث يتم الاحتفاظ بالثعابين التي تم صيدها ، أو حتى يكونوا مستعدين للخروج سريعاً وإنقاذ معداتهم في حالة هبوب عاصفة . وقبل بناء السقائف ، كان الصيادون يقلِبون قواربهم الخشبية على الشاطئ ، ببساطة ، وينامون تحتها على أسرة مُرتجلَة من القش .

يستمر موسم الصيد تقليديًا لثلاثة أشهر فقط ، هي طول ما تُسمى «ظلمة ثعبان البحر» ، عندما تنطلق الثعابين خارجة إلى المحيط ، عابرةً على طول الساحل في طريقها إلى بحر سارغاسو . هذه الثعابين –الأكثر حجماً وسمنة ، والتي كيّفت أجسادها مع الرحلة الطويلة عبر المحيط الأطلسي– هي التي يسعى الصيادون وراءها . وعادة ما يكون في شهر يونيو حين يضع الصيادون مصائدهم التي يتفقدونها كل يوم عند الفجر حتى بداية نوفمبر ، عندما يقومون بإزالتها . تلك هي نهاية الموسم . لا مزيد من ظلمة ثعبان البحر .

لطالما كان صيد ثعابين البحر صناعة منزلية . ولم يسمح الموقع ولا ثعابين البحر نفسها بتوسع النطاق . ويتم الصيد في المقام الأول باستخدام ما تسمى «هوما» homma ، وهي نوع خاص من المصائد المجهزة بخطاف وعوامات ، والتي لها أجنحة شبكية طويلة تؤدي إلى كيس مستدق النهاية يتم فيه تجميع الثعابين التي يتم اصطيادها . والقوارب المستخدمة في الصيد صغيرة ذات قيعان مسطحة للمساعدة في الملاحة عبر المياه الضحلة ولتسهيل سحبها إلى الشاطئ . ويقوم الصيادون بصنع القوارب والمصائد بأنفسهم ، تقليدياً .

والأمور تتغير، بطبيعة الحال، وإنما بطرق بسيطة فقط. القوارب، التي كانت تُصنع من خشب البلوط المطلي بالقطران، أصبحت الآن بلاستيكية. وحيث كانت المجاديف تُستخدم ذات مرة، يفضل الناس الآن المحركات الخارجية. ولم يعد يُدفع من أجل حقوق صيد ثعابين البحر ولم تعد تنتقل من الأب إلى الابن. وهذه الأيام، يُسمح للنساء بالتواجد في سقائف ثعابين البحر وفي أعيادها ومآدبها على حد سواء. ولكن، بخلاف ذلك، تتم الأشياء بالطريقة التي كانت تتم بها دائماً، في جزء منه لأن ثعابين البحر تتطلب ذلك، وفي جزء آخر لأن الصيادين يريدونها هكذا -ولكن أيضاً لأن الناس على ساحل ثعابين البحر يتفقون على أن ثمة قيمة في الإبقاء على التقاليد والمعرفة حيّتين. وهكذا، أصبح ثعبان البحر، بمرور الوقت، تراثًا ثقافيًا.

ما نوع الشخص الذي يختار أن يصبح صياداً لثعابين البحر؟ وما الذي يقدمه ثعبان البحر لمثل هذا الشخص؟ المهنة والدخل هما الجواب البسيط. لكن هذه ليست القصة كلها. صحيح أن ثعابين البحر شكلت مصدرًا مهمًا للغذاء في أجزاء كبيرة من أوروبا عبر التاريخ، ولكنها كانت دائمًا مراوغة، صعبة الالتقاط، عسيرة الفهم، وغامضة -ولكثير من الناس غير سارة، ببساطة. وقد أجبرت الثعابينُ الصيادين على تطوير أساليب وأدوات خاصة؛ وأبقى سلوكها الغريب على صناعة الصيد صغيرة النطاق على الرغم من أن الطلب كان مرتفعاً. إنها كائناتٌ لا يمكن استزراعها

مثل السلمون، على سبيل المثال؛ وفي الواقع، لن تتكاثر في الأسر على الإطلاق. وكمصدر للغذاء، كانت ثعابين البحر مهمة جداً للكثير من الناس، لكنها نادراً ما كانت جذابةً بشكل خاص. واليوم، عندما يأكل عدد أقل من الناس ثعبان البحر وتتقلص الكميات التي تُصطادُ منها، لماذا قد يصبح المرء صياد ثعابين بحر من الأساس؟

إذا سألت الناس على ساحل ثعابين البحر في السويد، فربما يخبرك الكثيرون أن هذا نادرًا ما يكون خيارًا. إنك تولد له؛ ويكون قد تم إعدادك له على مدار الأجيال. وغني عن القول أنها لا توجد دورات جامعية أو برامج تدريب مهنية لصيادي ثعابين البحر. ولا تُكتسَب المعرفة الخاصة التي يمتلكها صياد ثعابين البحر في فصل دراسي أو في مختبر. لقد تم تمريرها عبر قرون، مثل قصة قديمة لم يتكلف أحد أبداً عناء تدوينها. كيف تصنع المصائد أو كيف تسلخ ثعبان البحر، وكيف تقرأ البحر والطقس، وكيف تفسر حركات ثعابين البحر تحت السطح: هذه المعرفة المحددة والخاصة تم نقلها من خلال الانخراط العملي، كتجربة مشتركة عابرة للعصور. وهكذا، كان صيد الثعابين في كثير من الأحيان مهنة تجري في العائلات، تنتقل من جيل إلى جيل. لا أحد يصبح صياد ثعابين بحر من دون أن تكون المهنة في دمه. ولا يصبح أحد صياد ثعابين بحر إذا لم ينظر إلى المهنة أيضًا كوسيلة لحماية وحفظ شيء أكبر من الصيد في حد ذاته: تراث ثقافي، وتقاليد، ومعرفة.

نادراً ما ضمّت مناطق أوروبا حيث يكون صيد ثعابين البحر المهنة الأهمّ مدنًا كبيرة ومعروفة. ليست حواضرُ ثعابينِ البحر

نفسَها حواضر الجنس البشري . بدلاً من ذلك ، غالباً ما تكونُ أماكن غريبة ، يسكنها أناسٌ غريبون ؛ أناس عنيدون وفخورون ، مثل أولئك الذين على ساحل ثعابين البحر السويدي ، والذين غالبًا ما ورثوا مهنتهم عن آبائهم وشكّلهم العمل الشاق والظروف البسيطة ؛ الذين جعلوا عملهم يصبح هويتهم ، ونتيجة لذلك استمروا ، مثل يوهانس شميدت ، في ارتياد المياه بقواربهم ، بحثًا عن ثعابين البحر حتى عندما يخبرهم المنطِقُ بأن لا يفعلوا . في كثير من الأحيان ، كان هؤلاء الناس ينطوون على نوع من مشاعر الشخص الخارجي ، ويتبنّون وموقفًا مرتاباً تجاه السلطات القائمة . كان صياد ثعابين البحر ، في أماكن أكثر من مجرد ساحل ثعابين البحر السويدي ، كائناً فريداً وحده .

يتم صيد ثعابين البحر الزجاجية في نهر أوريا في منطقة الباسك الإسبانية في الشتاء وأوائل الربيع . ويتموّج مجرى النهر ، الذي يصبُّ في خليج بسكاي ، عبر المشاهد الباسكية الجبلية ، وهو طريق معروف للثعابين الزجاجية الشفافة التي تسبح فيه ، بعد بضع سنوات من الانجراف عبر المحيط الأطلسي ، إلى أعالي الممرات المائية لتجد لها وطناً للسنوات العشر ، العشرين أو الثلاثين المقبلة . والكثير منها لا تذهب بعيداً ؛ بالقرب من المصب عند الساحل ، يقضي الصيادون الليالي الباردة المطيرةَ في قوارب خشبية ، وهم يغربلون الثعابين الهشة من الماء .

يقطن قرية أغويناغا الصغيرة ، الواقعة على ضفة النهر على

بعد بضعة أميال إلى الداخل ، ستمائة نسمة فقط ، لكن فيها ما لا يقل عن خمس شركات تقوم بصيد ثعابين البحر الزجاجية وبيعها . وهنا ، أيضًا ، المعرفة المهنية قديمة وموروثة . تأتي الثعابين الزجاجية مع المد في الليالي الباردة تحت قمر مكتمل أو هلال ، ويفضَّل عندما تكون السماء غائمةً قليلاً . تطفو بالقرب من السطح في أفواج ضخمة ، مثل كتلة متشابكة فضية هائلة من أعشاب البحر . وينزلق الصيادون ببطء ذهابًا وإيابًا في قواربهم ؛ الضوء المنسكب من الفوانيس في مقدمة مراكبهم ينعكس على البطانية الحية من الأسماك . ويلتقطون الثعابين الزجاجية باليد ، بشبكات مستديرة متصلة بقضبان طويلة .

لطالما اعتُبِر ثعبان البحر الزجاجي طعاماً شهياً في بلاد الباسك ، وما يزال يُعتبَر كذلك هناك فقط هذه الأيام . ومع ذلك ، فإن تقليد استهلاك ثعابين البحر وهي في هذه الحالة الضعيفة والشفافة ، كان واسع الانتشار تاريخياً . في المملكة المتحدة ، كانت ثعابين البحر الزجاجية تُصطادُ ذات مرة في نهر سيفرن . وكانت تُقلى كاملة وهي ما تزال حية مع شيءٍ من لحم الخنزير المقدد ، أو مع بيضة مخفوقة في نوع من العجة -ما تُسمى كعكة صغار الأنقليس . وفي إيطاليا ، كانوا يلتقطون ثعابين البحر الزجاجية في نهر أرنو في الغرب وحول كوماتشيو في الشرق . والطريقة المفضلة لتقديمها هناك هي غليُها في صلصة الطماطم مع رشة من جبنة البارميزان . وكان تناول الثعابين الزجاجية شائعًا أيضًا في بعض أجزاء فرنسا . لكنها أصحبت هذه الأيام تقليداً مُحتضَراً . ومع انخفاض عدد ثعابين البحر الزجاجية التي تتجول في أنهار أوروبا ، توقفت أيضًا صناعة صيد الأسماك

التي بنيت حولها . وفي الحقيقة ، ثمة الباسكيون فقط هم الذين يرفضون الاستسلام ويواصِلون بعناد .

هناك ، بالطبع ، أسباب منطقية لذلك . والأول على القائمة هي المخاوف المالية . لقد تم صيد ثعابين البحر الزجاجية هنا لفترة طويلة . ويقال إنها كانت تنجرف على طول بلدة أوريا بكميات كبيرة بحيث يستطيع المزارعون التقاطها من الضفاف بشباك مليئة ويطعمونها لخنازيرهم . لكن ندرتها ، والتهديد المتزايد لوجودها ، هو ما جعل ثعابين البحر الزجاجية في نهاية المطاف طعامًا مطلوباً وأكثر حصرية ، في انعطافة فريدة للمنطق البشري . وفي بلاد الباسك ، يأكلونها مقليّة في أجود أنواع زيت الزيتون مع القليل من الثوم والفلفل الحار . وتقدم ساخنة جداً في طبق خزفي صغير ، ويأكلها الآكِلون بشوكة خشبية خاصة لتجنب حرق شفاههم . وفي موسم الذروة ، يمكن أن يكلف طبقٌ صغير منها ، 250 غرامًا ، ستين أو سبعين دولارًا في أفخم المطاعم في سان سيباستيان .

لكن لصيادي ثعابين البحر في أغويناغا وأوريا أسبابًا أخرى لمواصلة تجارتهم . إنهم لا يريدون التوقف عنها ، ببساطة . لأنهم يشعرون بأن هذا حقهم ؛ لأن هذا هو بالضبط ما فعله أسلافهم من قبلهم ولأن هذه الطريقة الخاصة لصيد ثعابين البحر هي ، بعيداً عن كونها طريقة لكسب لقمة العيش ، ما يجعلهم ما هم عليه . كما أن المنطقة أيضاً معقل لجماعة الباسك الانفصالية «إيتا» . وقد اعتاد الناس هنا الاعتماد على الذات . وقد تعرّضوا ، على مدى أربعين عامًا ، للظلم والتهميش تحت حكم الديكتاتور الإسباني فرانسيسكو فرانكو ، ولذلك يظلون يقظين إزاء استيلاء

البيروقراطيين في مدريد أو بروكسل على السلطة في إقليمهم . هنا ، سوف يعود الصيادون إلى النهر بشباكهم وفوانيسهم مهما يكُن ما يقوله السياسيون والخبراء العلميون عن ذلك -إلى أن يرحلَ آخر صياد لثعابين البحر . أو آخر ثعبان بحر .

حول بحيرة لوخ نِس Lough Neagh في أيرلندا الشمالية ، اصطاد السكان المحليون ثعابين البحر لألفي سنة على الأقل ؛ وكثيراً ما توصف ثعابين البحر التي يتم صيدها هناك بأنها الأفضل في أوروبا . وتقع لوخ نِس في الركن الشمالي الشرقي من أيرلندا . وهي أكبر بحيرة في الجزر البريطانية ، وتقع غرب جبال مورن في مشهد طبيعي قاحل إلى حد ما ؛ ولأجزاء كبيرة من العام ، تتميز المنطقة بمناخ قاس لا يرحم ، وتظل عرضة للعواصف الشديدة . ولكن ، حتى مع ذلك ، يستمر الصيد هناك بقدر ما كان حاله على الدوام ؛ لأن هذا هو ما تعلم جيل وراء جيل أن يفعله ؛ لأن الموقع ، وثعابين البحر ، لم يسمحا بأي تنويع .

في لوخ نِس ، يتكون الصيد من ثعابين البحر الصفراء في المقام الأول ، والأداة المستخدمة هي خيوط الصيد . هناك ، تتدلى خيوط طويلة متعددة الخطافات بطُعم من الديدان من قوارب بسيطة . ويلقي صيادان في كل قارب أربعة خيوط بأربعمائة خطاف كلَّ يوم خلال موسم الذروة ؛ ألفاً وستمائة خطاف ينبغي وضع الطعم فيها يدويًا والتحقق منها عند انشقاق الفجر عندما يحوِّل البرد والضباب الأصابع إلى قضبان زجاجية متصلبة .

تقليدياً، كان الصيد يُشحن إلى لندن. وقد شكلت ثعابين البحر ردحاً طويلاً طعامًا شهيرًا شائعاً في العاصمة، يُباع في المتاجر الصغيرة وأكشاك السوق. وكانت تؤكل مقلية مع البطاطا المهروسة، أو كثعابين بحر هلامية ؛ حلقاتٍ مستديرة من شرائح ثعابين البحر المسلوقة في حساء يتحول إلى هُلام. وكانت تعتبر مكافأة يومية عالية القيمة بالنسبة لثمنها، والتي ارتبطت وثيقاً بالطبقة العاملة في «إيست إند». كانت ثعابين البحر دسمة وغنية بالبروتينات وأرخص بكثير من اللحوم، وهو السبب في أنه سعى إليها الفقراء وازدراها الأغنياء.

لكن ولع اللندنيين لم يكن السبب الوحيد في انتهاء ثعابين بحر لوخ نِس في لندن. كانت هناك أسباب سياسية أيضاً. عندما استعمر البريطانيون أجزاء كبيرة من أيرلندا في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإنهم لم يكتفوا بمصادرة أكثر الأراضي خصوبة، وإنما استولوا على الموارد الطبيعية القيمة أيضاً. في العام 1605، أُجبر السكان المحليون الأيرلنديون حول بحيرة لوخ نِس على التخلي عن حقوقهم في الصيد، ولأكثر من ثلاثمائة وخمسين عامًا، سيطر المستعمرون الإنجليز على الصيد هناك. وكان البروتستانت الأثرياء يقررون عدد الثعابين التي سيتم صيدها، وماذا سيحصل بشأنها، وكم يُدفع للصيادين مقابلها. وكان الصيادون، وهم غالباً من المزارعين الكاثوليك الذين أجبروا على ترك أراضيهم، مُضطرّين إلى العثور على طرق أخرى لكسب العيش، وكانوا فقراء لا حول لهم ولا قوة. وكان صيد ثعابين البحر بمثابة حلٍّ طوارئ للبقاء على قيد الحياة.

لعدة مئات من السنين، بقيت جميع حقوق الصيد في حوزة عُمدة شافتسبري، لكنها بيعت في منتصف القرن العشرين لتحالف

تجاري يسمى «الحلَقة» ، والذي تألف من حفنة من تجار ثعابين البحر الأثرياء في لندن . وسيطرت «الحلقة» على كلّ أنشطةِ صيد ثعبان البحر في لوخ نِس عندما التأمت مجموعة من الصيادين الكاثوليك معًا في العام 1965 لإنشاء جمعية صيادي لوخ نِس التعاونية ، وتمكنت التعاونية من جمع الأموال لشراء 20 في المائة من حقوق الصيد في البحيرة . وفي السنوات التي تلت ذلك ، تم تخصيص المزيد من الأموال وتم شراء ال 80 بالمائة المتبقية أيضًا . أما أن هذا حدث في نفس الوقت الذي اندلعت فيه المتاعب ، فلم يكن ذلك مصادفة ، بطبيعة الحال . فقد أدلى أعضاء «الحلقة» بشهادة تفيد بأنهم أُجبروا على بيع أسهمهم تحت التهديد بالعنف ؛ وشهدوا أيضًا بأن سفن الائتلاف تعرضت للهجوم . وقيل إن صيادي ثعابين البحر كانوا جميعاً ، حتى آخر رجل ، أعضاء في الجيش الجمهوري الايرلندي .

وهكذا ، أصبح ثعبان البحر متورطًا في الصراع العنيف في أيرلندا الشمالية ، الذي كانت له دائمًا علاقة بالطبقة والسلطة والمُلكية والثروة والفقر بقدر ما له بالدِّين . واليوم ، تسيطر الجمعية التعاونية للصيادين في لوخ نِس على الصيد هناك بنسبة 100 في المائة ، ولا ينسى أولئك الذين ما يزالون يصطادون ثعابين البحر أبداً من أين أتوا . وتدفعهم كبرياء عنيدة إلى الاستمرار في وضع الطعم في خطافاتهم وإلقاء خيطانهم في البحيرة ؛ لأن هذا ما تم القيام به دائماً هنا وهذه هي الكيفيات .

الآن ، كلُّ هذا سوف يختفي : التراث الثقافي والتقاليد ؛ الأطباق والمعالم الإقليمية ؛ سقائف ثعابين البحر والقوارب وأدوات الصيد ؛ المعرفة التي انتقلت وتواترت عبر الأجيال -وفي النهاية ، الذاكرة نفسها لكل هذه الأشياء .

أو ، هذا ما يُخشى منه على الأقل ، على شواطئ لوخ نِس وفي أغويناغا الباسكية ، وعلى ساحل ثعابين البحر السويدي . لأنه ، مع تقلص أعداد ثعابين البحر ، تصبح الدعوات إلى حمايتها أقوى . وقد أصبح صيد ثعابين البحر الزجاجية محظوراً بالفعل في أجزاء كثيرة من القارة . ويعمل العلماء والسياسيون من أجل فرض حظر كامل على صيدها عبر كل أوروبا .

يقول الصيادون : فليكُن . ولكن تذكروا أنكم لا تسلبوننا بهذا سبل عيشنا فقط ؛ ثمة التقاليد ، والمعرفة ، وتراث ثقافي قديم قيّم ، والتي سوف تُفقَد حتماً هي أيضاً . وأكثر من ذلك ، يزعمون أن علاقة البشرية مع ثعابين البحر أصبحت على المحك ؛ إذا لم يعد بمقدور الناس صيد ثعابين البحر -التقاطُها وقتلها وأكلها- فإنهم سيفقدون الاهتمام بها . وإذا لم يكن الناس مهتمين بثعابين البحر ، فإنها ستُفقد على أي حال .

هذا هو السبب في أن الجمعية التعاونية لصيادي السمك في لوخ نِس تعمل الآن بجد لإنقاذ ثعابين البحر بقدر ما تهتم بصيدها . ومن بين أمور أخرى ، تدير الجمعية مشروعًا شاملاً ومكلفًا لشراء ثعابين البحر الزجاجية وإطلاقها في البحيرة . كما نظم صيادو ثعابين البحر على ساحل ثعابين البحر السويدي أنفسهم ، وهم يعملون على زيادة الوعي بمحنة ثعابين البحر أيضًا . وقد أسسوا

شيئًا يسمى «مؤسسة ثعبان البحر» ، والتي تعمل ، تمامًا مثل الصيادين في مجتمع لوخ نِس ، على إطلاق ثعابين البحر في الماء من أجل تعزيز المخزون . وفي عام 2012 ، تم تأسيس «جمعية التراث الثقافي لساحل ثعبان البحر» ، بهدف إعلان صيد ثعابين البحر وتقاليدها في السويد تراثًا ثقافيًا روحياً .

وكتبت الجمعية على موقعها على الإنترنت : «سوف يعني فرض حظر كامل على صيد ثعابين البحر أن تصبحَ ثقافة حية وصناعة محلية وتراثاً فريداً للطهي تاريخًا . سيتم تحويل سقائف ثعابين البحر على طول الساحل إلى منازل صيفية للأثرياء . سوف تصمت القصص . وسوف يُفقد الاهتمام بثعابين البحر ، وبذلك سوفَ تُفقَد ثعابين البحر نفسها ، أيضاً» .

هذه هي المفارقة الكبيرة التي أصبحت أيضًا جزءًا من سؤال ثعبان البحر في عصرنا : من أجل فهم ثعبان البحر ، يجب أن يكون لدينا اهتمام به ؛ وحتى يكون لدينا اهتمام به ، يجب أن نواصل صيده وقتله وأكله (على الأقل وفقًا لرؤية بعض الأشخاص الذين هم ، بعد كل شيء ، أقرب من المعظم إلى ثعابين البحر) . لم يعُد يُسمح لثعبان البحر بأن يكون ثعبان بحر ، ببساطة . ليس مسموحاً له أبداً أن يكون ما هو فحسب . وهكذا ، أصبح ثعبان البحر أيضًا رمزًا لعلاقتنا المعقدة بجميع أشكال الحياة الأخرى على هذا الكوكب .

خداع ثعبان البحر

ذات صيف جربنا «كلوما» klumma ؛ وهي طريقة قديمة للصيد تُستخدم في جداول ريف سْكونه بجنوب السويد . وهي ، بكل المقاييس ، نشاط ينتمي إلى عالَم مختلف ، حيث أن الطريقة نفسها مجنونة للغاية ومن الصعب تخيل كيف يمكن لأي شخص أن يخترع مثلها اليوم . ولكن ، في مكان ما ، في مرحلة ما ، ابتكرها شخص ما ، واكتشف أيضًا ، برغم كل الصعاب والتناقضات ، أنها لم تعمل فحسب ، وإنما كانت فعالة للغاية . وبطريقة ما ، انتشرت هذه المعرفة بعد ذلك في أنماط لا يمكن تمييزها ولا تفسيرها ، لتصل أخيرًا إلى أبي ، الذي نقلها بدوره إليّ ، كما لو أنها الشيء الأكثر طبيعية في العالم .

وهو ما لا تمثله بأي حال من الأحوال . عندما تصطاد ثعابين البحر بطريقة كلوما ، فإنك تقوم بربط إبرة بقطعة طويلة من خيط حياكة قوي وتمسكها بيد ، وتحمل دودة في اليد الأخرى . وتقوم بتمرير الإبرة من خلال الدودة ، وتسحب الخيط كل الطريق وتكرر ذلك حتى تكون لديك عدة أقدام من الديدان ، والتي تُدحرجُها بعدَ ذلك لتصبحَ كرة من الوحل والرائحة النتنة والإفرازات والأجسام المتلوية . ثم تقوم بتثبيت غطّاس وخيط بكرة الديدان ، وإنما بلا خطاف .

وتصطادُ في الليل ، ويفضل أن يكون من قارب . وتُرمى كرة الديدان

في الماء وتُترك لتستقر في على قاع الجدول ، بينما تمسك الخيط المشدود برفق . وعندما يجد ثعبان البحر الكرة ويعضها ، يجب أن تستجيب بسحب فوري . وإذا كنت ماهرًا بما فيه الكفاية ، وبما أن أسنان ثعبان البحر الصغيرة والمنحنية قليلاً تجعله يتشبث بالخيط بطريقة شرسة بعض الشيء ، يمكنك سحب ثعبان البحر إلى قاربك بحركة واحدة سريعة وسلسة . نظرياً ، على الأقل .

لم يحاول أبي ذلك أبداً من قبل ؛ حتى أنه لم ير أي شخص يفعله . لكننا أدركنا أن الأمر سيتطلب أولاً وقبل كل شيء عددًا كبيرًا جدًا من الديدان . وكانت لدى أبي فكرة عن كيفية العثور عليها . طلب مني أن أسقي العشب بينما أمسك هو بمذراة ، وقطع قطعة من سلك كهربائي ، ووصل أحد الأسلاك المكشوفة بأشواكها ، ودفع المذراة في الأرض .

«من الأفضل أن تتراجع الآن» . قال . «والبَس أحذيتك البلاستيكية أيضاً» .

وقفتُ على الدرجات الأمامية في حذائي البلاستيكي ، وقد تسارع نبضي ، أشاهده وهو يضع السلك في القابس ليمر مئتان وعشرين فولت من خلاله ، إلى المذراة ، ومنها إلى التربة الرطبة . في البداية ، لم يحدث شيء ، لا صوت ولا حركة . ثم بدأت الديدان بالظهور من الأرض ، المئات منها مغطاة بالوحل وتتلوى في يأس . بدا العشب بأكمله وكأنه كائن حي كبير .

بمجرد أن فصل أبي التيار ، تجولنا ونحن نلتقط طُعمنا . وتطلب الأمر عشر دقائق فقط لملء وعاء كبير .

عندما هبط الليل، كنا في زورقنا الخشبي، ممسكين بالخيط بينما تدلّت كرة الديدان الدوارة في الماء تحتنا، وتساءلتُ عن الفكرة. ما الفائدة من طريقة الصيد هذه؟ بطبيعة الحال، قد يجد شخص معنى حيث لا يمكن لشخص آخر حتى أن يدرك المنطق، ولكن، ألا يجب أن يكون المعنى جزءًا من سياق؟ ألا ينبغي أن يُفهم هذا السياق على أنه أكبر من ذات المرء على الأقل؟ بعد كل شيء، يحتاج الناس أن يكونوا جزءًا من شيء دائم مقيم؛ أن يشعروا بأنهم جزء من خط بدأ قبلهم وسوف يستمر بعد رحيلهم. إنهم يحتاجون إلى أن يكونوا جزءًا من شيء أكبر.

بطبيعة الحال، يمكن أن تكون المعرفة هي السياق الأكبر. كلُّ أنواع المعرفة عن المِهن والأعمال أو طرق الصيد المجنونة القديمة. يمكن أن تشكل المعرفة، بحد ذاتها، سياقًا، وبمجرد أن تصبحَ أنت حلقةً في سلسلة الانتقال، من شخص إلى آخر، من وقت لآخر، تصبحُ المعرفة معنىً في حد ذاتها، منفصلة تماماً عن اعتبارات المنفعة أو الربح. إنها تكون في صميم كل شيء. وعندما تتحدث عن التجربة الإنسانية، فإنك لا تتحدث عن التجربة الفردية؛ إنك تتحدث عن تجربتنا الجمعية التي يتم تمريرها، وإعادة سردها، وتجربتها مرة أخرى وأخرى.

ولكن، في هذه المعرفة بالذات -كيفية ربط الديدان على الخيط لمحاولة خداع ثعبان البحر- هل تبقّى أي معنى لذلك الآن؟ في هذه التجربة بالذات -الجلوس بصمت في قارب في الليل، مع كرة من الديدان التي تموت ببطء على خيط تحتك- هل ثمة أي إنسانية تبقت في ذلك؟

قبل طويل وقت ، خيّمت الظلمة تمامًا وجلسنا ساكنَين كالأموات . كان الصوت الوحيد الذي يشق هدأة الليل هو جريان الماء اللطيف من حولنا ؛ من وقت لآخر ، كنا نرفع أيدينا ، نسحب كرة الديدان من القاع بشدّة ناعمة ، كما لو لنسمح لأي شيء ربما يتحرك في الأسفل بأن يعلم بأننا هناك .

وسرعان ما ردّ ذلك الشيء الجميل . شدّة قصيرة مميزة بدَت مثل صفعة مفاجئة في راحتي .

رفعت يدي بشكل غريزي مباشرة في الهواء ورأيت كرة الديدان ترتفع نحو السطح وفي أعقابها ، ثعبان بحر كبير ، ينزلق بلهفة إلى هنا وإلى هناك كما لو أنه يسبح بشكل محموم نحوي بدلاً من محاولة الهروب . أخرجته من الماء وفوق حاجز القارب ، ثم أصبح هناك ، مستلقيًا عند أقدامنا ، محركاً رأسه مثل السوط من جانب إلى آخر ، مثل تذكير مفاجئ بعواقب أفعالي .

انتهى الأمر في ثوان ، ثم بدأ مرة أخرى . اصطدنا اثني عشر ثعبان بحر في تلك الليلة . وفي ليلة أخرى بعد بضعة أيام ، التقطنا خمسة عشر . استمرت الأسماك في عض الطُعم ، وواصلنا نحن سحبها إلى القارب ، مثلما يُسحب الجزر من حقل الخضار . بدا كما لو أن هناك مصدراً لا ينضبُ من ثعابين البحر ، والذي انفتح لنا فجأة فقط ؛ كان ذلك ، إذا لم يكن ذا معنى ، فمفهوماً على الأقل ؛ الطريقة ، المعرفة ، كانت عاملة وفعالة على ما يبدو . لقد وجدنا طريقة للتغلب في الذكاء على ثعابين البحر ، والتي كانت في مستوى مختلف عن أي طريقة أخرى جربناها من قبلُ على الإطلاق .

ومع ذلك ، لم نصطد أبداً بطريقة «كلوما» مرة أخرى بعد هاتيك الليلتين . وأعتقد أن للأمر علاقة بالصور التي استحضرها ذلك : ثعبان البحر البني المصفر ، اللامع ، وهو ينزلق عبر الرواسب في الظلام ، ويعض كتلة مرتجفة من الديدان المحتضرة ، ويسمح بأن يتم إخراجه من الماء ، من دون خطاف ولا نضال ، كما لو أنه استسلم ؛ كما لو أنه يحاول الهروب من شيء ما في الأعماق . لم يتوافق ذلك مع ما أردنا لثعبان البحر أن يكون . لم يتصرف ثعبان البحر كما توقعنا أن يفعل . ربما اقتربنا منه كثيرًا .

مكتبة
t.me/t_pdf

ثعبان البحر الغامض

في 11 نوفمبر 1620 ، ألقت السفينة «ماي فلاور» مرساتها قبالة «كيب كود» في الجزء الجنوبي الشرقي من ماساتشوستس الحالية . وقبل أكثر قليلاً من شهرين فحسب ، كانت السفينة قد غادرت إنجلترا مع 102 راكب وحوالي 30 من أفراد الطاقم . وكان الركاب في الغالب من المتطهرين البيوريتان ، أعضاء الكنيسة البروتستانتية الصارمة التي بشرت بنسخة متزمتة زاهدة من المسيحية . وقد غادروا إنجلترا هرباً من الفقر والاضطهاد الديني معاً ، أولاً إلى منفى مؤقت في هولندا ، ثم غرباً للبدء مجدّداً في العالم الجديد . لم يغادروا لأنهم أملوا في العثور على الحرية والازدهار في هذه الأرض الجديدة فحسب ، وإنما لأنهم اعتقدوا أن تلك إرادة الله أيضاً . وبدلاً من أن يروا نفسهم لاجئين ، اعتقدوا أنهم مختارون من الله ؛ بأن الله اختارهم حتى يخلِّصهم ؛ بأنهم اختيروا لنشر العقيدة الصحيحة الوحيدة في العالم ، باسمه .

لكنّ الخلاص ، كما يحدث في كثير من الأحيان في القصص المسيحية ، لن يأتي ، بطبيعة الحال ، إلا بعد سلسلة من المحاولات . وعندما جاء أخيرًا ، وصل في شكل غير متوقع .

كان فصل الشتاء قد حل مسبقاً عندما وصلت «ماي فلاور» إلى ساحل أمريكا الشمالية . وكانت اليابسة باردة ومقفرة . واضطر معظم الركاب إلى البقاء على متن السفينة لعدة شهور قبل أن

يتمكنوا من النزول . وكانت المجموعة الاستكشافية الصغيرة التي جذّفت إلى الشاطئ في اليوم الأول للاستطلاع سيئة التوقيت . وقد تجمد العديد من أفرادها حتى الموت عندما خيموا لقضاء الليلة على الشاطئ الجليدي . وقوبل الناجون بالتهليل لاكتشافهم مقبرة وبعض المخازن الشتوية للحبوب ، والتي بدت مهجورة . لكنهم وجدوا أنفسهم بعد أن نهبوا المخازنَ تحت مطاردة السكان الأصليين الذين سرقوا طعامهم . وذات ليلة ، هاجمهم المحاربون بالأقواس والسهام وأفلتوا بفارق ضئيل وبشق الأنفس .

وسرعان ما اندلع السل والالتهاب الرئوي والإسقربوط على متن السفينة . كان الطعام شحيحًا والمياه قذرة . وعندما وصل الربيع أخيرًا ، كان 53 راكبًا فقط من أصل 102 ما يزالون على قيد الحياة . كما توفي نصف أفراد الطاقم أيضًا .

ولم يكن قبل مارس حين تمكن المستعمِرون الناجون من مغادرة السفينة في النهاية ، وهم ما يزالون مصممين على متابعة خطتهم وتحقيق إرادة الله . كانوا جائعين ومتجمدين ولم يكن لديهم الكثير من الممتلكات ، سوى قناعتهم بأن الله يقف إلى جانبهم . لم يكونوا يعرفون أين يجب أن يبدأوا بناء مستعمرتهم أو كيف يمكنهم صنع السلام مع السكان الأصليين . كما أنهم لم يعرفوا أين يصطادون ، وأي النباتات تصلح للأكل أو كيفية العثور على مياه صالحة للشرب . ربما تكون الأرض الموعودة مضيافة -وإنما فقط لأولئك الذين يفهمونها ، بوضوح .

كان ذلك حين التقوا بتسكوانتوم . وكفرد من قبيلة باتوكسيت ، كان الإنجليز قد اعتقلوه قبل سنوات ، وقاموا بنقله إلى إسبانيا

وبيعه كعبد قبل أن يتمكن من الهرب إلى إنجلترا ، حيث تعلم اللغة . وفي النهاية ، استقل سفينة إلى أمريكا الشمالية ، ليكتشف فقط أن قبيلته مُسحت عن بكرة أبيها بسبب وباء جلبه الإنجليز معهم على الأرجح .

لم يكن هناك أي منطق واضح لأفعاله ، ولا يمكن دائمًا تفسير دوافع المرء بقصته الخلفية ، لكن تيسكوانتوم ، بكل شيء أمكنت رؤيته ، أنقذ المستعمِرين الإنجليز المحاصرين بالخطر . كان من أول الأشياء التي فعلها هو إهداؤهم ملء ذراعين من ثعابين البحر . بعد لقائهم الأول ، ذهب تيسكوانتوم إلى النهر ، وفي الليل ، عاد إلينا بالكثير من ثعابين البحر بالقدر الذي استطاع أن يحمله بيد واحدة ، والتي سعِد بها جماعتنا» ، كما لاحظ أحد الحُجاج في مذكرات أرسلها لاحقا إلى إنجلترا . «كانت سمينة ولطيفة ، داسها بقدميه ، ثم أمسك بها بيديه من دون أي أداة أخرى» . كانت تلك هبة من الله في ساعة حاجتهم ؛ ذلك الخلاص الذي لم يتوقفوا عن الصلاة لأجله .

بعد فترة وجيزة ، كان تيسكوانتوم يُعلِّم الحجاج كيفية اصطياد ثعابين البحر وأين يعثرون عليها . كما أعطاهم الذُّرة وعلمهم كيفية زراعتها ؛ وأراهم أين يمكنهم العثور على الخضار والفواكه البرية ونصحهم حول كيف وأين يصطادون . وعلى الأقل ، ساعدهم في التواصل مع السكان المحليين وكان مفتاحًا للتفاوض على اتفاقية السلام التي كانت محورية لمستقبل الإنجليز الضائعين في أمريكا .

وهكذا ، نجا الحجاج ، وأصبحوا ، مع الوقت ، أساطير في أسطورة الخلق الأمريكية . وكان وصول «ماي فلاور» حدثًا رمزيًا صنع حقبة

تاريخية في التاريخ الأمريكي منذ ذلك الحين ، وأضفى الأسطورية والرومانسية على سياقات وطنية لا حصر لعددها .

في نوفمبر 1621 ، بعد عام من وصولهم وحول التاريخ الذي أُطلق عليه منذ ذلك الحين ، وبسبب نجاة الحجاج ، عيد الشكر ، كتبوا في مذكراتهم عن الأرض الرائعة المدهشة التي عثروا عليها . كتبوا عن النعمة التي وهُبت لهم بعد كل محنهم وشكروا الرب على جميع الأشجار والنباتات والفاكهة التي تحيط بهم ، وعلى الحيوانات والأسماك والتربة الخصبة ، وبالطبع على ثعابين البحر التي اصطادوها «بلا عناء» من النهر بكميات كبيرة كل ليلة .

كان من المنطقي تمامًا أن يصبح ثعبان البحر شخصية مهمة في الأساطير الأمريكية ؛ رمزًا سمينًا لامعًا للأرض الموعودة ، والهدية التي ختمت ما كان مقدراً سلفاً . لكن ذلك لم يحدث . ربما لأن طبيعة ثعبان البحر لا تصلح جيداً للرمزية الرصينة . ربما لأنه سرعان ما أصبح مرتبطًا بعادات الأكل البسيط للفقراء أكثر من ارتباطه بأيام العيد . وربما أيضًا لأن الهبة جاءت من رجل من السكان الأصليين .

لسبب ما ، تم محو هذه الهبة الإلهية للحجاج الأوائل من السرد الكبير . وقد امتلأت قصة استعمار أمريكا الشمالية بالخرافات والأساطير ، لكن قصة ثعبان البحر ليست واحدة منها . في عيد الشكر ، يأكل الأمريكيون الديك الرومي ، وليس ثعابين البحر ، وكانت الحيوانات الأخرى –الجواميس ، والنسور ، والخيول– هي التي حملت الوزن الرمزي للرواية الوطنية للولايات المتحدة الأمريكية . صحيح أن المستعمرين استمروا في صيد ثعابين البحر

وأكلها ، وبحلول نهاية القرن التاسع عشر ، كانت ثعابين البحر ما تزال تشكل مكونًا مهمًا في المطبخ الأمريكي . لكنها اختفت تدريجياً من موائد العشاء . وبعد الحرب العالمية الثانية ، أصبحت سمعة ثعابين البحر في حالة يرثى لها . وبحلول نهاية التسعينات ، توقف صيد ثعبان البحر بشكل شبه كامل على طول الساحل الشرقي . واليوم ، يعتقد العديد من الأمريكيين أن ثعبان البحر هو سمكة مزعجة وغير شهية إلى حد ما ، والتي يريدون أن تكون علاقتهم بها في أدنى الحدود . في بعض الأحيان ، حتى هبات الله تكون مقبولة على مضض فقط .

هذه المواقف المتناقضة الخالية من اليقين تجاه ثعابين البحر لم تكن مقتصرة ، بطبيعة الحال ، على وصول «ماي فلاور» إلى أمريكا الشمالية . على مر التاريخ ، أثارت ثعابين البحر مشاعر غامضة في الناس الذين التقوا بها ؛ التقديس في بعض الأحيان ، وإنما عدم ارتياح حتمي ؛ الفضول ، وإنما الرفض أيضاً .

في مصر القديمة ، كان ثعبان البحر شيطاناً عظيماً ، نظيراً للآلهة وطعاماً ممنوعاً ؛ مخلوقاً يتحرك بلا عناء تحت سطح النيل المتلألئ ، وينزلق عبر رواسب الوجود نفسه . وعثر علماء الآثار على ثعابين بحر محنطة في توابيت صغيرة مستلقية للراحة الأبدية بجوار التماثيل البرونزية للآلهة .

من المؤكد أن العديد من الحيوانات رمزت إلى الألوهية في مصر القديمة . وغالباً ما تم تصوير إله الشمس ، رع ، برأس صقر . وكان

لإله العالم السفلي ، أنوبيس ، رأس ابن آوى . وأعطي تحوت ، إله الحكمة ، رأس طائر «أبو منجل» . وكان لإلهة الحب ، باستيت ، جسد امرأة ورأس قطة . وقد مثل كل حيوان خصائص مختلفة بطبيعة الحال ، لكنَّ عدم وضوح الخط الفاصل بين الإنسان والحيوان كان علامة على الألوهية في حد ذاته . كان أتوم ، والد جميع الآلهة والفراعنة الآخرين في مصر القديمة ، هو الإله المرتبط بثعبان البحر أيضاً . وفي إحدى الصور ، يمتلك أتوم رأسًا بشريًا ولحية مدببة وتاجًا يدل على مكانته الإلهية ، وخلف درع كوبرا مُرعب عريض ، كان جسده عبارة عن ثعبان بحر طويل نحيل مكتمل بزعانف حقيقية . ويرمز جسم الإنسان وجسم ثعبان البحر معًا إلى نوع من الكمال ، واتحاد القوى الإيجابية والسلبية .

وفي روما القديمة ، انقسم الرأي أيضًا عندما تعلق الأمر بثعبان البحر . رفض البعض ، مثلهم مثل المصريين ، أكل ثعبان البحر ، ليس لأنه مقدس وإنما لأنه اعتُبِر نجسًا وبغيضًا . ربما لأن الثعابين غالبًا ما يتم صيدها بالقرب من منافذ الصرف الصحي . وربما لأنه تم استخدام جلود ثعبان البحر المجفف لصنع نوع من الأحزمة لتأديب الأولاد العصاة .

ويبدو أن العديد من الرومان فضلوا أسماك السلور أو الموراي ، التي لها صلة بثعبان البحر –ولكن مهما تكن الأنواع ، كان ثعبان البحر مرتبطًا في كثير من الأحيان بشيء مظلم ومخيف . ويصف كل من بليني الأكبر وسينيكا الأصغر كيف اعتاد القائد العسكري الروماني ، فيديوس بوليو Vedius Pollio ، وهو صديق للإمبراطور أغسطس ، معاقبة العبيد بإلقائهم في بركة مليئة بثعابين البحر .

وكانت الأسماك المتعطشة للدماء تأكل حتى الشبع ، ثم تُقدَّم لضيوف فيديوس بوليو كطعام دسم وفاخر .

إنه سمكة ، وإنما شيء آخر أيضاً ؛ سمكة تبدو مثل أفعى أو دودة أو وحش بحر منزلق . لطالما كان ثعبان البحر خاصًا . في التقاليد المسيحية على الأقل ، حيث شكلت الأسماك ، منذ البداية ، واحدة من أكثر الرموز مركزية ، تم النظر إلى ثعبان البحر كشيء منفصل .

ويقال إن المسيحيين الأوائل ، خلال القرن الأول بعد ولادة المسيح ، استخدموا الأسماك كعلامة سرية . وبما أن المسيحيين تعرضوا للاضطهاد في العديد من الأماكن ، كانت ثمة حاجة إلى مستوى من الحذر ، لذلك عندما التقى مؤمنان ، كان الواحِدُ يرسم خطًا مقوسًا على الأرض . وإذا رسم الآخر قوساً مشابهًا من الاتجاه الآخر ، شكلت الخطوط معًا سمكة منمقة ، وكان الاثنان يعلمان أنه يمكنهما الثقة ببعضهما البعض . ويمكن العثور على هذا الرمز في مقابر القديس كاليكستوس والقديسة بريسيلا في روما ، التي يعود تاريخها إلى القرون الأولى من التقويم الميلادي .

كانت الأسماك مهمة لعدة أسباب . قبل ولادة المسيحية بوقت طويل ، رمزت للحظ في ثقافة البحر الأبيض المتوسط . ومع مجيء يسوع ، أصبحت الأسماك أيضًا رمزًا للإحيائية والاعتراف . ويقول يسوع للرسل الأوائل ، سمعان وأندراوس ، في الإنجيل : «اتبعاني أجعلكما صيادي بشر» . ويُدعى الأشخاص المخلَّصون حديثًا

«اليرقات الصغيرة» ، وفي الإنجيل ، يشبّه يسوع دخول مملكة السماء بالصيد : «أيضًا يُشبه ملكوت السماوات شبكة مطروحة في البحر ، وجامعة من كل نوع . فلما امتلأت أصعدوها على الشاطئ ، وجلسوا وجمعوا الجياد إلى أوعِية ، وأما الأردياء فطروحها خارجًا . هكذا يكون في انقضاء العالم ، يخرج الملائكة ويَفرزون الأشرار من بين الأبرار» .

وتلعب الأسماك أيضًا دورًا معروفًا في قصص معجزات يسوع ، بما في ذلك معجزة الخبز والسمك ، عندما أطعمَ خمسة آلاف شخص بسمكتين وخمس أرغفة خبز . أو عندما يكشف يسوع بعد القيامة عن نفسه لرسله عند بحيرة طبريا ويزودهم بالسمك ليأكلوه ، مقنعًا إياهم بأنه هو حقًا . كما أن الكلمة اليونانية للأسماك ، ichthys ، تُقرأ منذ فترة طويلة على أنها الاختصار لعبارة Iesos Christos Theou Yios Soter «يسوع المسيح ، ابن الله ، المخلِّص .»

لكن هذا كله يتعلق بالأسماك ، وليس بثعابين البحر ، وتشير العديد من الأشياء إلى أن المسيحيين الأوائل يميزون بين الاثنين . فقد تم ادّخار جميع الأشياء الجيدة التي مثلتها الأسماك في التقاليد المسيحية لأنواع أخرى غير ثعابين البحر . لم يكن ثعبان البحر سمكة . كان شيئاً آخر . وحتى لو اعتُبر ثعبان البحر سمكة ، فإنه لم يكن سمكة مثل الأخريات . لم يكن يمتلك الخصائص المعتادة للأسماك . لم يكن يبدو مثل الأسماك أو يتصرف كما تفعل الأسماك عادة .

وسوف ترى هذا بوضوح إذا قرأت بين السطور في سفر اللاويين ، حيث يتم التعبير بوضوح عن آراء الله حول جميع المخلوقات المائية :

«وهذا تأكلونه من جميع ما في المياه . كل ما له زعانف وحرشف في المياه في البحار وفي الأنهار فإياه تأكلون . لكن كل ما ليس له زعانف وحرشف في البحار وفي الأنهار من كل دبيب في المياه ومن كل نفس حية في المياه فهو مكروه لكم . ومكروهاً يكون لكم . من لحمه لا تاكلوا وجثته تكرهون . كل ما ليس له زعانف وحرشف في المياه فهو مكروه لكم» .

ما يبدو أن الله يريد أن يقوله ، بافتراض تفسير اختيارات الكلمات والتكرارات بشكل صحيح ، هو أن الأسماك والحيوانات المائية الأخرى التي بلا زعانف وحراشف هي كائنات بغيضة لا ينبغي أن تؤكل ؛ وهي غريبة ، يجب أن يُنظر إليها بكراهية . وعلى الأقل في القراءة اليهودية لنوايا الله ، يعني هذا أن ثعبان البحر بغيض . إنه لا يعتبر طعاماً ، وبالتالي ليس لجسمه الأملس اللطيف مكان على مائدة العشاء اليهودية .

الآن ، يتبين أن هذا كله كان سوء فهم ، بالطبع ، يشبه نوعًا ما عندما يفرز سفر اللاويين الخفافيش مع الطيور . إن ثعبان البحر له زعانف وحراشف ، لكنها صعبة على التمييز فحسب ، خاصة من حيث مقاييسها الصغيرة جدًا والمغطاة بالطين الزلق بحيث لا تكون محسوسة عند اللمس . لكنه سوء فهم يظهر أنه عندما يتعلق الأمر بثعابين البحر ، فليس العِلم وثعبان البحر فقط يشكّان ، إنك لا تستطيع الوثوق بالله أيضاً ؛ أو بمفسري كلمات الله ، أو بالكلمات .

ولكن مهما يكن ، ظل ثعبان البحر مكروهاً ، إن لم يكن للجميع

فللكثيرين ، وإن لم يكن كغذاء أو تراث ثقافي ، فعلى الأقل كمجاز . وحتى في ما يتجاوز المغالطات وسوء الفهم الديني ، أصبح يُمثل ، في بعض الأحيان ، الشيءَ غير المرحب به ؛ كلٌّ ما هو غريب وغير سار لنا ؛ ما قد ينبغي السماح له بأن يوجد ، بعيدًا عن الأنظار ، وإنما الذي لا يجب السماح له بالوصول كثيراً إلى السطح .

في أحد أكثر المشاهد استقراراً في الذاكرة من أدب القرن العشرين ، يقف رجل على الشاطئ ، ويسحب حبلًا طويلًا يمتد إلى البحر . الحبل مغطى بالأعشاب البحرية الكثيفة . وهو يسحب ويقطُر ، ومن الموجات المزبدة يخرج رأس حصان أسود لامعاً ، ويستلقي هناك على حافة المياه . وتحدق عيناه الميتتان بينما تنسلُّ ثعابين بحر مائلة إلى الخُضرة خارجةً من كل ثقب فيه . تزحف ثعابين البحر ، لامعة وشبيهة بالأمعاء ، أكثر من دزينتين منها ؛ وبعد أن يزيحها جميعًا إلى داخل كيس بطاطا ، يَفتح فم الحصان المبتسم ، ويضع يديه في حلقه ، ويسحب ثعباني بحر آخرَين ، ثخينَين مثل ذراعيه نفسيهما .

وُصِفت طريقة الصيد الرهيبة هذه في رواية غونتر غراس Günter Grass الصادرة في عام 1959 ، «طبل الصفيح» The Tin Drum ونادراً ما كان ثعبان البحر بغيضاً أكثر مما هو فيها .

لا يظهر ثعبان البحر كثيراً في الأدب أو الفن ، ولكن عندما يظهر ، فغالبًا ما يكون مخلوقًا مقلقًا ومقززاً بعض الشيء . إنه نحيل وزلِق ، زيتي ولزج ، قمّام في الظلام يزحف بشبقٍ خارجاً من الجثث بفم فاغر وعيون خرزية سوداء .

مع ذلك ، في بعض الأحيان يكون الأمر أكثر من ذلك . في «طبل

الصفيح» ، يلعب ثعبان البحر في الواقع دوراً مهماً . إنه نذير بالمأساة ومحرِّض لها على حد سواء .

الأشخاص الواقفون على شاطئ بحر البلطيق ، يشاهدون الرجل وهو يسحب رأس الحصان من البحر ، هم الشخصيات الرئيسية في الرواية ، الصبي أوسكار ماتزيراث ؛ ووالده ألفريد ؛ ووالدته أغنيس ؛ وابن عمها وعشيقها جان برونسكي . وأغنيس حامل لكنها لم تخبر أحداً . ولا نعرف من هو الأب ، ألفريد أم جان ، ولا نعرف ما إذا كان ألفريد هو والد أوسكار حقًا . وأغنيس مكتئبة وعاكفة على تدمير ذاتها ، ويبدو أنها تنظر إلى الحياة التي تنمو داخلها كورم يلتهمها أكثر من كونه هبة . ويشكل ما يحدث داخلها لغزاً غامضاً ، لعائلتها والقارئ على حد سواء .

كان أربعتهم قد ذهبوا إلى الشاطئ للنزهة عندما صادفوا صياد ثعابين البحر . وتسأله أغنيس بفضول عما يفعله ، لكنه لا يرد . يبتسم فقط كاشفاً عن أسنان قذرة ، ويستمر في شد الحبل . وبمجرد أن يخرج رأس الحصان من الماء وترى أغنيس ثعابين البحر وهي تزحف خارجة من جمجمته ، يحدث لها شيء . تصيبها الثعابين بالصدمة والاشمئزاز ، جسدياً ونفسياً . وتضطر إلى الاتكاء على عشيقها جان لتجنّب الإغماء . النوارسُ تحلق فوقهم ، وتطير في دوائر لا تني تضيق ، زاعقةً مثل صفارات الإنذار ؛ وعندما يسحب الرجل المبتسم أسمن ثعباني بحر من حلق الحصان ، تستدير أغنيس وتتقيأ . ويبدو الأمر كما لو أنها تحاول طرد الغثيان الحاد والجنين غير المرغوب فيه من أحشائها معاً ؛ كما لو أن أحدهما مرتبط وثيقًا بالآخر . ولا تتعافى تماماً من تلك التجربة أبدًا .

في النهاية يقود جان أغنيس بعيداً أسفل الشاطئ . ويبقى أوسكار وألفريد في الخلف ، يشاهدان الرجل وهو يسحب آخر ثعبان بحر ضخم ، لزجًا مغشّى بمادة دماغية بيضاء تشبه العصيدة ، خارجاً من أذن الحصان . ولا تأكل ثعابين البحر رؤوس الخيول فقط ؛ إنها تأكل الأجساد البشرية أيضاً ، كما يشرح الرجل ، ويخبرهما بأن ثعابين البحر أصبحت سمينة بشكل خاص بعد معركة سكاجيراك أثناء الحرب العالمية الأولى . ويقف أوسكار محدّقاً ، مسمَّراً ، بينما يتدلى طبلُه الصفيحي الأبيض من حول رقبته ويستريح على بطنه . ويشعر ألفريد بالإثارة ويشترى على الفور أربعة ثعابين بحر من الرجل ، اثنين كبيرين واثنين متوسطين .

يغير ذلك الحدث على الشاطئ أغنيس . يوقظ مشهد ثعبان البحر المنزلق ورأس الحصان الغريب شيئًا فيها . وتصبح مريضة بشكل متزايد وتحاول إدارة حالتها بالطعام . تأكل باستمرار ، وتنغمس في اللهو وتتقيأ بالتناوب . ويكون ما تأكله هو السمك ، وثعابين البحر على وجه الخصوص . تلتهم قطع الثعابين الدهنية التي تسبح في صلصة الكريمة ، وعندما يرفض زوجها جلب المزيد من السمك ، تذهب إلى بائع السمك وتعود بملء ذراعٍ من ثعابين البحر المدخنة . تكشط الدهون عن الجلد بسكين وتلعقه وتتقيأ مرة أخرى . وعندما يسأل زوجها ، ألفريد ، بعصبية عما إذا كانت حاملاً ، تنخُر بسخرية فقط وتقدم لنفسها قطعة أخرى من ثعبان البحر .

تموت أغنيس بعد فترة وجيزة . ومن غير الواضح ما إذا كانت قد أطعمت نفسها حتى الموت ، أو ربما انكسر قلبها . وفي جنازتها ،

يدرسُ ابنها أوسكار وجهَها في النعش المفتوح . وجهُها شاحب تعلوه سيماءُ الألم . يتخيّلها وهي تجلس فجأة وتتقيأ مرة أخرى ، ويتخيل أن ثمة شيئاً ما يزال هناك في داخلها والذي يجب أن يخرج ، ليس مجرد طفل غير مرغوب فيه ، وإنما أيضًا ذلك الشيء الغريب والبغيض الذي التهمها وقتلَها في مثل هذا الوقت القصير ؛ ثعبان البحر .

«من ثعبان بحر إلى ثعبان بحر» ، يُفكّر أوسكار وهو يقف بجوار التابوت ، «من ثعبان بحر خلقت وإلى ثعبان بحر تعود» .

وعندما لا تقوم والدته ، لا تجلس ولا تتقيأ ، يشعر بالراحة والتخفُّف . «لقد أبقت عليه في داخلها ومن الواضح أنها تريد أن تأخذه معها إلى الأرض ، علَّه يجد السلام هناك في نهاية المطاف .»

وهي استعارة مدهشة ؛ ثعبان البحر كتجسيد للموت . أو بالأحرى ، ليس الموت فحسب ، وإنما نقيض الموت أيضاً . ثعبان البحر كنوع من الصلة الرمزية بين البداية والنهاية ؛ بين أصل الحياة وزوالها . من رماد إلى رماد ، من ثعبان بحر إلى ثعبان بحر .

في أواسط القرن العشرين ، عندما نُشرت رواية «طبل الصفيح» أول مرة ، كان العلم قد نبش معظم أسرار ثعبان البحر . كانت غلالة الغموض قد أزيحت عنه وأصبح مفهوماً . وقد استوعبت البشرية ببطء ، وإنما بثبات ، الإجابة عن سؤال ثعبان البحر . تم العثور على أصله وطريقة تكاثره . وكان التقدم بطيئًا مثل حلزون يزحفُ بجوار القطار السريع للتقدم العلمي الذي انطلق منذ عصر

النهضة ، لكن ثعبان البحر أصبح الآن في أغلبه مفهوماً . ولم يعد الأمر يقتصر على الإشارة إلى وجوده الذي لا يمكن إنكاره . لقد أصبحنا في وضع يمكّننا من مناقشة سمات هذا الوجود . ولم نعد نعرف أن ثعبان البحر كائنٌ فقط ، وإنما عرفنا أيضاً شيئاً من ماهيّة هذه الكينونة . لم يعُد علينا الاعتماد على الإيمان فحسب .

ومع ذلك ، استمرّ ربط ثعبان البحر بالجانب غير العقلاني للبشرية ؛ بالغرائبي المتمنّع على الإدراك في كل من الأدب والفن . ظلّ مخلوقًا لزِجاً ومخيفًا من مخلوقات الظلام ، يخرج منسلاً من الأعماق . ظل كائناً ليس كغيره .

في فيلم فريتيوف نيلسون بيراتِن Fritiof Nilsson Piraten السويدي الكلاسيكي «بومبي بيت وأنا» ، 1932 ، يكون ثعبان البحر شيطاناً ؛ وحشاً بقرونٍ نما حجمُه إلى أكثر من عشرة أقدام طولاً في سنوات لا تُحصى عاشها في الأعماق . في بركة نائية -ربما لا قعر لها- في سكانيا ، اختبأ بعيدًا عن عيون الناس ، إلى أن خرج أبطال القصة الرئيسيون ، إيلي وبومبي بيت ، مع العجوز فريكلُند ، للقبض عليه ذات ليلة . وتمكن فيركلُند من سحبه من البركة . وهو «مخلوق مظلم وحشي ، خفقَ الماء حتى جعلَه رغوة» -ثم تنشأ مصارعة جامحة معه . ينتصب ثعبان البحر مثل «عمود هاتف حيّ» . ويحدد ضوء القمر قرنيه الهائلين ؛ وينتهي الصراع فقط عندما يغرس فريكلُند أسنانه في جسد الثعبان الهائل .

«لقد عضضتُ ابن الزنا حتى الموت» ، يقول فريكلُند والدم ما يزال يقطر من فمه . لكنه انتصار مؤقت . سرعان ما ينبعثُ ثعبان البحر ؛ يعود إلى الحياة بتنهيدة كبيرة ، وينسلُّ منزلقاً خلال

العشب ، ويختفي في العالم السفلي عبر حفرة في الأرض عائداً بوضوح إلى المكان الذي جاء منه ؛ الظلال ، اللاوعي ، أدنى زوايا الروح وأكثرها حلكة .

في قصة الحب السريالية لبوريس فيان Boris Vian ، «زبد الأيام» ، من العام 1947 ، يكون ثعبان البحر مخلوقاً غريباً ينذر بمأساة وشيكة . يخرج من صنبور المطبخ في بداية القصة . كلّ يوم يُخرج رأسه من الصنبور وينظر حوله ويختفي مرة أخرى إلى أن يضع طباخ ماكر ذات يوم حبة أناناس على طاولة المطبخ . ويغرس ثعبان البحر ، عاجزاً عن مقاومة الإغراء ، أسنانه فيها . ويصنع الطباخ طبقاً لذيذاً من ثعبان البحر تأكله بطلة الرواية ، كولين ، وهي تفكر في حبيبها ، كلوي ، الذي التقته للتو ومن المقرر أن تتزوج منه . لكنها سرعان ما تمرض بشدة . تنبُتُ زنبقة ماء في صدرها ، وهو نبات مائي من عالم ثعبان البحر ، وتصبح مثل ورم عدواني يقتلها ويترك كولين وحيداً محطم القلب .

مع ذلك ، كان أعظم أداء لثعبان البحر ، في الأدب على الأقل ، في رواية «أرض الماء» 1983 ، للمؤلف الإنجليزي غراهام سويفت Graham Swift . وهي تحكي قصة توم كريك ، مدرس التاريخ الذي يحاول أسر خيال طلابه الضجِرين وذوي العقليات العلمية بسرد قصص عن نفسه وطفولته . وخلال ذلك ، يفحص ذاكرته غير الموثوقة محاولاً فهم السبب في انتهاء الأمور إلى ما انتهت إليه ؛ زواجَه من ماري وأنهما لم يُرزقا بأطفال ، وجنونَها الوليد . أين بدأ كل هذا؟ ربما بثعبان البحر الحي الذي ألصقه ولد آخر ببنطالها عندما كانت طفلة؟

أم أنه بدأ بأخيه ، ديك ، الذي تودد إلى ماري أيضاً عندما كانوا صغاراً وفاز في مسابقة للسباحة ليثير إعجابها فقط؟ مثل ثعبان بحر يشق طريقه إلى بحر سارغاسو ، سبح أبعد من أي أحدٍ آخر كي يصل إلى هدفه -الهدف الذي هو أيضًا هدف الوجود . ولكن ، لماذا فعل؟ وما الذي يعنيه ذلك حقاً؟

الحكاية غامضة يعوزها اليقين ؛ مَن يعرف حقاً ما هي الحقيقة؟ لكن ثعبان البحر فيها مطلق الوجود . من البداية إلى النهاية ينزلق عبر القصة كلِّها مثل تذكير دائم بكل شيء مخفيّ أو منسي .

في النهاية ، يخبر توم كريك طلابه عن ثعبان البحر نفسه . يحكي لهم عن سؤال ثعبان البحر وتاريخه العلمي بكل تخميناته وألغازه وسوء الفهم الذي خالطه ؛ عن أرسطو ونظرية ثعبان البحر الذي ينبثق من الطين ؛ عن لينيوس ، الذي اعتقد أن ثعبان البحر يتكاثر ذاتياً ؛ عن ثعبان بحر كوماشيو الشهير ؛ عن اكتشاف مونديني واستنطاق سبالانزاني ؛ عن يوهانس شميدت وبحثه الدؤوب عن مكان ميلاد ثعبان البحر ؛ وعن الفضول الذي دفع كل هؤلاء . ويجادل توم كريك بأن هذا هو ما يمكن أن يعلّمنا إياه ثعبان البحر . إنه يخبرنا شيئًا عن فضول البشرية ، وعن حاجتنا التي لا تُقهر إلى البحث عن الحقيقة وفهم من أين يأتي كل شيء وما يعنيه . ولكن أيضاً عن حاجتنا إلى الغموض . «الآن ثمة الكثير الذي يخبرنا به ثعبان البحر عن الفضول -أكثر في الحقيقة مما يمكن أن يخبرنا الفضول عن ثعبان البحر .»

ولكن لماذا يُعتبر ثعبان البحر كريهاً إلى هذا الحد؟ لماذا يثير هذه المشاعر فينا؟ بالتأكيد ليس السبب أنه زلق ونحيل ببساطة ، أو بسبب ما يأكله ، أو لأنه يحب الظلام؟ ولا يمكن أن يكون ذلك فقط بسبب سوء التفسير الديني . كلا ، ربما يكون ذلك أيضًا لأن ثعبان البحر كائنٌ سري ؛ لأنه يبدو أن هناك شيئًا مخفيًا خلف عينيه السوداوين اللتين تبدوان بلا حياة . من ناحية ، نحن رأيناه ، ولمسناه وتذوقناه . ومن ناحية أخرى ، يخفي هو شيئاً عنا . وحتى عندما نقترب منه حقًا ، فإنه يظل غريبًا بطريقة ما .

في علم النفس ، وفي الفن ، ثمة نوع معين من عدم الارتياح يُنسب إلى اللاعادية . في العام 1906 كتب الطبيب النفسي الألماني ، إرنست جنتش Ernst Jentsch ، مقالًا بعنوان «في علم نفس الخوارق» ، والذي يعرّف فيه مفهوم اللاعادي ، الغريب ، بأنه «الإحساس القاتم بعدم الأمان» الذي نحاول أن نتغلب عليه عندما نواجه شيئًا جديدًا وغريبًا . إن ما يخيفنا ، كما يشرح جنتش ، اللاعادي ، هو ذلك الشيء الذي يجعلنا محتارين فكرياً ؛ ما يمنعنا نقص الخبرة أو محدوديات حواسنا من التعرف إليه وتفسيره على الفور .

كان هذا تحليلًا تبسيطياً للغاية بالنسبة لسيغموند فرويد ، الذي كان بحلول ذلك الوقت قد ترك دراساته في ثعابين البحر وأصبح نجم التحليل النفسي . في العام 1919 ، نشر مقال «اللاعادي» ، في جزء منه كرد على تعريف إرنست جنتش لهذا المفهوم . واعترف فرويد أن جينتش كان محقًا عندما قال إن انعدام الشعور بالأمن يثير هذا الشعور بالغرابة . على سبيل المثال ، عند النظر إلى جثة

لا نكون متيقنين من كونها حية أو ميتة ، أو عندما نواجه الجنون في إنسان آخر ، أو نشهد نوبة صرع . ولكن ، ليس كل شيء جديد وغريب غير سار . إن الأمر يتطلب شيئًا آخر ، كما زعم فرويد . يجب إضافة عنصر آخر حتى يكون الوضع المعيَّن غريبًا . المطلوب هو اللامألوف . وبشكل أكثر تحديدًا ، فإن اللاعادي ، الغريب ، هو الشعور الفريد بعدم الراحة الذي نختبره عندما يتحول شيء نعتقد أننا نعرفه أو نفهمه إلى شيء آخر ؛ المألوف الذي يصبح فجأة غير مألوف ؛ شيء ، مخلوق ، شخص ، والذي لا يكون ما اعتقدناه في البداية : شكل شمعي جيد النحت . حيوان محشو . جثة متوردة الخدود .

تحول فرويد إلى اللغة لشرح فكرته . وكتب : «الكلمة الألمانية unheimlich ، هي بوضوح عكس كلمة heimlich ، التي تعني 'مألوف' ، 'محلّي' ، 'منتمٍ إلى الوطن' ؛ ونحن نميل إلى استنتاج أن ما هو 'غريب' و'لاعاديّ' مخيف على وجه التحديد لأنه غير معروف وغير مألوف» . لكن heimlich ، كما كتب ، هي أيضًا كلمة غامضة ، لأنها يمكن أن تشير إلى ما هو سري وخاص ؛ ما هو مخفيّ عن العالم . وتنطوي الكلمة على نقيضها الخاص . والأمر نفسه ينطبق بالطبع على ما هو غير عادي unheimlich ؛ إنه في نفس الوقت مألوف وغير مألوف .

بهذه الطريقة ، يقول فرويد ، يجب أن نفهم الإحساس الفريد بعدم الارتياح الذي يُدعى unheimlich . إنه يتغلب علينا عندما ينطوي ما نستطيع تمييزه على عنصر الغرابة ونصبح غير متأكدين من ماهيّة ننظر إليه حقًا وما الذي يعنيه . وبمقاله «اللاعادي» ،

جعل سيغموند فرويد الخوف أساساً في التحليل النفسي، والذي استخدمه المؤلفون والفنانون منذ ذلك الحين. وأود أن أعتقد أن ثعبان البحر لعب جزءًا صغيرًا في ذلك، على الأقل.

لأنه، بعد تأسيس الغموض اللغوي للمفهوم، يتحول فرويد إلى قصة إيرنست تيودور فيلهلم هوفمان E.T.A. Hoffmann القصيرة، «رجل الرمال»، لإيضاح كيفية التعبير عن هذا الشعور الفريد باللاعادية. وتحكي «رجل الرمال» قصة شاب يدعى ناثانيل، الذي يضطر أثناء زيارته لمدينة غريبة من أجل الدراسة إلى مواجهة ماضيه المكبوت، وبالتالي جنونه. عندما كان طفلاً، قيل لناثانيل أن مخلوقًا مرعبًا يسمى «رجل الرمال» يظهر إلى جانب أسرّة الأطفال في الليل ويسرق أعينهم.

ثم، كرجل راشد، يتصوّر أنه يصادف تجسيدًا لرجل الرمال في شكل رجل يبيع البارومترات والأدوات البصرية. وعندما يقع في حب امرأة غامضة اسمها أوليمبيا، يتضح أنها في الواقع إنسان آلي صنعَه بائع البارومترات وبروفيسور يدعى سبالانزاني. وعندما يدرك ناثانيل الحقيقة في نهاية المطاف، وينظر إلى جسد أوليمبيا الذي لا حياة فيه في منزل البروفيسور، وعينيها ملقاتين إلى جانبها على الأرض، يتغلب عليه الجنون ويحاول قتل سبالانزاني.

تتأرجح هذه القصة القصيرة بأكملها على حافة عدم اليقين. ويتغير المنظور السردي باستمرار، ولا يوجد شيء معروف حقًا؛ ربما تحدث الأشياء في العالم المادي، أو أنها تحدث فقط في عقل ناثانيل المعذب. وبالنسبة لفرويد، فإن المرأة التي تبيَّن أنها إنسان آلي، وكذلك سرقة العيون، هي رموز مركزية في قلب اللامألوف؛ إننا

أمام مثال لعدم اليقين بشأن ما إذا كان مخلوق ما حيًا أو ميتًا ، وإنما ثمة الخوف أيضًا من سرقة بصر المرء ؛ فقدانه القدرة على مراقبة العالم واختباره كما هو حقًا .

ولكن ، ربما كانت هناك عناصر أخرى في قصة هوفمان ، والتي وجدت صدى لدى فرويد . فالقصة تدور حول شاب ناطق بالألمانية يسافر إلى مدينة غريبة للدراسة . ولم تتم تسمية المدينة بتاتًا ، وإنما يقال أن كلا من البروفيسور سبالانزاني وبائع البارومترات يتحدثان الإيطالية . وعلاوة على ذلك ، لا يبيع بائع البارومترات البارومترات فحسب ، وإنما جميع أنواع الأدوات البصرية ، بما في ذلك الميكروسكوبات -الأداة التي يُفترض أنها تكشف الحقيقة للعقول العلمية . ويحدثُ أيضًا ، فيما قد يكون مصادفة ، وإنما مسلية ، أن البروفسيور الغامض سبالانزاني في «رجل الرمال» ، يتشارك اسمه مع العالم الشهير سبالانزاني ، الذي سافر في القرن الثامن عشر إلى كوماشيو للبحث عن حقيقة ثعبان البحر ، بلا طائل .

حتى ينهي الأطروحة بطريقة دالّة ، يروي فرويد في نهاية مقال «اللاعادي» واحدة من تجاربه الغريبة . يصف نزهة على الأقدام في «بلدة إقليمية في إيطاليا» ؛ في عصرٍ حار ومن دون أن يعرف بالضبط كيف ، ينتهي به المطاف إلى شارع ضيق حيث يرى في كل مكان ينظر رسوماً لنساء يحدقن من النوافذ . ويسير مبتعداً عن المكان ، فقط ليجد نفسه بعد فترة وقد عاد إليه نفسه . ويغادر مرة أخرى ، لكنه سرعان ما يكتشف أنه عاد إلى نفس الشارع للمرة الثالثة . ثلاث مرات جُلِب بلا وعي إلى نفس المكان بالضبط ، كما لو أنه

أُجبر على إعادة التجربة نفسها مرة وأخرى في مَنام .

ويجد ذلك شأناً غير مألوف ؛ التكرار اللاإرادي ، واختبار نفس السيناريو غير المرغوب فيه مرارًا وتكرارًا على نحو يشبه بشكل ما وقوفك في مختبر مظلم أسبوعًا بعد أسبوع ، تشرِّح سمكة بعد سمكة ، فقط لتعثر على شيء آخر غير الذي توقعتَه . «كنت سعيدًا بما يكفي للتخلي عن مسيرتي الاستكشافية والعودة مباشرة إلى الساحة التي كنتُ قد غادرتها قبل قليل .»

إنه ، وفق أغلب الاحتمالات ، يكتب عن تريستي . فقد وصف نزهات مشابهة للحلم في رسائله إلى إدوارد سيلبرشتاين خلال زيارته في العام 1876 ، عندما حاول عبثاً العثور على خصيتي ثعبان البحر ؛ نفس الأزقة الضيقة والنساء المرسومات اللواتي يشاهدنه من النوافذ . ويبدو أن ما تبادر إلى ذهنه عندما حاول فرويد نفسه التقاط الشعور الفريد بعدم الراحة وعدم اليقين الفكري كان أسابيعه المحبطة والغامضة التي قضاها في تريستي . وفي الحقيقة ، ليس من الصعب كثيراً التفكير في أن ثعبان البحر خطر في باله ، لأنه : ما الذي صاحب خبرة هذا الكائن عبر التاريخ -في الأدب والفن ، وكذلك في وجوده الخفي تحت السطح- إن لم يكن غير العادي واللامألوف؟ إن لم يكن unheimlich؟

أن تقتلَ حيواناً

أتذكر أبي بجوار النهر ، على خلفية من ضوء القمر القاتم وخرير الماء الناعم ، بينما نهضت عيدان القصب من الماء خلفه مثل هوائيات داكنة . وقفَ في قاع الضفة ، على حافة الماء ، ممسكًا بثعبان بحر . وكان صغيراً ، أصغر كثيراً من أن يُؤخذ إلى المنزل ويُؤكل حقاً . لكن الصغير ، كما يمكنُ أن تفعل ثعابين البحر ، ابتلع الخطاف تمامًا بحيث اختفى أسفل حنجرته . كان أبي يضغط على ثعبان البحر ، محاولًا إفلات الخطاف من حلقه ، لكنه ظل يتلوى حول ذراعه ، فوق معصمه الذي يلمع بالدبق اللزج ، ورفض الخطاف الخروج . وهسهس أبي بهدوء من بين الأسنان المكسورة : «أيها الوغد»!

بينما كنتُ أشاهد ، تصاعد قلق في داخلي . هذا الشيء اللعابي اللزج الكثيف يكاد يكون من المستحيل غسله ، ويتشبث بجلد ذراعه وملابسه مثل غراءٍ نتن . بدا وكأن عيون ثعبان البحر الصغير التي تشبه الأزرار ، تحدق في وجهي ولكنها لا تجيب أبداً على نظرتي . وتواصلت الحركات البطيئة ، والجسم الذي يتقوّس مثل عضلة مطوية ، متلوياً حول محوره حتى يشعَّ بطنه الأبيض في ضوء القمر .

ضغط أبي على ثعبان البحر وعصره أكثر ، وجذب الخيط وحاول أن يفتح فكيه ، لكن الحيوانَ عضَ بقوة وواصل التلوّي في قبضته ، مقاوِماً بخرَق . كان الدم يقطر من فم ثعبان البحر . وقال أبي العابس

للثعبان الصغير بلطف أكبر: «أفلِت بحقِّ الشيطان، أيها الوغد»! ربما كانت كلماته عدوانية، لكن نبرته تغيرت ببطء، وأصبحت لطيفة، ملتمِسة، بل وحتى متوسلة تقريباً. هز رأسه. «لا، هذا لا ينفع». أعطيته السكين؛ سكين الصيد الطويل الذي شُحذ نصله مرات كثيرة حتى أصبح نحيفًا مثل قصبة، وجلس القرفصاء، وثبّت ثعبان البحر على الأرض، ودفع رأس السكين بقوة في رأسه.

أحبَّ أبي الحيوانات كثيراً؛ جميع أنواع الحيوانات. وأحبَّ أن يتواجدَ في حضن الطبيعة، بجانب النهير أو في الغابة؛ كان يقرأ كتباً عن الحيوانات ويشاهد برامج الطبيعة على شاشة التلفاز؛ كان يحب الخيول والكلاب، وجعلته رؤية حيوان بري غير مألوف يتحمس للغاية. وفي بعض الأحيان، كنا نذهب لمشاهدة الطيور؛ هو وأنا فقط، مع منظار مكبّر بيننا. وكنا نتجول في الأنحاء بلا هدف، ونمرِّر المنظار ذهابًا وإيابًا كلما رصدنا حدأةً أو نقار خشب. ولم نحتفظ بسجل للأنواع التي رأيناها، لم تكن لنا عنايةٌ بذلك على الإطلاق. لقد أحببنا النظر إلى الطيور فحسب.

كان مفتونًا بكل الأشكال الغريبة والرائعة التي تتخذها الحياة. أخبرني عن الخفافيش في الأسفل عند النهر، وكيف أنها تحلق باستخدام السونار. «إنهم لا يستطيعون رؤية شيء، بالكاد أبعد من أنوفهم، لكنهم يُطلقونَ تلك الزعقات عالية النبرة التي لا يمكننا حتى سماعها، ثم يستمعون إلى الصدى؛ عندما يعود مرتدًا، يعرفون على الفور ما إذا كانت هناك بعوضة أو جذع شجرة أمامهم. يستغرق ذلك جزءًا من الثانية».

في بعض الأحيان كنا نسمع خشخشة في العشب الطويل

المبلل ، ونرى أفعى عشب خائفة تنزلق إلى النهر وتسبح مبتعدة ، وتبدو البقع الصفراء على رأسها مثل مصابيح مضيئة . وفي بعض الأحيان ، رصدنا طائر مالك الحزين واقفاً على الضفة المقابلة ، عنقه محنيّ مثل خطاف صيد ، ومنقاره العملاق موجّه نحو أي شيء ربما يكون مختبئًا تحت السطح .

أخبرني أبي عن حيوان المِنك الذي يعيش بجانب النهر . وهو مخلوق صغير ، نحيف ، أسود بالكامل تقريبًا ، يزحف على طول حافة الماء في الليل . على الأقل هذا ما قاله . ولم أر هذا الحيوان أبداً ولم أكن متأكدًا من أن أبي قد فعل أيضاً . ولكن ، في بعض الأحيان كنا نجد أسماكاً نصف مأكولة في العشب . «يجب أن يكون المِنك» ، كان أبي يتطوع بالتفسير .

قال أنها حيوانات جميلة ، ولكنها أيضًا ماكرة وخطيرة ، ربما ليس علينا وإنما على النهر وعلى السبب في زيارتنا له -الأسماك وثعابين البحر . قال لي : «إنها تقتل من أجل الرياضة» . قال أن المِنك يستهدف الفئران والضفادع والأسماك ، قطعاً ، وأنه لا يتوقف حتى يقتل كل شيء في طريقه . كل مرة يصادف فيها شكلاً آخر من أشكال الحياة ، يرى أن واجبه هو أن يقتله على الفور . ذلك شيء في طبيعته . وهو دخيل متطفل ، ليس على نهرنا فحسب ، وإنما على النظام البيئي نفسه . وسوف يتمكن من إفراغ النهير من ثعابين البحر بمفرده إلى حد كبير . ولذلك ، وقع على كاهلنا عبء تصويب الأمور .

وهكذا ، بنى أبي مصيدة . كانت صندوقًا خشبيًا مستطيلًا بسيطًا ، ربما بطول ثلاثة أقدام ، مع فتحة في أحد طرفيه ونوع من

قفل متحرك وظيفته التأكد من عدم تمكُّن المِنك الخروج بمجرد دخوله . ووضعنا في المصيدة طُعماً هو سمكة روش ميتة ووضعناها على حافة الماء ، أسفل الضفة المنحدرة . ثم تركناها طوال الليل بينما نتصيد ثعابين البحر .

في صباح اليوم التالي ، تسللنا عبر العشب الرطب نحو المصيدة صامتَين قدر الإمكان . بحثنا عن أي علامة على الحركة ، مستمعين إلى أصوات الحيوان الذي كان من شبه المؤكد أنه سيكون في الداخل . لكن المصيدة كانت فارغة . كانت السمكة الميتة ما تزال هناك ، على حالِها لم تُمس . وهكذا ظل حالها على الدوام ، في كل مرة ننصب فيها المصيدة ، في العديد من النقاط المختلفة على طول مجرى التيار : سمكة روش متعفنة واحدة ، متروكة دون أن تُمس . لم نرَ حتى لمرة واحدة أوهَن علامة على وجود المِنك بالقرب منها . وبمرور الوقت ، بدأت أشك في ما إذا كان المِنك حقيقيًا من الأساس ، لكنني ، أكثر من أي شيء ، شعرت بالارتياح لأنني لم أُضطرَّ إلى مواجهته . لأنه : ماذا كنا سنفعل حقًا لو أمسكنا بمِنك؟ أفترض أن أبي كان سيقتله . ولكن كيف؟ بيديه العاريتين؟ بسكين؟ هل كان سيغمر المصيدة كلها في النهر ويغرقه؟ حيوان صغير نحيل جميل بعيون مشرقة وفرو ناعم لامع . هل يكون من الصواب قتل حيوان مثل هذا؟ بدا ذلك غريباً ؛ مختلفا تماماً عن قتل سمكة روش أو ثعبان بحر .

ما الذي يجعل الإنسان مختلفًا عن الحيوان؟ لم أكن أعرف شيئًا

عن ذلك . كان الشيء الوحيد الذي عرفته هو أن هناك اختلافاً وأنه غير قابل للإلغاء ولا للتغيير . الإنسان هو شيء آخر غير الحيوان .

في النهاية ، أدركت أيضًا أن هناك ، بالإضافة إلى وجود اختلاف بين البشر والحيوانات ، اختلاف بين أنواع الحيوانات المختلفة أيضاً . بل إن حدود تلك الاختلافات أكثر غموضاً وأقل تعريفاً . بدا أن الاختلاف لا يتعلق بطبيعة الحيوانات بقدر ما يتعلق بإدراكنا لها . إنك إذا نظرتَ إلى حيوان ورأيت شيئًا من نفسك فيه ، فسوف تشعر حتماً بأنك أقرب إليه . وهذا لا يعني أن قتل أي حيوان هو شأن سهل ، أو أنه ينبغي أن يكون سهلاً ، ولكن كان هناك فرق بين الحيوانات المختلفة . كانت هذه ، على ما يبدو ، الطريقة التي يعمل بها التعاطف البشري . ثمة حيوان ينظر إليك في العين ، ويمكنك أن تتماهى معه . وسيكون قتل هذا الحيوان أصعب .

كان أبي يحب الحيوانات كثيرًا ، لكنه قتلها في بعض الأحيان . ولم يكن ذلك شيئًا يستمتع به ؛ لم يكن يجد أي متعة في العنف ، لكنه فعل ما اعتقد أنه صحيح . وقد رُبي ليعتقد بأن البشر لا يمتلكون اليد العليا والسلطة على أشكال الحياة الأخرى فحسب ، وإنما يترتب عليهم نوع من المسؤولية عنها أيضاً ؛ تقرير العيش أو الموت . ولم يكن من الواضح دائمًا كيفية التعامل مع هذه المسؤولية ، أو متى يكون من الصواب فعل هذا الشيء أو ذاك ، لكنها مع ذلك مسؤولية يستحيل التنصل منها . إنها مسؤولية تتطلب مستوى معيناً من الاحترام ؛ الاحترام للحيوان ، وللحياة نفسها ، وإنما أيضًا لمسؤوليتنا عنهما .

كان يحتفظ ببندقية في المنزل وضُعت في خزانة ، موثقة إلى

ظهرها ، ونادراً ما استخدمها . مرة أو مرتين في السنة ، كان يذهب للصيد مع بعض الرجال الذين لا أعرفهم . كانوا يغادرون في الساعات الأولى من الصباح وهم يرتدون سترات سميكة واسعة ، وقبعات صيد خضراء . وفي بعض الأحيان كان يعود حاملاً أرنبًا ميتًا من ساقيه الخلفيتين ، وقد تدلى ممتقعاً وملطخاً بالدم . وفي أحيان أخرى كان يجلب اثنين من طيور التدرج . ولكن نادراً ما بدا أنه هو الذي أطلق النار عليها بنفسه . كان يقول دائمًا أن شخصًا آخر حمل البندقية . قال إنه لا يحب إطلاق النار على الحيوانات إذا كانت ساكنة في مكانها ؛ على أرنبة تفرك أذنها غافلة عن الخطر ؛ أو حمامة تهدُل في شجرة . كان يقف هناك ويصوّب على الهدف ، لكنه لم يستطعٍ أن يضغط على الزناد .

لكنه أطلق النار على قطنا ، أوسكار . هذا القدر أعرفه . كان «توم» سميناً ، مرقطاً بالأبيض والأسود ولم يكن أنيساً على الإطلاق . كان يقضي معظم اليوم نائماً على أريكة ، لكنه ينسلّ خارجاً من الباب كل ليلة ، ولا يعود حتى الصباح . وفي النهاية كبر ومرض وتعب ، وذات صباح اختفى ولم أفكر كثيراً في الأمر حقاً . قال أمي وأبي أنه هرب ، وربما دهسته سيارة . ثم اكتشفت بعد وقت طويل لاحقاً أن أبي قتله في الواقع ؛ أطلق النار على أوسكار من بندقية الصيد لأنه شعر أن ذلك هو الشيء الصحيح الذي ينبغي فعله . كما حاول إطلاق النار على قطة نانا أيضًا . كانت قطةً عجوزاً مريضة ومتعبة هي أيضاً ؛ أخذها أبي إلى الغابة ليخلصها من بؤسها . واستطاع أن يناضل مع كل من القطة والبندقية ووضعهما في صندوق السيارة ، ثم قاد إلى بقعة صغيرة مقطوعة الأشجار

عميقاً في الغابة . وبمجرد أن توقف ، اكتشف مجموعة من طيور الحجل عند حافة الأشجار . كان من النادر أن تكون قريبة إلى هذا الحد ، وكانت بندقيته مذخّرة وجاهزة في الخلف . وهكذا تسلل دائراً حول السيارة بعناية ، وفتح الصندوق أولاً بيد ، ودسّ الأخرى في الداخل ليسحب البندقية من دون أن يدع القطة تهرب . ولكن ، في تلك اللحظة ، دبت في القطة -العجوز والمريضة والمتعبة- بطريقة ما روح جديدة . ومثل ضبابة داكنة ، انسرحت من الصندوق المفتوح ، واندفعت بين الأشجار ، مباشرة نحو مجموعة طيور الحجل . وبينما اختفت القطة دون أن تترك أثرًا في الغابة ، أقلعت الطيور وأسرعت هاربة ، مرتعبة ، في الاتجاه المعاكس . وتُرك أبي واقفاً بجانب السيارة ، وبندقيته في يده لا يلوي على شيء . وقد فشل . ولم ير تلك القطة أبداً مرة أخرى .

بطبيعة الحال ، كانت آراء أبي عن البشر والحيوانات ، والاختلافات بينها ، قد نشأت معه منذ الطفولة . وقد اعتبرها بديهية لا جدال فيها . وبالنسبة لي ، لم تكن تلك الآراء واضحة تماماً قط .

كان أبي قد نشأ في مزرعة . ومنذ أن كان صغيراً ، ساعد في إبقاء الإسطبل خالياً من الفئران والجرذان . كان يمسك بها بيديه ويقتلها بسرعة وبلا ضجيج برميها بقوة على حائط الإسطبل . ورأى الدجاج بينما يُقطع رأسه والقطط الصغيرة وهي تُغرق . وكان حاضراً عندما يذبح أبوه الخنازير . رأى الخنازير بينما يتم تخديرها ورأى حناجرها وهي تُقطع ودمها وهو يُصفى . وتعلم كيف يُحرق

جلدُها بالماء المغلي حتى تمكن إزالة الشعيرات السميكة عنه، وكيف يتم تقطيع الجسم لاحقًا، ليتحول المخلوق الحي إلى قطع من اللحم.

وعندما كبُر، واصل المساعدة في الذبح، وذات مرة أخذني معه. ربما كنت في العاشرة من العمر في ذلك الوقت. غادرنا عند بزوغ الفجر. وعندما وصلنا منزل والديه، كان باب الإسطبل مفتوحًا ولمحتُ حوض الاستحمام الكبير المليء بالماء الذي يتصاعد منه البخار في الداخل، والسكاكين والفراشي على الأرض، وجدّي وهو يقود الخنزير -حيواناً ضخماً لين العريكة. كنت مستثاراً وربما خائفاً بعض الشيء. ولا بد أن يكون أبي قد لاحظ، لأنه بينما كنا على وشك الدخول والشروع في العمل، التفت إلي وقال: «في الواقع، أعتقد أنه سيكون من الأفضل إذا ذهبت إلى الداخل مع نانا».

كانت هناك جاذبية في صوته فاجأتني، وشعرت بلسعة من المهانة وخيبة الأمل. ولكن عندما دخل إلى الإسطبل وأغلق الباب خلفه وتركني وحدي في الفناء، كان الشعور الذي غمرني هو الارتياح أكثر من أي شيء آخر. في وقت مبكر من أحد الصباحات بعد ذلك ببضعة أيام، كنا بجوار النهر نسحب صنانيرنا. كان ذلك في أواخر الصيف وقد أصبح الطقس أدفأ مسبقاً، وجفّ العشب الطويل وتصدّع. وحامت اليعاسيب الكبيرة الثقيلة حول رؤوسنا، وتدفق الجدول بهدوء غير معتاد عبر المنحدرات. وقفتُ أسفل الضفة بجوار شجرة الصفصاف. ووقف أبي على بعد حوالي ثلاثة أقدام. لاحظنا أن أحد خيوط النايلون مشدود مثل وتر الكمان.

وعندما لمستُه شعرت بأنه يهتز ؛ أمسكت به وقابلتني تلك المقاومة المتموجة المألوفة . قلت بصوت عالٍ : «إنه ثعبان بحر» .

كانت سمكة كبيرة إلى حد ما ، بظهر بني غامق وبطن أبيض لامع ؛ أمسكتُ بها بقوة من خلف الرأس ودرستُ خيط الصيد المختفي بين فكيها . كانت تتلوى حول ذراعي مثل حبل سميك مشدود ، كل الطريق وصولاً إلى كوعي ، ثم أفلتت فجأة وصفعت وجهي بذيلها . وغطى الدبّقُ الكثيف خدّي . وطغت رائحة السمك ومياه البحر العسرة المالحة المغثية .

كافحت كي أفتح فمها ورأيت أن الخيط يستمر نزولاً عبر حلقها . كانت الصنارة مدفونة عميقاً . ولم أستطع حتى رؤية الحلقة . أمضيت بضع دقائق في معالجة الخيط ، أسحب وأحرك يميناً وشمالاً وأحاول أن أدخِل إصبعي عميقاً في حلقها بما يكفي لأمسك بالصنارة ، حتى سمعت صوتاً ناعماً رطبا وشرع الدم في التدفق من فم ثعبان البحر .

«لقد ابتلعت الخطاف» . قلت «هل يمكن أن تأخذها»؟

انحنى أبي ودرس ثعبان البحر .

«يا للشيء الصغير المسكين» . قال . «إنها جيدة هناك في الداخل ، أليس كذلك؟ الآن ، لماذا تفعلُ هذا»؟

ثم استقام ونظر إلي مرة أخرى . «كلا ، خذها أنت . يمكنك أن تعالج الأمر» .

تحت سطح البحر

على الرغم من المشاعر المتعارضة التي يثيرها ثعبان البحر ، فإنه يعطي عن كثب ، في موطنه الطبيعي ، انطباعاً بأنه مرح وودود إلى حد ما . نادراً ما يتعالى . ولا يكاد يصنعُ جلبة أو يتوسل الانتباه . يأكل ما يعرِضُه محيطه . يبقى على الهامش ، ولا يطالب بأي اهتمام ولا تقدير .

يختلف ثعبان البحر ، مثلاً ، عن سمك السلمون ، الذي يتألق ويتلألأ ويقوم باندفاعات جامحة وقفزات جسورة . وتعرض السلمون نفسها كسمكة عبثية مأخوذة بذاتها . لكن ثعبان البحر يبدو أكثر قناعة وتواضعاً . إنه لا يحاول أن يجعل من وجوده شيئاً كبيراً .

وهكذا ، يكون ثعبان البحر من الناحية الجوهرية نقيض السلمون . كلاهما سمك مهاجر ، وكلاهما يعيش في المياه العذبة والمياه المالحة ويمران كلاهما بتحولات ، لكن دورات حياتهما تختلف في أكثر عناصرها أساسية .

سمك السلمون هو ما يسمى بالسمك نهري السرء . يتكاثر في المياه العذبة وتسبح ذريته خارجة إلى البحر بعد نحو عام ، وتقضي معظم حياتها هناك . وبعد بضع سنوات (من الواضح أن سمك السلمون لا يمتلك صبر ثعبان البحر) ، يعود سمك السلمون الناضج جنسيًا إلى المياه العذبة ويتكاثر .

أما ثعبان البحر، من ناحيته، فيقوم برحلة مماثلة، وإنما في الاتجاه المعاكس. إنه مما يسمى بالسمك بحري السرء، الذي يعيش حياته في المياه العذبة، ولكنه يتكاثر في المياه المالحة.

وثمة تفصيل آخر، أكثر غموضاً يميز بينهما أيضًا. عندما يتجول السلمون عائداً عبر الأنهار والمجاري المائية، فإنه يعود دائمًا إلى المكان الذي تكاثر فيه أبواه. كل سمكة سلمون تسير -حرفياً- على خطى أسلافها. بطريقة ما، تعرف السمكة أن هذا هو المكان الذي يجب أن تذهب إليه. وتستطيع سمكة سلمون أن تعيش حياة حرة وغير مقيدة في البحر، لكنها في النهاية ستعود إلى مكان ولادتها وتنضم إلى المجتمع الذي كان مقدراً لها أن تعيش فيه. وهذا يعني وجود اختلافات جينية واضحة بين مجموعات السلمون القادمة من المياه المختلفة. إن سمك السلمون، إذا جاز التعبير، مرتبط بيولوجيًا بأصله. إنه لا يسمح بالتجاوزات والخطايا الوجودية.

بطبيعة الحال، يجد ثعبان البحر أيضًا طريقه للعودة إلى مسقط رأسه -سارغاسو- ولكن، بمجرد وصوله إلى هذا البحر الشاسع، فإنه يلتقي بثعابين بحر قادمة من جميع أنحاء أوروبا ويتكاثر بشكل عشوائي. وهكذا، لا يتعلق أصل ثعبان السمك بانتماء عائلي أو بيولوجي، إنه ببساطة، يتعلق بموقع. وبعد ذلك، عندما تنجرف ورقة الصفصاف الصغيرة الوليدة باتجاه سواحل أوروبا وتتحول إلى ثعبان زجاجي، فإنها تختار ممرًا مائيًا وتتجول إلى أعلاه عشوائياً على ما يبدو. ولا يبدو أن ثمة علاقة للمكان الذي تقضي فيه السمكة البالغة حياتها بأجيال سابقة من ثعابين البحر. أما لماذا

يختار ثعبان بحر معين نهراً معيناً، فيبقى لغزاً. وهذا يعني أن الاختلاف الجيني بين أسماك ثعابين البحر في أجزاء مختلفة من أوروبا لا يكاد يذكر. إن كل ثعبان بحر يسعى إلى مكانه في العالم بلا دليل؛ بلا إرث أو تراث، وحيداً وجودياً.

ربما يكون التماهي مع أقدار ثعبان البحر أسهل من التماهي مع افتقار السلمون إلى الاستقلال. وربما يكون هذا هو السبب في أن ثعبان البحر، ببعده الغامض الملغز، يبقى هذا المخلوق الفاتن؛ لأن من الأسهل التواصل مع أحدٍ لديه أسرار أيضًا، مع أناس لا يكونون واضحين على الفور بشأن من هم أو من أين أتوا. إن الجانب السري في خبرة ثعبان البحر هو أيضاً ذلك الجانب السري في حيوات البشر. ولا بد أن يكون سعيك إلى شغل مكانك في العالم بنفسك في نهاية المطاف بمثابة الخبرة الأشمل من بين كل التجارب الإنسانية.

إنني، بطبيعة الحال، أؤنسِن ثعبان البحر؛ أجبره على أن يكون أكثر مما هو أو ما يرغب في أن يكون، وهو ما قد يبدو موضع شك بعض الشيء. كان إسناد خصائص بشرية إلى المخلوقات غير البشرية وسيلة شائعة في الأدب، على سبيل المثال: الحكايات الخرافية والأساطير عن تفكير الحيوانات المؤنسَن، وحديثها ومشاعرها، وتجسيد الحيوانات للأخلاق وتصرفها وفقًا لمجموعة من القيم. كما أنه شائع في الدِّين أيضاً. فالكائنات الإلهية تعطى الشكل البشري والخصائص البشرية حتى تكون قابلة للفهم والتصور. كان الإيسر

الإسكندنافيون القدماء آلهة متخفّين في شكل بشر. وكان يسوع ابن الله، ولكنه كان أيضًا إنسانًا. وفقط من خلال كونه كليهما استطاع أن يكون الصلة بين الدنيوي والسماوي ويصبح مخلّص البشرية. في الجوهر، فإن الذي على المحك هو التماهي؛ القدرة على رؤية شيء مألوف في اللامألوف، وبالتالي فهمه والشعور بأنك أقرب إليه. إن فناناً يرسم صورة دائماً ما يضع جزءًا منه/منها، فيها.

ولكن، في مملكة العلم، لم تكن الأنسنة مقبولة مطلقاً. فالعلم يدّعي أنه يتعامل بموضوعية خالصة لا يخالطها شيء مع الحقيقة التي تكشف عن نفسها فقط تحت المجهر. إنه يحاول وصف العالم كما هو، وليس كما يبدو. وثعبان البحر ليس إنساناً، وبالتالي لا يمكن تشبيهه بإنسان. لا يمكن لأي شخص يعتنق منهجاً موضوعياً وتجريبياً للمعرفة أن يسمح لنفسه بأن يتحدث عن الحيوانات بهذه الطريقة؛ أن يختبر العالم كبشري ينتمي إلينا ويخصنا نحنُ وحدنا.

مع ذلك، عندما كتبت راشيل كارسون Rachel Carson عن ثعبان البحر، كان هذا ما فعلته؛ قامت بأنسنَته. وصفت ثعبان البحر بأنه مخلوق واعٍ ذو مشاعر؛ حيوان بذاكرة وعقل، والذي يمكن أن تعذبه المحن المقدّرة له أو أن يستمتع بالجانب المشرق من الحياة. وكانت لديها أسبابها لتفعل. عندما يتم تلخيص تاريخ العلوم ذات يوم، سوف تبرز راشيل كارسون كواحدة من الأشخاص الذين أسهموا أكثر ما يكون –ليس في تعميق فهمنا لثعبان البحر فحسب، وإنما للنظام البيئي الواسع والمعقد الذي ينتمي إليه أيضاً.

كانت راشيل كارسون واحدة من أبرز علماء الأحياء البحرية وأكثرهم تأثيراً في القرن العشرين . وكانت أولاً وقبل كل شيء خبيرة في المحيط وسكانه ؛ كتبت العديد من الكتب الرائدة عن الحياة البحرية وأصبحت في النهاية رائدة وأيقونة في الحركة البيئية المتبرعمة . كانت إنسانة غير عادية في نواح كثيرة .

ولدت كارسون في أيار (مايو) 1907 ونشأت في مزرعة صغيرة في سبرينغديل بولاية بنسلفانيا ، على مرمى حجر من نهر أليغيني العظيم الذي يلتف حول المدينة . كان هناك ، خلال سنواتها الأولى ، حيث طورت اهتمامها الذي استمر مدى الحياة بالحيوانات والطبيعة . عندما كانت طفلة صغيرة ، تعلمت أن تحب الغابات والأرض الرطبة والطيور والأسماك . وقد فتنها النهر على وجه الخصوص ، وكذلك فعل كلُّ شيء فيه ؛ كلُّ تلك الحياة التي جلبتها المياه معها من الجداول المتفرعة في رحلتها الطويلة إلى البحر .

ومع ذلك ، لم يكن مسارها المهني بأي حال من الأحوال مقرراً سلفاً . كان والدها بائعًا متجولًا ووالدتها ربة منزل . وكانت الأسرة فقيرة ولم يكن وصولها إلى مهنة أكاديمية من المسلمات . لكن والدتها ، التي تخلت عن مهنتها كمدرّسة عندما تزوجت ، شجعت اهتمام ابنتها بالطبيعة . كانت تأخذ راشيل في نزهات مشي لمسافات طويلة كي تدرس النباتات والحشرات والطيور . ودربتها على فن الملاحظة وعلّمتها كيفية الانتباه إلى التفاصيل ، وغرست فيها احتراماً عميقاً ومُحباً لتنوع الحياة . وبمجرد أن تعلمت راشيل كارسون القراءة والكتابة ، شرعت في صنع كتب صغيرة

وكتيبات مصورة، بقصص مليئة بالحقائق حول الفئران والضفادع والبوم والأسماك. ويقال إنها كانت طفلة متوحدة، مع القليل من الأصدقاء المقربين، إن وجدوا، لكنها لم تشعر أبدًا بالوحدة أو بأنها خارج المكان عندما تكون في الطبيعة. كان هذا هو العالم الذي عرفته بشكل أفضل من أي شيء آخر.

في النهاية، انتهى بها المطاف إلى ارتياد الجامعة في سن الثامنة عشرة، بعد أن تخرجت الأولى في صفّها وبعد أن باعت والدتها أواني الخزف الصيني التي تمتلكها الأسرة لتدفع لها الرسوم الدراسية. في البداية، درست التاريخ وعلم الاجتماع والإنجليزية والفرنسية، لكن موطنَ الاهتمام الأساسي في حياتها كان واضحاً في مقالها الجامعي الأول: «أنا أحب كل الأشياء الجميلة في الطبيعة، ومخلوقات البرية أصدقائي».

وبعد ذلك بعامين، عندما كانت في العشرين من عمرها، نشأ لديها إدراك من النوع المغيِّر للحياة. وقد وصفته هي نفسها بأنه لحظة وحيٍ وتجلٍّ. ذات يوم أدركت فجأة أن من المفترض أن تكرس حياتها للمحيط. ينبغي أن يكون المحيط محور كل فصولها وموهبتها الأكاديمية. وكتبت لاحقًا: «أدركت أن طريقي الخاص يفضي إلى البحر –والذي لم أكن قد رأيته حتى ذلك الحين– وأن قدري مرتبط بطريقة أو بأخرى بالبحر».

ما الذي جذَب راشيل كارسون إلى البحر؟ ربما يبدو الاختيار عشوائياً؛ فقد نشأت بعيدًا عن الساحل ولم تضع أنظارها على المحيط أبدًا، ولم تغمس أصابع قدميها في مياهه أو تستمع إلى اصطدام موجاته وتكسّرها على الشاطئ. ومع ذلك بدا ارتباطها به

حتمياً ؛ كما لو أنها تعقّبت رائحةً أسفل نهر عظيم ، ضد التيار ، على طول الطريق حتى أصلها ، إلى البحر الذي هو أصل كل شيء . كان هذا هو جوهر الوحي والتجلي . لقد جئنا جميعًا من البحر ذات مرة ، ولذلك يجب على كل من يرغب في فهم الحياة على هذا الكوكب أن يفهم البحر أولاً . ثم بعد ذلك بكثير ، في كتابها الصادر في 1951 ، المعنون «البحر من حولنا» ، شرحت هذه البصيرة النافذة بطريقة تلخص ما يميزها عن معظم علماء الأحياء البحرية ، بطريقة علمية وشاعرية في الوقت نفسه :

«عندما ذهبت إلى الشاطئ ، كانت الحيوانات التي اتخذت لنفسها حياة برية تحمل معها جزءًا من البحر في أجسادها ؛ إرثاً نقلته إلى أبنائها والذي يربط حتى اليوم كل حيوان بري بأصله في البحر العتيق . الأسماك ، والبرمائيات ، والزواحف والطيور والثديات ذات الدم الحار –كلنا نحمل في عروقنا مجرى مالحاً حيث تندمج عناصر الصوديوم ، والبوتاسيوم والكالسيوم بنفس النسب تقريبًا كما هي في مياه البحر . هذا هو إرثنا منذ ذلك اليوم ، وعلى مدى ملايين لا عدد لها من السنين ، عندما تقدم سلف بعيد وحيد الخلية إلى طور تعدد الخلايا ، حيث طوّر أول الأمر نظامًا دائريًا كان فيه السائل مجرد مياه بحر» .

هكذا نحن مخلوقون جميعاً من الماء ، كلنا ننحدر من بحار سارغاسو الغامضة الخاصة بنا . «ولأن الحياة نفسها بدأت في البحر ، فكذلك يبدأ كل منا حياته نفسها في محيط مصغَّر داخل رحم أمه» .

في خريف العام 1932 ، كانت راشيل كارسون قد بدأت للتو دراساتها العليا في علم الأحياء البحرية واحتفظت في أحد أركان مختبرها بخزان كبير مليء بثعابين البحر . أرادت أن تدرس كيف يكون رد فعل هذه الكائنات على التغيرات في الملوحة . وأرادت أن تفهم كيف تكيّف الحيوان مع التغيرات الجذرية التي مر بها خلال دورة حياته ، وكيف امتثَل لمصيره ، وهجرته الطويلة اليائسة وتحولاته الغامضة . ولم تتمكن أبدًا من إنهاء دراستها العلمية ، لكنّ من الواضح أنها أُخِذت بثعبان البحر . كانت تعرض ثعابينها بفخر لأصدقائها وتخبرهم عن دورة حياتها الغامضة ورحلتها الطويلة إلى بحر سارغاسو . وسوف تبقى مغرمة بثعابين البحر وتعود إليها في نهاية المطاف .

مع ذلك ، انتهى حلمها بالعمل الأكاديمي فجأة ، عندما توفي والدها في تموز (يوليو) 1935 ووجدت نفسها فجأة مجبرة على دعم والدتها وأختها الكبرى ماليًا . كان استمرارها في أفضل الأحوال بأجر متواضع في المختبر غير وارد . وكان على الطموح وتحقيق الذات أن يستسلما للواجب والولاء الأسري . لكنها حصلت ، من خلال اتصالاتها في الجامعة ، على فرصة لكسب راتب منتظم عن طريق الانغماس في موضع اهتمام آخر انطوت عليه منذ أمد بعيد ؛ الكتابة . شرعت في كتابة نصوص لسلسلة إذاعية عن الحياة في المحيطات . وأخبرت مستمعيها في أكثر من اثنتين وخمسين حلقة ، مدة كل منها سبع دقائق ، عن العديد من الأنواع المائية ، بطريقة دقيقة علمياً ومثيرة للاهتمام بالنسبة للجمهور العادي . وكان صاحب العمل ، مكتب مصائد الأسماك في الولايات المتحدة ،

سعيدًا للغاية بالنتيجة حتى أنه كلفها على الفور بمهمة أخرى : كتابة المقدمة لكتيب عن الحياة البحرية . وعنونت مقالها بـ«عالم المياه» ، وكان قصة عن الحياة في المحيط ؛ عن جميع المخلوقات الكامنة تحت السطح الذي يشبه المرآة ، والتي تعيش هناك ، تصطاد أو تُصطاد ، وتولد ، وتتناسل وتموت . كان ذلك نصًا استند بقوة إلى معرفتها الأكاديمية بالحياة البحرية ، لكنه كان أيضًا رواية إبداعية ومتعاطفة . وقد قرأها المشرف وأعلن أنها غير مناسبة لكتيب معلوماتي يصدره المكتب . لم يكن هذا ما تصوره . كان هذا أدباً .

«لا أعتقد أنه يمكننا استخدامه» . قال . «ولكن أرسليه إلى مجلة أتلانتيك الشهرية .»

هكذا كان أنها أصبحت في النهاية كاتبة ؛ وبذلك ، فإن مسار راشيل كارسون قادها حقاً إلى البحر ، إلى أصل كل شيء ، وسوف تدور حياتها وعملها حول معرفة هذا الأصل وفهمه .

نُشر الكتاب الأول لراشيل كارسون في العام 1941 . كان عنوانه «تحت ريح البحر» ، واستند إلى مقالها الأول حول البحر ، والذي كانَ قد نُشر في الحقيقة في مجلة أتلانتك الشهرية . أرادت أن تكتب عن البحر بوصفه البيئة الشاسعة متعددة الأوجه التي تشكله ، حتى تُظهر جزءاً على الأقل مما يدور في أعماقه ، أبعد من نظرة البشرية ومعرفتها . وأرادت بذلك أيضًا أن تشير إلى شيء أكبر بكثير وأكثر عالمية : كيف أن كل الأشياء تكون مترابطة . وكتبت في رسالة إلى محرّر كتابها : «يبدو لي أن كل واحدة من

هذه القصص لا تتحدى الخيال فحسب ، بل تريد أن تزودنا أيضًا بمنظور أفضل قليلاً عن مشاكل البشرية . إنها دائمة وبلا نهاية مثل الشمس والمطر ، أو مثل البحر نفسه» .

وهكذا ، تحولت كارسون إلى اتخاذ أسلوب أدبي غير معتاد بالنسبة لعالِم أحياء بحرية . استخدمت الأنسنة ، أداة القصص الخرافية والأساطير . ويصف الجزء الأول من كتابها الحياة على حافة المياه ؛ ويتحدث الجزء الثاني عن البحر المفتوح ، ويحكي الثالث عما يحدث في أعماقه . ويركز كل جزء على حيوان معين . في الجزء الأول ، نلتقي بطائر بحري ، أبو المقص الأسود الذي يعيش حياته على حافة البحر . ويصطاد البلم والسلطعون ، متحركاً مع المواسم والتيارات ، ويعيش حياة كاملة مثل تُرس متكيّف تمامًا في نظام بيئي أكبر بكثير ومعقد بلا حدود . ولا يُعطى الطائر في الكتاب خلفية وشخصية فحسب ، بل يُعطى اسمًا مشتقاً من اسمه اللاتيني ، راينشوبس . وخلال القصة ، يلتقي بالعديد من الحيوانات الأخرى في بيئة الشاطئ الفريدة : طيور مالك الحزين ، والسلاحف ، والسرطان الناسك ، والروبيان والرنجة والخرشنة . أما البشر ، من ناحية أخرى ، فليسوا سوى غرباء نائين في الخلفية .

في الجزء الثاني ، نتبع ، بطريقة مماثلة ، إسقمريًا اسمه سكومبر ، والذي يتنقل في البحر المفتوح كفردٍ في سرب سمك هائل ، محاطًا بالنوارس وأسماك القرش والحيتان ، ولكنه يتعرض لتهديد جدي فقط عندما يُغرِق بشر بلا وجوه شباكهم في الماء .

في الجزء الثالث والأخير من الكتاب ، نتعرف إلى ثعبان البحر . وغني عن القول أن راشيل كارسون لم تتمكن من العثور على ممثل

أفضل منه للتعقيد الهائل الذي يميّز البحر. وتشرح في رسالة إلى ناشرها: «أعرف الكثير من الناس الذين يرتعدون عند رؤية ثعبان بحر. بالنسبة لي (وأعتقد لأي شخص يعرف قصته) فإن رؤية ثعبان البحر هي أشبه بمقابلة شخص سافر إلى أكثر الأماكن نأياً وروعة من الأرض؛ في لمحة بصر، أرى صورة حية للأماكن الغريبة التي كان ثعبان البحر فيها؛ الأماكن التي لا يمكنني -باعتباري مجرد كائن بشري- أن أزورها قط».

تبدأ القصة في بحيرة صغيرة، بيتيرن بوند، عند قاع تل مرتفع. وتقع البحيرة على بعد مائتي ميل تقريبًا من البحر، وتحيط بها نباتات البردي وعشبة البركِ وياسِنت الماء؛ ويرفدها جدولان. هذا هو مشهد تعارفنا إلى شخصيتنا الرئيسية: «في كل ربيع يأتي عدد من المخلوقات الصغيرة عبر هذه الجداول المعشوشبة ويدخل بيتيرن بوند، بعد أن تكون قد قطعت رحلة لمسافة مائتي ميل في البحر. وهي غريبة الشكل، مثل قطع من قضبان زجاجية رفيعة أقصر من إصبع إنسان».

ثم تركز راشيل كارسون على أنثى ثعبان بحر معينة، عمرها عشر سنوات، والتي تسميها أنغيلا. وقد عاشت أنغيلا طوال حياتها في البحيرة، منذ أن وصلت كثعبان بحر زجاجي صغير. كانت تختبئ في القصب خلال النهار وتخرج للصيد في الليل «لأنها، مثل كل ثعابين البحر، عاشقة للظلام». وكانت تقضي السُّبات في الوحل الناعم والدافئ في قاع البحيرة، «أنها، مثل كل ثعابين البحر، محبة للدفء». وأنغيلا مخلوق يشعر ويختبر، وهي تتذكر ماضيها وتعرف المعاناة والحب، وتتوق في نهاية المطاف؛ لأنه، عندما يأتي

الخريف، ثمة شيء يصبح مختلفاً بشأن أنغيلا. فجأة تتوق إلى المغادرة، ويعتريها شوق غامض صامت بلا كلمات. وذات ليلة مظلمة، تشق طريقها إلى منفذ البحيرة، وتشرع في رحلة عبر الأنهار والجداول كل مسافة المائتي ميل عائدة إلى المحيط المفتوح. ثم نتبعها إلى البحر ونختبر معها العقبات والمحاولات، في اتجاه سارغاسو، نزولاً نحو الأعماق، نحو الهاوية التي هي «أحواض المحيطات»، بعيداً جداً في الأسفل في الظلال حيث تتدفق المياه، «مياه شديدة البرودة، مثابرة وعديمة الرحمة مثل الزمن نفسه».

وبينما تختفي أنغيلا وجميع ثعابين البحر الناضجة الأخرى من المشهد البشري والمعرفة الإنسانية، يتحول تركيزنا إلى أوراق الصفصاف الصغيرة عديمة الوزن، «الوصية الوحيدة المتبقية من ثعابين البحر الوالدة»، وهي تنتقل في الاتجاه الآخر، منجرفة مع التيارات في رحلة طويلة عبر المحيط، فوق الجرف القاري ونحو الأرض التي «كانت ذات يوم بحراً». تحت رياح البحر التي ضربت المكتبات الأمريكية في تشرين الثاني (نوفمبر) 1941. كان ذلك، بالطبع، توقيتاً مؤسفاً بشكل ملحوظ. فبعد شهر، تدخلت الشؤون الدنيوية أيضاً عندما هاجمت اليابان «بيرل هاربور». كانت الولايات المتحدة في حالة حرب، وأصبح اهتمام الجمهور بالحكايات الخرافية عن ثعابين البحر وأسماك الإسقمري وطيور أبي مقص السوداء ضئيلًا فجأة. وهكذا، باع الكتاب أقل من ألفي نسخة وسرعان ما طواه النسيان.

ومع ذلك، سوف يتم التقاطه مرة أخرى في نهاية المطاف، ونشره في طبعات جديدة وقراءته، وسوف تقع في حبه الأجيال المتعاقبة؛

قبل كل شيء لأنه يصف البحر بطريقة جميلة وخيالية تشبه الحلم، وأدبية، وإنما مستندة دائماً إلى العِلم أيضاً. بطبيعة الحال، كان قرار راشيل كارسون أنسنة الحيوانات مقصوداً ولخدمة غرض. وقد استخدمت أدوات القصص الخيالية، لكنها لم تتجاوز أبدًا حدود العلم والحقيقة. لم تجعل ثعبان البحر يتحدث أو يتصرف بطريقة غريبة عن الحيوان الحقيقي. كانت تحاول ببساطة أن تتخيل ماهيّة الواقع بالنسبة لثعبان البحر، وكيف يختبر كل هذه المصاعب والتحولات والهجرات في دورة الحياة الغريبة التي تصفها أيضًا بوضوح علمي. وتشرح في مقدمة الطبعة الأولى: «تحدثت عن سمكة 'تخشى' أعداءها، ليس لأنني أفترض أن السمكة تعاني من الخوف كما نفعل نحن، وإنما لأنني أعتقد أنها تتصرف كما لو أنها خائفة. مع الأسماك، تكون الاستجابة جسدية في المقام الأول؛ ومعنا، تكون نفسية في المقام الأول. ومع ذلك، إذا أردنا أن نفهم سلوك السمك، فيجب أن نصفه بالكلمات التي تنتمي بأفضل طريقة إلى الحالات النفسية البشرية».

وهكذا، أصبح سلوك ثعبان البحر مفهوما لنا لأول مرة، أو أكثر قابلية للفهم من السابق على الأقل. كان ما أدركته راشيل كارسون، وما يجعلها فريدة في تاريخ العلوم الطبيعية، هو أن عليها أن تتمكن من رؤية جزء من نفسها في مخلوق آخر حتى تفهمه حقًا. وقد تماهت مع الحيوانات، وأعطاها هذا التماهي القدرة – والشجاعة– لأنسنتها. وقد أتت عملاً محظورًا في العلوم التقليدية: منحت وعيًا لثعبان البحر؛ وعيًا شبه إنساني، وبالتالي تمكنت من الاقتراب منه أكثر. ولم تفعل ذلك لأنها اعتقدت أن ثعبان البحر

يمتلك ذلك النوع من الوعي بالمعنى العلمي البحت ، وإنما لمساعدتنا على تحقيق فهم أفضل لمخلوق فريد ومعقد ، حتى تجعل ثعبان البحر يكون ثعبان بحر ، وإنما شيئاً يمكننا إلى حد ما أن نتماهى معه أيضاً ؛ لغزاً ، وإنما الذي لم يعد غريباً بالكامل .

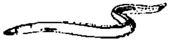

وإذن ، ما الفرق بين ثعبان بحر وكائن بشري؟ ثمة تعريف مشترك لما يجعلنا بشراً ، هو أننا ندرك وجودنا ، ومع هذا الوعي تأتي رغبة عارمة في التأثير في الوجود . على الأقل هكذا تم تصور الفرق بين البشر والحيوانات تاريخياً .

في القرن السابع عشر ، ادعى رينيه ديكارت René Descartes أن جميع المخلوقات ، باستثناء البشر ، يجب اعتبارها «آلات» . بالنسبة له كانت الحيوانات أجسادًا ، والتي لم تكن أفعالها أكثر من تفاعلات ميكانيكية . لكن لدى البشر ، من ناحية أخرى ، شيء تفتقر إليه جميع الحيوانات ، روح . والروح مكّنت التفكير الذي شكل في حد ذاته دليلاً على وجود الوعي . وبالتالي ، لدى البشر وعي لأن لديهم روح . وليست للحيوانات روح ، وبالتالي ليس لها وعي .

بمساعدة الروح ، رُفِع البشر فوق الحيوانات ، لكنهم رُفعوا أيضًا فوق مرور الزمن وزواله . كان مفهوم الروح وما يزال مرتبطًا بفكرة أن البشر أفراد . وتعني كلمة فرد بدورها شيئًا لا يمكن تقسيمه ؛ وحدةً تبقى كاملة وغير متغيرة حتى عندما يتغير كل شيء آخر . وبما أن جسم الإنسان قابل للتغيير بلا جدال ، كما هو حال الظروف

الخارجية التي تحيط بالحياة البشرية ، ينبغي أن يكون هناك شيء آخر ، شيء دائم ، والذي يجعلنا أفرادًا . هذا الشيء منذ زمن أبعد من الذاكرة ، كان الروح .

ومع ذلك ، لم هذا الاختلاف المخصوص بين الحيوانات والبشر أبدًا من دون اعتراض . وعندما نشر كارل لينيوسCarl Linnaeus الطبعة العاشرة من كتابه «النظام الطبيعي» Systema Naturae الذي ينقّح باستمرار (تعتبر هذه الطبعة عادةً الأكثر أهمية لأنها تحتوي على بدايات تسمية علم الحيوان) ، في العام 1758 ، ضم بعض المراجعات المثيرة للجدل للطبعات السابقة . كان هنا حيث قام لينيوس ، من بين أمور أخرى ، بإعادة تصنيف الحيتان ونقلها من الأسماك إلى الثدييات ، ونقل الخفافيش من الطيور إلى الثدييات . ولكن ، كان في هذه الطبعة أيضاً حيث محى مؤقتًا الخط الفاصل بين الإنسان والحيوان . في هذه الطبعة بالذات ، وضع قرد «إنسان الغاب» في نفس فئة الجنس ، «هومو» ، مع البشر . وهو ما عنى أن إنسان الغاب ، وفقًا للينوس ، كان بشرياً ؛ أننا ، نحن جنس الإنسان العاقل (الهوموسابين) ، لسنا بعد كل شيء الأعضاء الأحياء الوحيدين في جنسنا ؛ أننا لسنا فريدين كما افترضنا دائمًا .

كان هذا خطأ علميًا وتم تصحيحه بسرعة ، لكنه أثار ، مع ذلك ، أسئلة مثيرة للاهتمام . إذا كان «إنسان الغاب» بشريًا ، فهل يعني ذلك أن إنسان الغاب له روح؟ هل هو على وعي بوجوده؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما الفرق بين الإنسان و»إنسان الغاب»؟ وإذا مُحِي هذا الاختلاف ، فما هو الفرق بين البشر والخفافيش أو ثعابين البحر؟

في النهاية ، جاء تشارلز داروين Charles Darwin وسلبنا روحنا الأبدية مرة وإلى الأبد . لم تترك نظرية التطور مكاناً لمفهوم الروح التي لا تتغير ، لأنها تفترض أن كل الحياة ، بكل أجزائها ، قابلة للتغيُّر . وأصبح الإنسان حيوانًا بين الحيوانات الأخرى . وبمرور الوقت ، مع تطور العلم الحديث ، أصبحت حيوانات العالم ، على العكس من ذلك ، أكثر شبهاً بنا بعض الشيء . لقد مُنحت ، إن لم يكن روحًا فوعياً على الأقل . ونحن نعرف اليوم أن الحيوانات يمكن أن تختبر حالات من الوعي أكثر تعقيدًا بكثير مما كان يعتقد سابقًا . وتظهر الأبحاث أن معظم الحيوانات ، بما في ذلك الأسماك ، يمكن أن تشعر بالألم . وتشير العلامات إلى قدرة الحيوانات على اختبار الخوف ، والحزن ، والمشاعر الأبوية ، والعار ، والندم ، والامتنان ، وشيء قد نسميه الحب .

وهناك أيضًا حيوانات ، مثل الرئيسيات والغربان ، والتي تستطيع أداء مهام عقلية متقدمة ؛ التي يمكنها تعلُّم التواصل والتفاعل مع أفراد أنواعها الخاصة وأنواع أخرى أيضاً ؛ التي يمكنها أن تتخيل المستقبل ؛ والتي يمكن أن ترفض مكافأة في الحاضر مقابل وعد بمكافأة أكبر لاحقًا . جميع المعايير التي افترضنا عبر التاريخ أنها محورية لفصل البشر عن الحيوانات -الوعي ، والشخصية ، واستخدام الأدوات ، وامتلاك مفهوم للمستقبل ، والتفكير المجرد ، وحل المشكلات ، واللغة ، واللعب ، والثقافة ، والقدرة على الشعور بالحزن أو الفقدان ، الخوف أو الحب- ثبت أن جميع هذه المعايير هي موضع جدل على الأقل ، وغالبًا غير كافية ، وأحيانًا خاطئة تمامًا . في واقع الأمر ، تم محو الفرق إلى حد ما . إنَّ غراباً يوضع أمام

المرآة يعرف أنه ينظر إلى نفسه ، مما يعني أنه يعي وجوده الخاص . وهو يعرف أنه يفعل ، بغض النظر عما إذا كان يمكن القول بأنه يعرف ما هو .

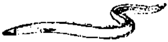

وهكذا ، فإن ثعبان البحر لديه وعي ، عند مستوى ما على الأقل . ولكن ، هل هو على علم بوجوده؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما الذي يشعر به ثعبان بحر؟ كيف يختبر تحولاته العديدة ، وانتظارَه الطويل ، وهجراته؟ هل يمكن أن يشعر بالملل؟ نفاد الصبر؟ الوحدة؟ ما الذي يشعر به ثعبان البحر عندما يأتي ذلك الخريف الأخير ويتغيّر جسمه ، ويصبح قوياً ويتحول لونه إلى رمادي ضارب إلى الفضي ، ويحثُّه شيء عميق لا يسبر غوره على الذهاب إلى المحيط الأطلسي؟ هل هو توق؟ شعور بعدم الاكتمال؟ خوفٌ من الموت؟ ما الذي يعنيه حقاً أن يكون الكائن ثعبان بحر؟

قامت راشيل كارسون بأنسنة ثعبان البحر لمساعدتنا على فهمه بشكل أفضل ؛ لتجعلنا نتخيل خبرة ثعبان البحر ونستوعب سلوكه بشكل أفضل . ولكن هل يعني ذلك أننا نفهم حقًا ما يختبره ثعبان البحر؟

أصبح هذا السؤال أساسيًا بشكل متزايد خلال العقود القليلة الماضية . كتب الفيلسوف توماس ناجل Thomas Nagel مقالًا مشهورًا في العام 1974 حول فلسفة العقل . وقد حمله عنوان «ما الذي يعنيه أن تكون خفاشًا؟» وكانت إجابته عن هذا السؤال البسيط مقتضبة : لا يمكننا أن نعرف حقاً أبداً .

يفترض ناجل أن جميع الحيوانات لديها وعي . والوعي قبل كل شيء حالة ذهنية . إنه التجربة الذاتية للعالم ؛ قصة ترويها حواسنا حول الأشياء من حولنا . ولكن حتى مع ذلك ، لا يستطيع إنسان أبدًا أن يفهم تمامًا ما يعنيه أن يكون الشيء خفاشًا أو ثعبانًا أو كائنًا فضائيًا متخيلًا ، أيضاً . إن تجاربنا كبشر تحد من قدرتنا على تخيل وعي الأنواع الأخرى . إن الخفاش ، على سبيل المثال ، يعيش في حالة وعي مختلفة تمامًا عن الإنسان . إنه يدرك العالم في المقام الأول من خلال أصداء . ونحن نعرف هذا ، من بين آخرين ، بفضل العالم الإيطالي لازارو سبالانزاني Lazzaro Spallanzani ، الرجل الذي سعى هو الآخر -بصرف النظر عن مشاركة اسمه مع البروفيسور الغامض في قصة إيه . تي . إيه هوفمان القصيرة «رجل الرمال»- بلا نجاح إلى معرفة الحقيقة عن تناسل ثعبان البحر .

في أوائل تسعينيات القرن التاسع عشر ، أجرى سبالانزاني عددًا من التجارب الرائدة على الخفافيش ، والتي سمحت له ، من بين أمور أخرى ، باستنتاج أنها تستطيع الطيران بلا عوائق أو اصطدامات عبر غرف مظلمة تمامًا . كما قبض أيضاً على عدد كبير من الخفافيش وأزال عيونها قبل إطلاقها مرة أخرى في البرية . وعندما تمكن من استعادة بعض الخفافيش العمياء بعد بضعة أيام ، قام بتشريحها ووجد حشرات طازجة في بطونها . وبعبارات أخرى ، استطاعت الخفافيش أن تصطاد وتتنقل من دون استخدام عيونها . وتبع ذلك أنها ، كما قال سبالانزاني ، لا بد أن تستخدم آذانها .

وهكذا ، يطير الخفاش فوق نهر في الليل ، ولا يرى شيئًا تقريبًا سوى إرسال ضوضاء سريعة عالية التردد ، والتي ترتد مرة أخرى

عن الأشياء والمخلوقات التي تحيط به . ويقوم الخفاش بمعالجة أصداء هذه الأصوات وتفسيرها لبناء صورة مفصلة جداً للعالم . وبفضل هذه القدرة ، يستطيع الخفاش أن يطير بأقصى سرعة في الظلام الدامس عبر أغصان شجرة دون أن يصطدم بها . حتى أنه يمكن أن يميز نوعًا من العثة عن نوع آخر بالطريقة التي يرتد بها الصوت عن أجنحتها . كلُّ شيء يواجهه الخفاش له نمطه الخاص من الأصداء ، وهذه هي الطريقة التي يفهم بها محيطه . يتكون تصوره للعالم من تدفق مستمر للأصداء ، وهذه الأصداء ، بالطبع ، هي التي تحدد كيف يشعر الخفاش تجاه العالم .

يختلف الوعي البشري عن ذلك بشكل أساسي . وإذا حاولنا تخيل ما يعنيه أن يكون الكائن خفاشاً ، فإنه هذا الوعي البشري بالذات هو الذي يحدّ ، وفقًا لناجل ، من قدرتنا على القيام بذلك .

لا يكفي أن أحاول تخيل ما يعنيه أن يكون لديّ أجنحة وبصر رديء بطريقة فظيعة ، وكيف يبدو أن أحلق فوق نهر في الليل وألتقط الحشرات بفمي ، أو أن أتخيل كيف يبدو إصدار إشارات صوتية والتقاط صدى أصواتها . ويكتب ناجل : «بالقدر الذي يمكنني به أن أتخيل هذا (وهو ليس شيئاً بعيدًا جدًا) ، فإنه يخبرني فقط بكيف سيبدو لي تصرُّفي كما يتصرف خفاش . لكن هذا ليس هو السؤال . إنني أريد أن أعرف ما يعنيه للخفاش أن يكون خفاشاً . ومع ذلك ، إذا حاولتُ أنا أن أتخيل ذلك ، فإنني سأكون مقيداً بموارد ذهني الخاص» .

كما أن المشكلة ، كما يزعم ناجل ، لا تقتصر على العلاقة بين البشر والحيوانات . كيف يمكن لشخص يسمع ، على سبيل المثال ،

أن يتخيل كيف يفهم شخص أصمّ منذ الولادة العالَم؟ كيف يمكن لشخص مبصر أن يشرح صورة لشخص كان أعمى دائمًا؟

إن ما يرفضه توماس ناجيل حقاً هو ما يسمى الاختزالية Reductionism ؛ فكرة أن المفاهيم المعقدة يمكن تفسيرها وفهمها من خلال مفاهيم أبسط . على سبيل المثال ، أننا سنتمكن من فهم عقل مخلوق آخر من خلال دراسة ووصف العمليات الفيزيائية أو الكيميائية لدماغ ذلك المخلوق . تحاول الاختزالية شرح الأشياء الكبيرة من خلال الأشياء الصغيرة ؛ الكلُّ يتكون من مكونات أصغر يمكن تفسيرها وفهمها بشكل فردي كلاً على حدة ، والتي من المتوقع أن تجعل الكلَّ قابلاً للفهم بدورها .

لكن هذا لا يكفي ، كما قال ناجيل . عندما يتعلق الأمر بالوعي ، فإن هناك حالات مجهولة تمامًا بالنسبة لنا والتي ستبقى كذلك ، حتى لو أن الأنواع البشرية ستبقى حتى نهاية الزمن . سوف تبقى بعض الأشياء دائمًا خارج متناول إدراكنا ، سواء كانت تتعلق بالخفافيش أو ثعابين البحر . يمكننا أن نعرف من أين تأتي هذه المخلوقات ، وكيف تتحرك وتتنقل ، ويمكننا التعرف عليها كبشر تقريباً ، لكننا لن نفهم تماماً كيف هو أن يكون الكائن خفاشاً أو ثعبان بحر .

هذه مقاربة منطقية للعالم ، وهي صحيحة بكل المعاني . ومع ذلك ، من المغري التفكير في أن راشيل كارسون نجحت فعلاً في الوصول إلى نوع من الفهم الذي لا ينبغي أن يكون ممكنًا حقًا -ليس من خلال الاختزالية أو التجريبية -أو حتى اعتقاد العلم التقليدي بالحقيقة كما تظهر تحت المجهر- وإنما من خلال الإيمان

بقدرة قد تكون فريدة ومقصورة على البشر في واقع الأمر : التخيُّل .

يمكن أن تمضي القصة الخيالية على نحو من هذا القبيل : ذات مرة ، أمسك صبي ثعبان بحر . كان اسم الصبي صموئيل نيلسون وعمره ثماني سنوات . كان ذلك في العام 1859 .

أسقط صامويل نيلسون صيده ، ثعبان بحر صغير نسبيًا ، في بئر في مزرعته المنزلية في برانتيفيك ، جنوب شرق سكون ، في الجزء الجنوبي من السويد . ثم أُغلق البئر بعد ذلك بغطاء حجري ثقيل .

ظل ثعبان البحر هناك ، وحيداً في الظلام ، وبقي حياً بفضل الدود والحشرات التي تسقط في الماء ، مقطوعاً عن العالم ومحروماً –ليس من البحر والسماء والنجوم فحسب ، وإنما أيضًا من معنى وجوده : رحلة العودة إلى الوطن ، إلى بحر سارغاسو ، ذلك الشيء الذي سيجعل حياته مكتملة . وعاش ثعبان البحر بينما اختفى كلُّ شيء حوله . عاش ثعبان البحر بينما أصبح نظراؤه من أبناء جنسه في نهاية القرن التاسع عشر أقوياء بجلود لامعة ، وشقوا طريقهم إلى سارغاسو ليتكاثروا ويموتوا . وواصل العيش بينما كبر صموئيل نيلسون وشاخ وتوفي في النهاية . وعاش بينما فعل أطفال صموئيل نيلسون الشيء نفسه . وبعدهم أحفاد صموئيل وأبناؤهم .

عاش ثعبان البحر طويلاً جداً إلى أن أصبح في النهاية مشهورًا . سافر الناس من كل حدب وصوب ليلقوا نظرة على البئر ، وربما لمحة منه . وأصبح صلةً حيّة بالماضي ؛ ثعبانَ بحرٍ سُلِب الحياة فانتقم بخداع الموت . بل إنه ربما كان خالداً؟

ليس وصف هذا بأنه قصة خيالية صائباً ولا عادلاً . إن وجود ثعبان بحر في البئر في برانتيفيك حقاً هو حقيقة لا جدال فيها . ووجوده هناك منذ وقت طويل جداً بالقدر الذي تمكن رؤيته صحيح بنفس المقدار . وحده ذلك الجزء عن صموئيل نيلسون هو الذي يصعب التحقق منه بعض الشيء . كما لا يمكن تحديد المدة التي عاشها ثعبان بحر برانتيفيك بالضبط في بئره بيقين لا يخالطه شك .

ومع ذلك ، حاول البعض . في العام 2009 ، زار برنامج الطبيعة التلفزيوني السويدي «في وسط الطبيعة» تلك المزرعة في برانتيفيك . وفي ذلك الوقت ، كان عُمر ثعبان البحر ، وفقًا للأسطورة ، مائة وخمسين عامًا ، وبتوثيق وجوده ، أراد طاقم البرنامج نقلَ بعض جوانبها على الأقل من عالم الخرافة إلى عالم الواقع .

وكانت تلك واحدة من أكثر لحظات تلفزيون الطبيعة السويدي دراميَّة . تمكن الفريق التلفزيوني من رفع الغطاء الحجري المربع الكبير وإزاحته جانباً والنظر في البئر ، التي لم يكن عمقها أكثر من خمس عشرة قدمًا ومبطنة بالحجارة الكبيرة . وبالطبع ،لم يكن هناك أي أثر لثعبان البحر . قاموا بتركيب مضخة ومتحوا الماء من البئر ، ولا علامة حتى الآن على وجود ثعبان البحر . ونزل مقدم البرنامج ، مارتن إمتيناس ، وفتش الشقوق بين الحجارة بينما يتقطر الماء عائداً إلى الداخل ، ولا علامة على وجود ثعبان البحر أيضاً .

وكانوا يهمّون بإعادة الغطاء الحجري الكبير إلى مكانه عندما اكتشفوا فجأة حركة في الماء العكر في قاع البئر ؛ وهبط إمتيناس عائداً إلى أسفل للتحقق مما قد يكون .

كان ثعبان بحر برانتيفيك الغامض، الذي تمكنوا أخيرًا من سحبه، مخلوقًا غريبًا. كان صغيرًا (طوله إحدى وعشرون بوصة)، نحيلاً وشاحباً، وإنما بعيون كبيرة بشكل غير طبيعي. وفي حين تقلصت جميع أجزائه الأخرى للتكيف مع الحياة في البئر الضيقة المظلمة، نمت عيناه لتصبح أكبر بعدة مرات من عيون ثعبان البحر العادي -كما لو أنه كان يحاول تعويض الضوء الذي فقده. وبينما انسلّ عبر العشب بجوار البئر، بدا مثل زائر من عالم آخر، موسوماً بطريقة مفرطة المأساوية بحياة الظلام والعزلة. فائق الغرابة والاغتراب بدا بمجرد سحبه إلى الضوء لينضم إلى بقيتنا. وقال إمتيناس لاحقاً: «من الممكن تمامًا أن تكون أسطورة ثعبان بحر برانتيفيك حقيقية». ربما كان عمره مائة وخمسون عامًا حقًا. وبعد أن عاش قرناً ونصف القرن في تلك الظروف، ربما شعر طاقم التلفزيون بأنه سيكون من منتهى القسوة إقلاق النظام الذي سمح لثعبان البحر بأن يخدع الموت كل هذا الوقت الطويل. وبعد قياس ثعبان البحر وفحصه، أعادوه إلى البئر، وعاد إلى الظلام حيث بدا أنه عازم على البقاء بعدنا جميعًا.

عاش ثعبان بحر برانتيفيك بضع سنوات أخرى قبل أن يستسلم أخيرًا. في آب (أغسطس) 2014، اكتشف صاحب البئر أنه مات. وتم شحن رفاته إلى مختبر في ستوكهولم، حيث كان يُؤمل أن يحدِّد عدد الحلقات الموجودة في حُصيّة الأذن، وهي نوع من عضو كلسيّ في الأذن الداخلية، عمره الحقيقي مرة وإلى الأبد. ولكن لسوء الحظ، لم يتم العثور على أي حُصيّة؛ ربما اختفى الهيكل البلوري الصغير عندما تحلل الجسم. وتم حفر الرواسب الموجودة

في قاع البئر وغربلتها ، لكن الحُصيّة لم تكن هناك أيضاً . وهكذا ، بطريقة أو بأخرى ، تمكن ثعبان البحر من خداع البشرية مرة واحدة أخيرة ، حتى بعد أن أصبح مرهقًا للغاية بحيث لا يمكنه أن يواصل خداع الموت .

بغض النظر عن أي جوانب من أسطورة ثعبان بحر برانتيفيك كانت صحيحة ، فإن قدرة ثعبان البحر على العيش فترة طويلة جداً هي حقيقة . وقد تم اصطياد أقدم ثعبان بحر أمكن التحقق من عمره تقريبًا في هلسينغبورغ في العام 1863 على يد صبي عمره اثنا عشر عامًا يدعى فريتز نيتزلر . كان عمرُ ثعبان البحر بضعة أعوام في ذلك الحين ، نحيلًا ولا يزيد طوله عن خمس عشرة بوصة . وكان قد وصل من رحلته الطويلة من بحر سارغاسو ، وتحول من ثعبان بحر زجاجي إلى أصفر ، وتجول في أوريسوند وإلى أعلى ممر مائي يدعى هولسوبوخين ، والذي كان يمر في ذلك الوقت مباشرة عبر متنزه في وسط هلسينغبورغ . وهناك ، قبل أن يتمكن ثعبان البحر من قطع أكثر من بضع مئات من الأمتار فوق الممر المائي ، أمسك به فريتز نيتزلر . وسمّى ثعبان البحر «بوتي» واحتفظ به في خزان صغير في الشقة في هلسينغبورغ حيث يعيش . وكبر ثعبان البحر في العمر ، وإن لم يكن في الحجم . مرت السنين وظل ثعبان البحر في مرحلة الطفولة ، نحيلاً وأطول قليلاً فقط من خمس عشرة بوصة .

كان بوتي في العشرين من عمره تقريبًا عندما توفي والد فريتز نيتزلر ، الذي كان اسمه فريتز أيضاً وكان طبيبًا ، وانفصل ثعبان

البحر عن آسِره لبعض الوقت . وتنقل بوتي وخزانه من عائلة إلى أخرى في هلسينغبورغ . وربما عاش أيضًا في لوند ردحاً من الزمن .

كان عمره أربعين عامًا تقريبًا عندما عاد في العام 1899 إلى فريتز نيتزلر الابن ، الذي أصبح بدوره رجلًا وطبيبًا مثل والده . وكان بوتي لا يزال نحيفًا وطوله أكثر من خمس عشرة بوصة بقليل . وبعد الكثير جداً من السنوات التي قضاها في خزانات صغيرة في شقق معتمة ، كبُرت عيناه بشكل غير متناسب ، تمامًا مثل ثعبان بحر برانتيفيك . ويقال إن بوتي كان يأكل من يد فريتز . ومن بين اللحم أو السمك ، كان طعامه المفضل هو كبد العجل المقطع إلى قطع صغيرة .

في نهاية المطاف ، عاش ثعبان البحر بعد آسِره . كان بوتي يقترب من عيد ميلاده السبعين عندما توفي فريتز نيتزلر الابن في العام 1929 . وبعد بضع سنوات قضاها مع عائلة أخرى ، تم التبرع به أخيرًا إلى متحف هلسينغبورغ في العام 1939 . وهناك توفي بوتي في نهاية المطاف ، في الثامنة والثمانين من عمره في العام 1948 . وتم تحنيط بوتي ، وهو محفوظ اليوم في المتحف . وبحسب كتالوجه ، فإن هذا المعروض يتكون من «بوتي ثعبان البحر في خزان مع غطاء ، يحتوي على ثعبان البحر محفوظاً في السوائل والصخور» . ويبلغ طول الخزان عشرين بوصة . وطول بوتي نفسه ، في شكله المحنط ، أقل من خمس عشرة بوصة .

وهكذا ، يغلِبُ أن يكون بوتي ، ثعبان البحر ، قد عاش تسعين عامًا تقريبًا وكان ما يزال ، بالمعايير البشرية ، مراهقًا تقريبًا . لأنه ، مثل ثعبان بحر برانتيفيك ، لم يكن بوتي مجرد ثعبان بحر ظلَّ

صغير الحجم بشكل ملحوظ ؛ إنه لم يخضع أبدًا للتحول الأخير الذي كان سيحوله إلى ثعبان بحر فضي ناضج جنسيًا . وهو ما يشير إلى جانب غامض آخر من سؤال ثعبان البحر : كيف يعرف ثعبان البحر أن يبدأ تحولاته المختلفة؟ كيف يعرف ثعبان البحر عندما تكون حياته مقبلة على نهاية وأن بحر سارغاسو يؤمئ له ويدعوه؟ ما نوع الصوت الذي يجعله يعرف أن وقت المغادرة قد حان؟

لا يمكن أن يكون هذا شأناً عشوائياً فحسب ؛ لأنه يبدو أن ثعبان البحر قادر على تعليق قدوم شيخوخته ، بغض النظر عن المدة التي يعيشها . عندما تتطلب الظروف ذلك ، يتم تأجيل تحوله النهائي إلى أجل غير مسمى . إذا لم يكن ثعبان البحر حرًا في الذهاب إلى بحر سارغاسو ، فإنه لن يخضع للتحول النهائي ؛ لن يتحول إلى ثعبان بحر فضي ، ولن يصبح ناضجًا جنسيًا . بدلاً من ذلك ، سوف ينتظر بصبر لعقود ، حتى تقدم الفرصة نفسها أو تنفد منه قوته . عندما لا تسير الحياة بالطريقة التي من المفترض أن تسير بها ، يستطيع ثعبان البحر أن يوقف كلَّ شيء ، وأن يؤجل موته إلى أجل غير مسمى تقريبًا .

عندما التقطت دراسة علمية في أيرلندا في الثمانينيات عددًا كبيرًا من ثعابين البحر الفضية الناضجة جنسيًا ، اكتُشف أن أعمار الأسماك -التي كانت في طريقها إلى بحر سارغاسو ، وبالتالي في المرحلة الأخيرة من حياتها ، تختلف بشكل كبير . كان عمر الأصغر ثماني سنوات فقط والأكبر سبعة وخمسين . كانوا جميعًا في نفس المرحلة التطورية ، في نفس العمر النسبي ، إذا شئت ، ومع

ذلك عمر أكبرها سناً أكثر بسبع مرات من أصغرها .

هنا ، عليك أن تسأل نفسك : كيف يمكن لمخلوق مثل هذا أن يدرك الوقت؟

بالنسبة للبشر ، ترتبط تجربة الوقت حتمًا بعملية الشيخوخة ، وتتبع الشيخوخة مسارًا زمنيًا يمكن التنبؤ به إلى حد ما . ولا يخضع البشر لتحولات بالمعنى التقني ؛ إننا نتغير لكننا نظلُّ الشيء نفسه . وبشكل عام ، يمكن أن تتفاوت الصحة بطبيعة الحال بين الأفراد . يمكن أن نعاني من مرض أو إصابة ، لكننا نعرف بشكل عام تقريبًا متى نتوقع قدوم مرحلة جديدة ؛ إن ساعتنا البيولوجية ليست مرنة بشكل خاص ؛ ونحن نعرف عندما نكون صغارًا وعندما نصبح أكبر سناً .

على النقيض من ذلك ، يصبح ثعبان البحر شيئًا آخر مع كل مرة يتحول فيها ، ويمكن إطالة أو تكثيف كل مرحلة من مراحل دورة حياته اعتمادًا على مكانه والظروف . ويبدو أن الشيخوخة في حالته ترتبط بشيء آخر غير الوقت .

هل يختبر مخلوق مثل ثعبان البحر الوقت كعملية ، أم أنه يختبرها أكثر كنوع من حالة؟ هل لديه ، ببساطة ، طريقة مختلفة لقياس الوقت؟ وقتِ المحيط ، ربما؟

زعمت راشيل كارسون أنه في البحر ، عميقاً في الأسفل حيث تتكاثر ثعابين البحر وتموت ، يتحرك الوقت بشكل مختلف عن الطريقة التي يتحرك بها بالنسبة لنا . في الأسفل ، يستنفد الزمن فائدته بطريقة أو بأخرى ويكون غير ذي صلة بخبرة الواقع . في الأسفل ، لا توجد قياسات تراتبية منتظمة . ليس هناك ليل

ولا نهار ولا شتاء ولا صيف . كل شيء يتكشف هناك بإيقاعه الخاص . وكتبت راشيل كارسون كتابها «تحت ريح البحر» عن الهاوية تحت بحر سارغاسو ، حيث «يأتي التغيير ببطء ، حيث لا معنى لمرور السنين ، ولا لتعاقب المعنى» . كتبت «البحر من حولنا» عن الإبحار عبر المحيط المفتوح في ليلة ترصّعت سماؤها بالنجوم ، والتحديق في الأفق القصيّ والشعور بأن الوقت والفضاء لا تحدهما حدود : «وبعد ذلك ، كما لا يحدث على اليابسة أبدًا ، يعرف حقيقة أن عالمه هو عالم مائي ، كوكب تهيمن عليه عباءة المحيط التي تلفه ، والذي ليست القارات فيه سوى توغلات عابرة لليابسة فوق سطح البحر المحيط بكل شيء» .

أقدم الكائنات التي وجدناها حتى الآن جاءت كلها من البحر . وقد تبيّن أن المحار «مينغ» ، ما يدعى قوقعة المحيط الأميركية ، والذي اصطيد قبالة ساحل أيسلندا في العام 2006 ، يبلغ من العمر خمسمائة وسبع سنوات على الأقل . وقدر العلماء أن عام ميلاده هو 1499 ، بعد سنوات قليلة من وصول كولومبوس إلى أمريكا الشمالية وخلال عصر سلالة مينغ في الصين . ولا أحد يدري كم من الوقت كان يمكن أن يعيش لو لم يقم العلماء أيضاً ، في غمرة جهودهم لتحديد عمره ، بقتله عن طريق الخطأ . وفي المحيط الهادئ ، إلى الشرق من الصين ، توجد كائنات تسمى «الإسفنج الزجاجي» ، والتي ثبت أنها قادرة على العيش لأكثر من أحد عشر ألف عام . في قاع البحر ، حيث مدار الأرض وشروق الشمس وغروبها هي شؤون لا معنى لها ، يبدو أن الشيخوخة تتبع قانونًا مختلفًا . وإذا كان هناك حقاً

شيء خالد أبدي أو شبه أبدي ، فإن المحيط هو المكان حيث يمكنك العثور عليه .

ربما لا تكون ثعابين البحر خالدة ، لكنها كذلك تقريبًا . وإذا سمحنا لأنفسنا بأنسنتها قليلاً ، فيجب علينا أن نسأل أنفسنا حتمًا عن كيفية تمكنها من العيش كل هذا الوقت . سوف يقول معظم الناس إنه لا يوجد شيء أسوأ من الملل . الضجر والانتظار شيئان وحشيان يصعب تحملهما ، والوقت لا يكون حاضراً ومُلحاً أبداً مثلما هو حاله عندما نشعر بالملل . وسوف يرتجف المرء بمجرد التفكير في مائة وخمسين عامًا يقضيها في قاع بئر مظلمة ، وحيدًا وفي حالة حرمان حسيّ عملياً . عندما لا تكون هناك أحداث أو تجارب تشغلنا عن الوقت ، فإنه يصبح وحشًا ؛ شيئاً لا يطاق .

أتخيَّلُ مائة وخمسين عامًا أقضيها وحدي في الظلام مثل ليلة بلا نهاية وبلا نوم ؛ من نوع تلك الليلة التي تستطيع أن تشعر فيها بكل ثانية تُضاف إلى التي سبقتها ، مثل أحجية صور مقطوعة بطيئة متطاولة لا تنتهي . أحاول أن أتخيل نفاد الصبر في ليلة كهذه ، بينما أكون مدركاً لمرور الوقت ، وغير قادر مع ذلك على تسريعه حتى بأقل قدر ممكن .

لثعبان بحر ، كما يبدو ، تكون الأمور مختلفة . من المحتمل أن لا يعاني حيوان من الملل بنفس الطريقة التي يعاني بها منه البشر . ليس للحيوان مفهوم محسوس للوقت ، للثواني وهي تتحول إلى دقائق وسنوات وعمر كامل . ربما لا يجعل الملل ثعبان البحر نافد الصبر .

لكن هناك نوعاً مختلفاً من نفاد الصبر ، والذي قد يكون ذا صلة . إنه ذلك الذي نشعر به عندما نضطر إلى اختبار قلة الإنجاز ؛ نفاد الصبر من توقفك عن فعل ما خططت لفعلِه .

هذا ما أفكر فيه عندما أفكر في ثعبان بحر برانتيفيك . حتى لو أنه عاش مائة وخمسين سنة ، وبغض النظر عن المدة التي تمكن خلالها من تأجيل الموت ، لم يكن لديه ما يكفي من الوقت للقيام برحلته المقدّرة مسبقاً واستكمال وجوده . وقد تغلب على كل عقبة ، ونجا من كل شيء حوله ؛ وتمكن من مواصلة حياته الطويلة البائسة –من الولادة إلى الوفاة– لمدة قرن ونصف القرن . ولكن ، حتى مع ذلك ، لم يتمكن أبداً من العودة إلى بحر سارغاسو . لقد أوقعته الظروف في فخ حياة من الانتظار الذي لا ينتهي .

من هذا يمكننا أن نتعلم أن الوقت رفيق غير موثوق ، وأنه بغض النظر عن مدى سرعة مرور الثواني ، فإن الحياة تنتهي في رمشة عين : إننا نولد مع موطن وتراث ، ونفعل كل ما في وسعنا لتحرير أنفسنا من هذا المصير ، بل إننا قد ننجح ، لكننا ندرك سريعاً بما يكفي أنه لا خيار لدينا سوى أن نرتحل عائدين إلى حيث أتينا . وإذا لم نتمكن من الوصول إلى هناك ، فإننا لا نكون قد انتهينا قط ؛ هناك نكون ، شاعرين ، في ضوء إدراك مفاجئ ، وكأننا عشنا حياتنا كلها في قاع بئر مظلمة ، بلا أي فكرة عمَّن نكون حقًا . ثم فجأة ، ذات يوم ، يكون الأوان قد فات .

مكتبة
t.me/t_pdf

نصب مصيدة لثعابين البحر

كنا نسكن في منزل مبني من الطوب الأبيض -أمي وأبي وأختي الكبرى وأختي الصغرى، وأنا. وكان لدينا مرآب، وحديقة، وأشجار فاكهة، ودفيئةٍ تزرع فيها أمي وأبي الطماطم. وكانت لدينا جميعًا غرفنا الخاصة، وحمام بحوض استحمام، ومطبخ لائق، وغرفة معيشة مع لوحات على الجدران حيث لم يقض أحد منا أي وقت فيها أبداً. وكانت لدينا غرفة تلفاز بأريكة كبيرة. وكان لدينا قبو مع غرفة غسيل وغرفة للمرجل. وكانت لدينا حديقة مزروعة بالبطاطس والجزر والفراولة، وفيها كومة من السماد حيث يمكنك أن تستخرج الديدان. وكانت لدينا طاولة لكرة الطاولة، ونول للغزل، ومجمِّدة إضافية، وجهاز لصنع الخمور كان ينفجر كل شهرين أو نحو ذلك في حوض الاستحمام، مرسلاً رائحة نتنة قوية في جميع أنحاء المنزل. وكانت لدينا شجرة تفاح وشجرة برقوق، واللتين شكلتا معًا مرمى مثاليًا لكرة القدم. كان لدينا صندوق رمل وحديقة شتوية بسقف بلاستيكي يدلف الماء مثل رصاص البندقية عندما تمطر. كنا نعيش في شارع بُنيت فيه جميع المنازل في نفس الوقت. وكان جيراننا من الجزارين ومربي الخنازير والبوابين وسائقي الشاحنات، وكان هناك أطفال في كل مكان. كنا غير ملحوظين مُطلقاً. كنا غير ملحوظين بشكل مثير للدهشة. وكان هذا هو الشيء الوحيد الذي جعلنا مميزين.

فهمت في وقت مبكر أن الحياة التي صنعها أمي وأبي لنفسيهما لم تكن شيئاً مفروغاً منه . لقد جاءا كلاهما من أماكن أخرى ، وانتهى بهما المطاف حيث هما ، لأن أشخاصًا مثلهما انجرفوا في عملية غيرت خلال ثلاثة عقود قصيرة كل شيء تقريبًا . لم يكن ذلك انتقالاً طبقياً فردياً ، وإنما جماعيًا . ثلاثةُ عقود من الإصلاح الاجتماعي في السويد نقلت الطبقة العاملة -أو أجزاء منها على الأقل- من أكواخ العمال وشققهم الضيقة إلى منازلهم المنفصلة الخاصة ، المكتملة بمواقف السيارات ، وأشجار الفاكهة ، والدفيئات . كانت تلك حركة عظيمة ، مثل تيار هائل في محيط .

ولد أبي في صيف عام 1947 . وكانت أمُّه ، جدتي ، بعمر عشرين عامًا في ذلك الوقت وكانت تعمل منذ أكثر من ست سنوات . بعد سبع سنوات في المدرسة ، حصلت على تثبيتها المسيحي ، ثم في سن الرابعة عشرة ، بدأت العمل كخادمة . في صباح اليوم التالي لتثبيتها ، ركبت دراجتها الهوائية وانطلقت إلى وظيفتها الأولى . وقد اشترت الدراجة بنقود قرض سددته بأقساط شهرية من عشر كرونات . وكان راتبها خمساً وعشرين كرونة في الشهر .

عاشت مع والديها وخمسة أشقاء . كان والداها عاملين زراعيين متعاقدَين يتلقيان أجرة عينية من الطعام بدلاً من المال : في شكل مقنَّع من العبودية البيضاء . وعاشت الأسرة في كوخ عمال نموذجي . ثلاث غرف : مطبخ ، وغرفة نوم نام فيها جميع أفراد الأسرة الثمانية -اثنان في كل سرير- وصالون لم يكن يُسمح لأحد بدخوله خلال النهار . وثمة مرحاض خارجي ، وموقد حطب ونوافذ تلعب بها الريح ، وأب عنيف . كانوا أناسًا بلا ممتلكات . وحتى بعد إلغاء

نظام العمال المتعاقدين في العام 1945 ، ظلوا في نفس المنزل ، يعيشون ويعملون كما كانوا من قبل . كان العمال المتعاقدون يعرفون مكانهم تماماً . وكذلك فعل أبناء العمال المتعاقدين .

كانت جدتي جميلة بطريقة بسيطة خالية من التظاهر ؛ كانت تبتسم في كثير من الأحيان وكانت لها عينان خجولتان بلمسة حُزن . عملت كخادمة في نحو عشرة بيوت مختلفة خلال مراهقتها ، تغسل الأطباق ، وتكنس ، وتنفض الغبار وما إلى ذلك ، من السابعة صباحًا حتى السابعة ليلاً . وكانت لديها أيام الأحد وبعد ظهر يوم واحد في الأسبوع كإجازة . كانت تنام وحدها في غرفة الخادمة ولم تكن سعيدة –لم تكن سعيدة لكونها خادمة ؛ ولم تكن سعيدة بالعيش كطارئ غريب في بيوت الآخرين ، ولم تكن راضية بالتوبيخ والاحتقار والخضوع . كانت مصابة دائمة بداء الحنين إلى المنزل ، إلى أخواتها وإخوتها وطفولتها المسروقة .

قبل أن تلد أبي مباشرة ، كانت جدتي قد عادت للعيش مع والديها ووجدت عملاً في مصنع المطاط في المدينة . وقد فضلت العمل في المصنع على عمل الخادمة ، لكنها كانت أيضًا والداً وحيدًا لطفل صغير . مُنحت شهرين لإجازة الأمومة ، ثم اضطرت للعودة إلى العمل . وكان والداها وشقيقاتها الأصغر مسئولين عن العناية بأبي خلال النهار .

كان أبي في السابعة من عمره عندما انتقل هو ونانا إلى المزرعة بجوار النهر .

كانت مزرعة مستأجرة ، مملوكة للكنيسة ، فيها خنازير وحقول وحديقة مليئة بالزهور التي اعتنت جدتي بها . وتم تعيين أبي

للعمل في المزرعة منذ البداية ،لكنه أحب أيضًا الملاكمة واستخدام المقلاع . ركض عبر الحقول إلى النهر وتعلم السباحة فوق منحدرات النهر مباشرة . وذهب إلى المدرسة وكان مهتمًا بالتاريخ والعلوم ، لكنه ترك المدرسة في نهاية المطاف وبدأ العمل . كان ينقل الخنازير إلى المسلخ . وأدى خدمته العسكرية والتقى بأمي وحصل على وظيفة كراصف للطرق ، والتي احتفظ بها حتى نهاية أيامه .

أثناء نشأة أبي ، قدمت السويد دعمًا شاملاً للأطفال ، ودعمًا للدخل ، ومعاشات مهنية . أصبحت ضرائب الدخل فردية . وتم توسيع الرعاية الصحية ، ورعاية الأمومة ، ورعاية الأطفال ورعاية المسنين جميعاً . وجرت إعادة توزيع للثروة . وتم تمديد أسبوعي العطلة الممنوحة سنوياً إلى أربعة . وأخذ المجتمع والدولة أجزاء كبيرة من مسؤولية شبكة الأمان الاجتماعي من العائلات . وبعبارات أخرى ، أصبح بإمكان عامل في رصف الطرق وأم تعمل في الرعاية النهارية ، والديّ ، أن يعيشا حياة مختلفة في كل شيء عن تلك التي عرفتها الأجيال السابقة من الطبقة العاملة .

لم يكن أي شيء في حياة والديّ مُعطىً ، بطبيعة الحال ، لكنه لم يكن صدفة أيضاً . ثمة قوة كبيرة تدخلت أيضاً . كانا مثل أوراق صفصاف في تيار عظيم ، وارتحلا عبر محيط كبير من دون أن ينتقلا من مكانهما على الإطلاق .

كان أبي في العشرين وأمي في السابعة عشرة من العمر عندما أنجبا شقيقتي الكبرى . وبعد بضع سنوات لاحقاً فقط ، حصلا على قرض من البنك وبنيا منزلاً من الطوب الأبيض .

ذات يوم ، وضع والدي شيئاً طويلاً ، ضيقًا وغريب المظهر مصنوعًا من أطواق معدنية وشبكة في الحديقة أمام المنزل .

«إنه فخ لثعابين البحر» . قال أبي . «اشتريته» .

ولا أعرف ممن اشتراه على أي حال ؛ لكنه لم يكن جديداً على أي حال ؛ كانت ثقوب كبيرة عديدة تتوزّع في الشبكة ، والتي قمنا بإصلاحها بخيط حياكة ، ولكن كان هناك شيء مدهش بشأنه أيضاً . كان طوله حوالي خمس عشرة قدمًا ، عريضاً بشكل كبير في أحد طرفيه ويستدق باتجاه نقطة في الطرف الآخر ، وله جناحان شبكيان عند الفتحة يمكن بسطهما إلى الجانبين ، مما يجعله بعرض عشرة أقدام على الأقل . وقد تصورته في قاع النُّهَير ، حيث يلتقط كل شيء يحمله التيار . سوف يمتلئ إلى حافته بالأسماك . كان هذا شيئًا آخر غير نصب الصنانير . كان شيئًا يخلّ بتوازن القوى . بهذا الفخ ، لن نكون ضيوفًا مؤقتين وغير مزعجين على دورة الحياة والنشاط المستمرة في النهير ؛ سوف نكون كليّي القدرة تقريباً . وبدا الأمر كما لو أننا نستطيع الآن أن نتدخل في النظام الأساسي للأشياء .

تناولنا العشاء ودفع أبي بعض التبغ الرطب بين شفتيه ثم اتخذنا طريقنا نزولاً إلى الجدول بينما ما يزال هناك ضوء . انزلقنا إلى أسفل المنحدر وسرنا على طول المسارات العريضة ، ووقفنا بجانب شجرة الصفصاف . كانت السماء تمطر لعدة أيام وأصبح مستوى الماء مرتفعاً والنُّهير أعرضُ ببضع أقدام على الأقل من المعتاد ويفيض على ضفتيه في بعض الأماكن ، صانعاً تجمعات صغيرة من المياه الراكدة ، والتي تبرز منها أنصال عشب منفردة .

كان قاربنا يرسو بجانب شجرة الصفصاف ، يصارع سلسلته مثل حيوان عالِق في مصيدة . وقف أبي بلا حراك ، ودرس المياه العكرة التي تتدفق بسرعة وقوة أكبر من المعتاد . «اللعنة ، الماء ارتفع» ، قال وبصقَ في العشب . «حسنًا ، دعنا نجربها على أي حال» .

كنا قد أحضرنا معنا مطرقة ثقيلة ، وزوجاً من الأعمدة الطويلة وواحداً أقصر ، وضعناها مع المصيدة في القارب وانطلقنا .

«هل تريدني أن أجدّف؟» سألت .

«لا ، سأفعل أنا» أجاب . «أنتَ قُم بإعدادها» .

جدف مسافة ما في التيار ، واستدار ، وبدأ يناضل ضد التيار ، بعيدًا عن المنحدرات . أطلقت الركائز صريراً منتحِباً بينما يحرِّك أبي المجاذيف . وقاوم التيارُ مع كل ضربة ، رافعاً مقدمة القارب مباشرة إلى فوق . دمدم أبي وشتم وأمال كل جسمه إلى الخلف مع كل مرة يحرك فيها المجاذيف . وبعد حوالي مائة ياردة ، دلّى المجاذيف في الماء بشكل مستقيم تقريباً وشدها بذراعيه ، محاولًا إبقاء القارب ساكنًا . لكنه انحرف من جانب إلى جانب كما لو أنه يحاول أن يتحرر بتمزيق كل شيء . وحرك أبي المجاذيف لتفادي حركات القارب .

«خذ العمود الطويل ودقّه في القاع» ، قال أبي مشيراً برأسه إلى جانب بصبر نافد . بالتحسس ، وجدت العمود وغمستُ نهايته في الماء ، دافعاً إياه إلى قاع المجرى الموحل المتدفق بأقصى ما أستطيع من قوة . وعندئذٍ اندفع القارب متلوياً وكأنه يحاول أن يوقعني أرضاً ، لكنني تمكنت من الوصول إلى المطرقة وتوجيه بعض الضربات نصف المتقنة . رشّ الماء البني القذر وجهي .

كنا مبللين وقذرين عندما تمكنت أخيرًا من دق العمودين الطويلين وربط الأجنحة عند فتحة المصيدة بهما . كان وجه أبي محتقناً وكان يتنفس بصعوبة . رفع المجاديف وترك القارب ينزلق بضعة أقدام حتى أتمكن من تثبيت العمود الأقصر أيضًا وربْط النهاية المستدقة به . وانتشرت المصيدة أمامنا ، مختبئة في المياه العكرة ؛ فتحتها في منتصف التيار وكيسها الشبكي مثل غرفة سرية تحت السطح .

سحب أبي المجاديف بتنهيدة وترك القارب يطفو على هواه . بصق في الماء ونظر إلى العمودين البارزين مثل صواري سفينة غارقة .

«هذا الشيء الملعون يجب أن يجلب لنا بعض ثعابين البحر» .

في تلك الليلة ، نمتُ مع صور ثعابين بحر تومض أمام عيني . أطنان من الثعابين ، تومض بالأصفر والبني ، وتزحف حول قدميّ . كانت تفترق وتتكدس باحثة عن الهواء ، وتكافح لتتسلق ساقيّ مثل زواحف تصعد نحو الضوء . وكانت أعينها مثل الأزرار السوداء .

في صباح اليوم التالي ، كانت المياه قد تراجعت بعض الشيء . ووقف أبي يحمل المجاديف ويدرس التيار . يبدو أن التيار قد تباطأ ، وصفت المياه ، ولم يترتب عليه أن يحاول بنفس القدر من الجهد إدارة القارب ضد التيار والتجديف نحو الفخ .

لكننا عرفنا من بعيد أن ثمة شيئاً خطأ . وقف أحد الأعمدة الطويلة مائلاً في الماء ، وكان الآخر مفقوداً تماماً . وقد سُحبت المصيدة بأكملها وانقلبت ، وهكذا أصبحت الفتحة العريضة تشير إلى المصب بدلاً من المنبع ، متشبثة الآن فقط بالعمود القصير .

«اللعنة»! قال أبي .

جذّف أبي نحو العمود القصير. كانت المصيدة تتمايل إلى هذا الجانب وذاك؛ نزعتُ العمود وسحبتُ الشبكة المبلولة الباردة المغطاة بالنباتات الخضراء الداكنة إلى القارب. بلل الماء بنطالي وتخدَّرت يداي؛ رفع أبي المجاديف وسحب الفخ بصمت، ملقياً بالفروع والكتل الكبيرة من الأعشاب البحرية اللامعة من على القارب، وطوى الشبكة في كومة بيننا.

وكان عندئذ حين اكتشفته. في أقصى الطرف الضيق من الفخ، المخبأ جزئياً بالأعشاب البحرية، كان ثعبان بحر يتلوى ببطء من جانب إلى آخر. كان بحجم دودة عمياء، يزيد طوله قليلاً فقط عن سبع بوصات، رفيع وله نقطتان صغيرتان كعينين، واعتقدت أنه ما كان ينبغي أن تكون لديه مشكلة في الخروج من فتحتات الشبكة. غني عن القول إنه كان أصغر كثيراً من أن نحتفظ به، لكننا وضعناه في الدلو على أي حال.

«أريد أن آخذه إلى المنزل»، قلت.

«لماذا»؟ سأل أبي. «إنه صغير جداً على الأكل. من الأفضل تركه حتى ينمو».

«أستطيع أن أحتفظ به في الخزان، ذلك الذي في القبو»، قلت.

ابتسم أبي وهز رأسه. «ثعبان بحر كحيوان أليف...».

عندما عدنا إلى المنزل، وضعت الخزان في غرفتي. كان صغيراً، ربما بطول قدم ونصف؛ سكبت فيه بعض الرمل وأضفتُ حجراً كبيراً، وملأته بالماء، وأسقطت ثعبان البحر فيه، وغرق إلى القاع تقريباً دون أن يتحرك واستقر خلف الحجر.

لم أعطه اسماً قط. وعلى مدى الأسابيع التي تلت، استقر ثعبان

البحر هناك خلف الحجر ، وأنا جلست بجوار الخزان ، محدقاً فيه من خلال الزجاج في انتظار أن يتحرك ، في انتظار حدوث شيء ما ، في انتظار أن أجد فجأة شيئًا وراء عينيه السوداوين اللتين تبدوان ميتتين . حاولت أن أطعمه ، وأسقطتُ البق والديدان الصغيرة في الماء ، لكن نأمة لم تصدر عنه . استلقى فقط خلف الحجر كما لو أنه في سبات ؛ كما لو أن الزمن كفّ عن الوجود .

حاولت أن أتخيل ما يراه عندما ينظر من خلال الزجاج ، وما يشعر به . هل كان خائفاً؟ هل يتمارض؟ هل ظن أن العالم انتهى عندما انتُزِعَ من بيئته التي يألفها؟ هل يمكن أنه يتخيل وجودًا غير وجوده الراهن؟

بعد شهر ، لم أكن قد رأيت ثعبان البحر يتحرك بعد . كان مستلقياً مثل ميت خلف الحجر ، تنبض خياشيمه الصغيرة برفق على جانبي رأسه كعلامة وحيدة على الحياة . والماء أصبح عكراً ، تفوح منه رائحة الخراب .

«إنه لا يأكل» . قلت لأبي . «سوف يجوع حتى الموت» .

«أوه ، سوف يأكل عندما يحتاج إلى أن يفعل ، أراهن» .

«لكنه لا يتحرك أيضاً . أعتقد أنه يموت» .

بعد بضعة أيام ، جاء أبي إلى غرفتي وتفقد الخزان . نظر إلى المياه القذرة وثعبان البحر خلف الحجر ، وعبس ، وهز رأسه .

«لا ، هذا لا فائدة منه» .

في تلك الليلة ، عدنا إلى الجدول وحملت الدلو إلى الأسفل من السيارة . وعند شجرة الصفصاف ، وضعته والتقطت ثعبان البحر . بدا بارداً وبلا حياة ؛ أنزلت يدي إلى الماء وأطلقته . في البداية ،

وقفنا كلانا بلا حراك . ثم تحرك ثعبان البحر . تموَّج جسمه ببطء من جانب إلى آخر ، وبحركات لطيفة ، سبح مرة أخرى إلى الظلام واختفى .

الرحلة الطويلة إلى الوطن

يسبح ثعبان البحر الفضي السمين خارجاً إلى المحيط، منطلقاً في رحلته الأخيرة إلى بحر سارغاسو. كيف يعرف إلى أين تذهب؟ كيف يجد طريقه؟

عندما يتعلق الأمر بثعبان البحر، يمكننا أن نسمح لأنفسنا بطرح أسئلة سخيفة، ببساطة لأن الأسئلة السخيفة لا تكون لها دائمًا إجابات فورية. ويمكننا أيضاً أن نسمح لأنفسنا بأن نرحب بهذه الحقيقة. ينبغي أن نكون سعداء بأن المعرفة ليست لها حدود. وليست هذه مجرد آلية دفاع؛ إنها أيضًا طريقة تجعلنا نفهم حقيقة أن العالم هو مكان غير مفهوم. ثمة شيء غامر قاهر بشأن الغامض.

لأنه، ما الذي يعنيه حقاً قولنا إن ثعبان البحر يتكاثر في بحر سارغاسو؟ إنه يعني أن لدينا سببًا وجيهًا لتصديق ذلك، نظرًا لقضاء يوهانس شميدت ثمانية عشر عامًا في الإبحار ذهابًا وإيابًا عبر المحيط الأطلسي، وهو يلتقط أوراق صفصاف صغيرة شفافة. ونختار أن نثق بعمل شميدت وملاحظاته واستنتاجاته. نصدّق أن ثعابين البحر الفضية الناضجة تسبح كل الطريق إلى بحر سارغاسو لتفرخ، وأنه المكان الوحيد الذي تتكاثر فيه، وأن أياً منها لن تغادر المكان حية. ونصدق ذلك لأن كل شيء يشير إلى أنه حقيقي، ولأن أحداً لم يعرض بدائل معقولة. بل ويمكننا أن نذهب أبعد، لنقول إننا نعرف أن هذه هي الحكاية. كتب يوهانس شميدت:

«نعرف الآن الوجهة التي يسعى إليها» . بعد كل السنوات التي قضاها في عرض البحر ، لا بد أنه شعر بأن له الحق في استبدال الإيمان بالمعرفة .

ومع ذلك ، في هذه الحالة ، لا بُد أن تأتي أي معرفة مع مؤهلات . إن ما نعتمد عليه عندما نقول إننا نعرف أين يتكاثر ثعبان البحر ليس مجرد ملاحظات ، وإنما عدد من الافتراضات . وبالنسبة لشخص يريد أن يعرف على وجه اليقين ، من الواضح أن هذه مشكلة . إذا كنتَ تريد أن تكون قاطعًا بشأن الأمر ، وهو ما يميل ذوو العقول العلمية إلى أن يكونوه ، فإن المعرفة لا تكون مسألة درجات ؛ إنها ثنائية متعارضة : إما أنكَ تعرف أو لا تعرف . العلم أكثر صرامة بكثير من الفلسفة أو التحليل النفسي على سبيل المثال . والعلوم ، مثل علم الأحياء وعلم الحيوان ترتكز على أسس صلبة تماماً ، متشبثة باعتقاد أن البيانات يجب أن تكون تجريبية ، وأن المعرفة تتطلب المراقبة والملاحظة .

إلى حد ما ، هذا هو شبح أرسطو الذي ما يزال يطاردُنا . ينبغي أن تنبع كل المعرفة من التجربة . يجب وصف الواقع كما يبدو لحواسنا . فقط ما نراه يمكن أن يقال أنه صحيح . إنه التفسير لكيفية اكتساب البشر المعرفة عن العالم ، والتي بقيت لأنها منطقية –وإنما أيضًا لأنها تحمل في طياتها وعدًا . قبل أن نعرف ، يكون لدينا الإيمان فحسب ، لكن الذي يتحلى بالصبر يُكافأ دائمًا في نهاية المطاف . سوف تظهر الحقيقة تحت المجهر .

عندما نقول إننا نعرف أن ثعبان البحر ينجب في بحر سارغاسو ، تتبقى بعض الاعتراضات الأساسية على هذا التصريح التقريري :

(1) لم ير أي إنسان على الإطلاق ثعبانيّ بحر يتزاوجان .
(2) لم يشاهد أحد أبداً ثعبان بحر ناضج في بحر سارغاسو .

وهذا يعني أن سؤال ثعبان البحر ما يزال بلا إجابة ؛ ما يزال على الحقيقة أن تظهر تحت المجهر بعد . ومن الواضح أن هذا العوز إلى اليقين يعمل كقوة دافعة وطاقة جاذبة للمتحمسين لثعبان البحر . إن الغموض هناك كيما يُحل ، والأسئلة في انتظار إجاباتها ، لكن اللغز في نفس الوقت هو ما يثير الاهتمام ويديمُه . لعدة قرون ، تمسك الناس الذين نظروا إلى سؤال ثعبان البحر كمشكلة تنتظر الحل في نفس الوقت بشيء يشبه الحبَّ لأحجيته .

عندما كتبت راشيل كارسون عن ثعبان البحر في كتابها القريب من الحكايات الخيالية ، «تحت الريح البحرية» ، أطالت البقاء مع الغامض وغير المفسَّر . ولأنها عالمة طبيعة ، كان يمكن أن يراودها الإحباط بسبب عدم المعرفة ، ولكن العكس يبدو أنه كان صحيحًا . يبدو أن راشيل كارسون انجذبت إلى اللايقين . وقاربت ثعبان البحر والطبيعة –ليس كعالِمة فقط ، وإنما كإنسانة أيضاً .

على سبيل المثال ، عن رحلة ثعبان البحر الفضي الطويلة إلى بحر سارغاسو ، كتبت : «طالما انحسر المد ، غادرت ثعابين البحر المستنقعات وركضت خارجة إلى البحر . الآلاف منها مرت بالمنارة في تلك الليلة ، في الشوط الأول من رحلة بحرية طويلة ، بعيدة . وبينما يمرون عبر الأمواج ويخرجون إلى البحر ، كذلك مروا خارجين من مرأى الإنسان ومن المعرفة البشرية تقريباً» .

أرسطو ، فرانشيسكو ريدي ، كارل لينيوس ، كارلو مونديني ، جيوفاني باتيستا غراسي ، سيغموند فرويد ، أو يوهانس شميدت ،

ربما كانوا سيعترضون -ربما لم يكونوا سيقبلون أن مخلوقاً يمكنه في الواقع أن يغادر عالم المعرفة البشرية- أما لراشيل كارسون، فيبدو أن ثمة شيئاً بسيطاً وجميلاً كان حول فكرة اختفاء ثعابين البحر في المجهول؛ في وجود مخلوق يسعى بنشاط إلى تفادي منطقة المعرفة البشرية. كما لو أنّ هذه هي الطريقة التي يجب أن تكون عليها الأمور. وكتبت: «إن سجل رحلة ثعابين البحر إلى مكان تكاثرها مختبئ في البحر العميق. لا أحد يستطيع أن يتعقب مسار ثعابين البحر». بالنسبة لها، يبدو أن سؤال ثعبان البحر؛ ذلك اللغز المُقيم، بدا لها مقرراً سلفاً وأبدياً؛ كما لو أنه أحجية تذهب أبعد من فهمنا البشري؛ شيء مثل اللانهاية أو الموت.

يتمسك توم كريك، مدرِّس التاريخ والراوي في رواية غراهام سويفت «أرض الماء»، بنفس ذلك الشعور بنوع من اللا-تفسير المقدَّر عندما يشرح عن ثعبان البحر: «الفضول لن يقنع أبدًا. حتى في هذه الأيام، عندما أصبحنا نعرف الكثير، لم يتمكن الفضول من حل أحجية مولد ثعبان البحر وحياته الجنسية. ربما ثمة أشياء، مثل الكثير غيرها، يُقدَّر لها أن لا تُعرف قبل أن ينتهي العالم. أو ربما -لكنني هنا أتكهن؛ هنا فضولي هو الذي يقودني من أنفي- ربما يكون العالم مرتباً بحيث أنه عندما يُعرَف كل شيء، عندما يتم استنفاد الفضول (لذلك، فليعِش الفضول)، فإن العالم يكونُ قد وصل إلى نهايته. ولكن، حتى لو أننا عرفنا كيف، وماذا، وأين، ومتى، فإننا لن نعرف أبداً لماذا؟ لماذا، لماذا»؟

لذلك ، على الرغم من جميع الملاحظات والمشاهدات ومحاولات الفهم (حتى نهاية الوقت) ، تظل ثمة ثغرة في قصة ثعبان البحر . إننا نعلم أن ثعبان البحر الفضي يغادر في الخريف ، عندما يحل ظلام ثعابين البحر ، عادة ما بين تشرين الأول (أكتوبر) وكانون الأول (ديسمبر) . وتظهر أوراق صفصاف صغيرة ، يرقات ليبتوسيفالوس ، في بحر سارغاسو في الربيع ؛ العينات الأصغر عادة بين شباط (فبراير) وأيار (مايو) . وهو ما يجب أن يعني أن التكاثر يحدث حول هذا الوقت . وهو ما يزودنا بدوره بإطارٍ زمنيّ لرحلة ثعبان البحر ؛ لديه ستة أشهر على الأكثر للوصول إلى هناك .

وحتى مع ذلك ، فإن السبب في أن ثعبان البحر يحدّد مساره إلى بحر سارغاسو وليس إلى أي مكان آخر يبقى غامضاً . ثمة الكثير من الحيوانات التي تهاجر لأغراض التكاثر ، لكن القليل منها يقوم برحلة طويلة وصعبة مثل ثعابين البحر ، والقليل منها تركز بعناد على مكان واحد على بعد آلاف الأميال ، والقليل يفعل ذلك مرة واحدة فقط قبل أن يموت .

هناك نظريات تدعي أن بحر سارغاسو فقط له درجة الحرارة والملوحة المناسبة لتكاثر ثعابين البحر . ومن الحقيقي أيضاً أن ثعابين البحر كانت موجودة في العالَم منذ فترة طويلة عندما تحركت القارات ؛ ويغلب أن الثعابين الأولى كانت تقطع مسافة أقصر بكثير من السفر . ولكن ، بينما تحركت الكتل الأرضية في كوكبنا ، مفترقة عن بضعها بوصة في إثر بوصة على مدار السنين ، رفضت ثعابين البحر التكيف . وما تزال بحاجة للعودة إلى مسقط رأسها ؛ إلى المكان المحدد الذي أتت منه بالضبط .

وأكثر من أي شيء آخر، ما تزال كيفية وصول ثعابين البحر إلى هناك غامضة أيضاً. ما الطريق الذي تسلكه؟ كيف تجد طريقها وكيف تصل إلى هناك في الوقت المحدد؟ كيف يستطيع ثعبان بحر أن ينجح في قطع خمسة آلاف ميل تقريبًا من الأنهار والممرات المائية في أوروبا وعبر محيط عميق إلى الجانب الآخر من الأطلسي في غضون بضعة أشهر فقط؟

في عام 2016، نشر فريق بحث أوروبي تقريرًا عن الدراسة الأكثر شمولًا على الإطلاق حول رحلة ثعبان البحر الأوروبي نحو سارغاسو. على مدى خمس سنوات، وُضِعت علامات على ما مجموعه سبعمائة ثعبان بحر فضي بأجهزة إرسال إلكترونية، وتم إطلاقها من مواقع مختلفة في السويد وفرنسا وألمانيا وأيرلندا.

وبينما انعطفت ثعابين البحر غرباً وسقطت أجهزة الإرسال عنها في النهاية وطفت على السطح، محمَّلة بالمعلومات، استطاع الباحثون تكوين صورة لما تبدو عليه رحلتها فعليًا.

أو، كانت هذه هي الفكرة على الأقل، ولكن، كما هو الحال غالبًا عندما يتعلق الأمر بثعبان البحر، لم تسر الأمور كما هو مخطط لها. من بين السبعمائة جهاز إرسال، قدمت مائتان وستة أجهزة إرسال فقط أي معلومات على الإطلاق. ومن بين ثعابين البحر المائتين وستة تلك، بلغت سبعة وثمانون فقط مسافة كافية داخل البحر لتكشف بياناتها عن أي شيء مفيد حول ما ماهيّة رحلتها.

لكن البيانات من رحلات سبعة وثمانين من ثعابين البحر الفضية نحو بحر سارغاسو تظل أكثر بكثير مما كان لدينا من قبل،

وكشفت النتائج الكثير عن أيِّ عملية معقدة وصعبة هي هذه الهجرة السنوية . كان الاكتشاف الأول هو أن ثعابين البحر تسبح ليلاً ونهاراً ، وبدا أنها تنتهج استراتيجية مدروسة لتجنب الخطر . خلال النهار ، تنتقل عبر المياه الداكنة والأكثر برودة على عمق حوالي ثلاثة آلاف قدم . وفي الليل ، تحت غطاء الظلام ، ترتفع إلى الماء الأكثر دفئًا بالقرب من السطح . ولكن ، حتى مع ذلك ، اختفت نسبة كبيرة من ثعابين البحر خلال المراحل الأولى من الرحلة ، حيث سقطت فريسة لأسماك القرش والكائنات البحرية المفترسة الأخرى .

كان مما استطاع الباحثون رؤيته أيضاً أنه ليس كل ثعابين البحر تكون في عجلة من أمرها . من الناحية النظرية ، يمكن استيعاب الرحلة إلى بحر سارغاسو . وقد أظهرت التجارب أن ثعبان بحر يسبح بسرعة عادية ويتحرك أبعد قليلاً من نصف طوله في كل ثانية . ويستطيع ثعبان البحر الفضي الذاهب إلى بحر سارغاسو ، الذي لم يعد يصطاد أو يأكُل أو يسمح لأي من مشتتات الحياة بإبطاء تقدمه ، أن يسبح دون توقف لمدة ستة أشهر على الأقل من دون أن يستخدم أي شيء سوى احتياطياته من الدهون كوقود . وإذا قمتَ برسم خط على الخريطة من أي مكان في أوروبا إلى بحر سارغاسو ، وحسبت مدى السرعة التي ستحتاجها الثعابين للسباحة حتى تصل في موعد أقصاه شهر أيار (مايو) ، فمن المؤكد أن رحلة ثعبان البحر ستبدو ممكنة . إنها طويلة وبالغة الصعوبة ، ولكنها ممكنة .

مع ذلك ، من بين ثعابين الدراسة كان هناك الكثير من التي

بدت وأنها لا تدرك ما المطلوب منها بالضبط ، أو كم هو الوقت الذي لديها قليل . وقام عدد قليل من أفرادها المثيرين للإعجاب بتغطية متوسط واحد وثلاثين ميلًا في اليوم ، لكن البعض الآخر تمكنوا من قطع ميلين فقط .

كما اختارت ثعابين البحر أيضاً طرقًا متباينة بشكل كبير . ومن الواضح أن العديد من الطرق تؤدي إلى بحر سارغاسو . وقد اختارت غالبية الثعابين التي تم إطلاق سراحها على الساحل الغربي السويدي ، على سبيل المثال ، طريقًا شماليًا ، صعودًا عبر البحر النرويجي ثم غربًا عبر شمال شرق المحيط الأطلسي . واختارت جميعها نفس المسار تقريبًا ، باستثناء ثعبان بحر واحد ، والذي انحرف ، بعد أن وصل المحيط الأطلسي ، شرقاً فجأة واختفى دون أن يترك أثراً قُبالة تروندهايم ، النرويج .

أما ثعابين البحر التي تم إطلاقها في البحر الكلتي جنوب أيرلندا وفي خليج بسكاي الفرنسي ، فقد اتجهت جنوبًا قبل أن تنحرف غربًا . وتسكَّع أحدها غرب المغرب لأكثر من تسعة أشهر قبل أن يتمكن من الوصول إلى جزر الأزور .

واتخذت ثعابين البحر التي أُطلِقت قبالة ساحل بحر البلطيق الألماني طرقًا مختلف ، فاتبع البعض منها مسار ثعابين البحر السويدية ، وصوبت أنظارها نحو البحر النرويجي . واتجهت أخريات جنوبًا عبر القناة الإنجليزية ، لكنّ أياً منها لم يصل إلى المحيط الأطلسي . وسبحت ثعابين البحر التي تم إطلاقها من ساحل البحر الأبيض المتوسط الفرنسي غربًا نحو جبل طارق ، كما هو متوقع ، لكن ثلاثة منها فقط تمكنت من عبور المضيق إلى المحيط الأطلسي .

في البداية ، بدت النتائج عشوائية ، على أقل تقدير . فقد اتخذت تحركات ثعابين البحر أنماطًا غريبة على الخريطة ، كما لو أن شخصًا ما حاول رسم متاهة وهو معصوب العينين ، أو كما لو أنه لم يكن هناك شيء محدد مسبقًا وأن الرحلة كلّها كانت الأولى فحسب . لكنَّ شيئاً واحداً على الاقل اتضح بشكل لا لبس فيه : غالبية ثعابين البحر لم تصل أبدًا إلى أماكن تكاثرها ، وظلت رحلة العودة الطويلة إلى مسقط رأسها بالنسبة لمعظمها طموحًا مُحبطًا فقط .

قد تبدو هذه نتيجة قاتمة ، سواء لثعابين البحر نفسها أو لأصحاب الدراسة العلمية . لم يمكن تتبع أي من السبعمائة ثعبان بحر فضي الذي تم إطلاقها إلى بحر سارغاسو . ومن المستحيل أن نعرف ما إذا وصل أي منها حقاً على الإطلاق . عاجلاً أم آجلاً ، اختفت الثعابين في الأعماق مُغادِرة عالم المعرفة البشرية ، بينما طفت أجهزة الإرسال الإلكترونية وحدها على السطح .

مع ذلك ، تمكن فريق البحث من استخلاص بعض الاستنتاجات الجديدة والملفتة إلى حد كبير من ملاحظاتهم . كان الاكتشاف الأول الذي توصلوا إليه هو أن هجرة ثعابين البحر يمكن أن تكون أكثر تعقيدًا بكثير مما كان يُعتقد سابقًا ، لكنّ بالإمكان تفسيرها مع ذلك –جزئياً على الأقل . لأنه ، من الملاحظات التي بدت عشوائية في البداية وغير متوقعة ، ظهر نمط في نهاية المطاف . أولاً ، كان من الواضح أن ثعبان البحر نادرًا ما يأخذ أقصر طريق من نقطة انطلاقه إلى هدفه . ليست رحلته مثل رحلات الطيور أو الطائرات . ومع ذلك ، يبدو أن جميع ثعابين البحر في أوروبا تلتقي في مكان ما حول جزر الأزور ، في منتصف الطريق تقريبًا خلال رحلتها ،

وتواصل غربًا باتجاه بحر سارغاسو من هناك في تكوين متقارب أكثر بكثير . وإذا كانت الرحلة تبدأ بعدم اليقين وبعض الارتباك الطفيف ، فإنها تصبح أكثر قصداً مع تقدمها .

واكتشف الباحثون أيضًا شيئًا آخر يعقّد فهمنا لهجرة ثعابين البحر . عندما أعيد فحص عينات قديمة من يرقات ليبتوسيفالوس تم اصطيادها في بحر سارغاسو ومقارنتها من حيث الحجم ومعدل النمو ، أظهرت أن موسم تكاثر ثعابين البحر ربما يبدأ في وقت أبكر مما كان يُعتقد سابقًا ، ربما في وقت مبكر من كانون الأول (ديسمبر) . وهذا يعني أن التكاثر يبدأ في نفس الوقت تقريبًا الذي انطلقت فيه آخر الثعابين الفضية من سواحل أوروبا ، وهو ما يجعل السؤال عن كيفية وصولها إلى هناك في الوقت المحدد أكثر صعوبة أيضاً .

لكن التفسير ، كما زعم الباحثون ، يجب أن يكون بالطبع أن جميع ثعابين البحر لا تصل عبر المحيط الأطلسي في الوقت المناسب لموسم التكاثر القادم . بالنسبة للبعض ، يمكن أن تستغرق الرحلة الطويلة إلى بحر سارغاسو وقتًا أطول . ربما تقوم ثعابين البحر ببساطة بتعديل سرعتها ومسارها وفقًا لقدراتها . وبينما يسبح البعض بأسرع ما يمكن من أجل الوصول إلى بحر سارغاسو في أوائل الربيع ، يختار البعض نهجًا أكثر تمهلاً وينتظرون موسم التكاثر التالي بدلاً من ذلك .

في حين يستطيع ثعبان بحر ينطلق من أيرلندا ، على سبيل المثال ، أن يسافر غربًا في خط مستقيم تقريبًا ويصل إلى هناك بحلول الربيع ، قد يهدف ثعبان بحر قادم من بحر البلطيق إلى الوصول في كانون الأول (ديسمبر) ، بعد أكثر من عام من انطلاقه أول الأمر . ولن

يفسر هذا الاختلافات في السلوك الملاحظ فحسب ، وإنما سيضفي أيضًا نوعًا من المنطق والصلة على ما بدا في البداية عشوائيًا . ببساطة شديدة ، ربما لا تكون ثعابين البحر أفراداً لديهم قدرات مختلفة فحسب ، وإنما لديهم أيضًا وسائل وطرق مختلفة للوصول إلى هدفهم . ربما ييمّمون جميعاً شطر نفس الوجهة ، ولكن ليست هناك رحلتان إلى موطن الأصل متماثلتان تمامًا .

وهكذا ، يبقى سؤال واحد ، والذي ينطبق على كل من ثعابين البحر والبشر على حد سواء : كيف يعرفون أي طريق هو الذي سيعيدهم إلى حيث أتوا؟ كيف يجدون طريق عودتهم إلى البيت؟

من المعروف منذ فترة طويلة أن لثعبان البحر قدرات خاصة تجعله ماهرًا في الملاحة لمسافات كبيرة . من الثابت ، على سبيل المثال ، أن لديه حاسة شم استثنائية للرائحة . ووفقًا لخبير ثعابين البحر الألماني ، فريدريك-فيلهلم تيش Friedrich-Wilhelm Tesch ، الذي كتب العمل المرجعي القياسي ، «ثعبان البحر» ، في السبعينيات ، فإن حساسية حاسة الشم ثعبان البحر تُناظرُ مثيلتها عند الكلب . ضَع قطرة واحدة من ماء الورد في بحيرة كونستانس ، كما ادعى تيش ، ويمكن لثعبان البحر أن يشمها . ومن المحتمل أن ثعابين البحر تستخدم الرائحة بطريقة ما أثناء رحلتها عبر المحيط الأطلسي ، إما لتحديد موقع بحر سارغاسو نفسه أو لمعرفة مواقع بعضها البعض على الأقل . ومن المحتمل أيضًا أن يكون ثعبان البحر حساسًا للتغيرات في درجة الحرارة والملوحة ، وربما تدله على أي طريق هو الذي يجب

أن تسلكه . ويعتقد بعض العلماء أن الحاسة المغناطيسية المتطورة لثعبان البحر تشكل أداة ملاحية رئيسية . وعلى نحو يشبه كثيراً النحل والطيور المهاجرة ، يمكنه أن يشعر بالحقل المغناطيسي للأرض ويسترشد به ليتجه نحو وجهة معينة .

ونحن نعرف ما هي تلك الوجهة . وبطريقة ما ، تعرفها ثعابين البحر أيضًا . إنهم يعرفون إلى أين يتجهون ، حتى لو أنَ الطرق التي يختارونها يمكن أن تكون متعرجة وغير متوقعة . أما كيف يعرفون ، فأحد الألغاز التي ما تزال تحيط بسؤال ثعبان البحر ؛ إحدى الأحجيات التي يقدّرها حتى العلماء فيضعونها في مكان عزيز .

من جانبها ، وصفت راشيل كارسون معرفة ثعابين البحر الموروثة عن أصلها بأنها شيء أكثر من مجرد غريزة . في كتاب «تحت رياح البحر» ، تكتب عن كيف يشعر ثعبان البحر الناضج جنسياً ذات خريف فجأة «بشوق غامض إلى مكان دافئ ومظلم» ، وكيف أن هذه الثعابين التي عاشت حياتها الطويلة «بعيداً عن كل ما يُذكّر بالبحر» في البحيرات والأنهار ، تنطلق الآن إلى المحيط المفتوح غير المألوف ، لتجد هناك شيئًا مألوفًا ؛ شيئًا تتعرف عليه وتميزه ؛ إحساساً بالانتماء «في الإيقاعات الكبيرة والغريبة لمياه عظيمة كان كل واحد منها قد عرفها في بداية حياته» .

هل يتذكرون من أين أتوا وأين يذهبون الآن؟ هل يتذكرون رحلتهم الأولى عبر المحيط الأطلسي كأوراق صفصاف صغيرة شفافة؟ كلا ، ربما ليس بالمعنى الإنساني ، الواعي ، ليس وفقًا لتعريفنا للذاكرة . ولكن ، عندما حاول فريق البحث الأوروبي الذي تعقب المحاولات الناجحة –بدرجة أو بأخرى– لسبعمائة ثعبان بحر للوصول إلى

بحر سارغاسو ، تفسير كيف تجد ثعابين البحر طريقها إلى مسقط رأسها ، فإنهم يصفون الخبرة بأنها نوع من الذاكرة . وكتبوا أن الأمر بدا كما لو أن «ثعابين البحر تتبع إشارات شمّية تنشأ في منطقة التفريخ ، أو أنها تبحر باستخدام إشارات محيطية مطبوعة أو معروفة من طور يرقات ليبتوسيفالوس» .

لأن ما كشفته دراستهم أكثر من أي شيء آخر هو أنه ، كلما قطعت ثعابين البحر مسافة أبعد ، بدا أن المطاف ينتهي بهم وقد تبعت مساراً محدداً مسبقاً . ببساطة ، بدا أنها تتبع تيار الخليج وشمال الأطلسي ، وإنما في الاتجاه المعاكس . كما لو أن ثمة ذاكرةً ، خريطة ، ترسخت فيها عندما قامت بالرحلة من بحر سارغاسو إلى أوروبا كأوراق صفصاف صغيرة شفافة ، وكما لو أن تلك الذاكرة ظلت حية في ثعابين البحر ، وبقيت ثابتة خلال كل تحولاتها ، عشر أو عشرين أو ثلاثين أو خمسين سنة ، حتى يحين الوقت ذات يوم للقيام بنفس الرحلة في الاتجاه المعاكس ، مباشرة نحو تيار المحيط العظيم الذي حملها في الماضي وهي بلا حول ولا قوة إلى أوروبا .

وهكذا ، يعود ثعبان البحر الفضي أخيرًا إلى منزله ومسقط رأسه ، بحر سارغاسو ، بينما يختفي في الوقت نفسه بعيدًا عن الأنظار ومملكة المعرفة . لم ير أحد أبداً ثعبان بحر في بحر سارغاسو .

ومع ذلك ، حاول البعض . بعد بعثات يوهانس شميدت الاستكشافية التي استمرت سنوات طويلة في أوائل القرن العشرين ، سوف يمضي بعض الوقت قبل أن ينطلق أحد إلى

بحر سارغاسو للبحث عن ثعابين البحر مرة أخرى ، ربما لأن عمل شميدت كان مقنعًا جدًا -أو ربما لأنه كان محبطاً كذلك . لكن العقود القليلة الماضية شهدت زيادة في حركة البحث إلى بحر سارغاسو ، في بعثات يديرها بعض من أبرز خبراء ثعبان البحر في العالم . وقد ذهبوا للبحث عن معرفة أعمق لهجرة ثعبان البحر وتكاثره ؛ لاختبار النظريات الحالية بالتحقق منها أو دحضها -وإنما أيضًا للعثور على ما لم يتمكن أحد من العثور عليه حتى الآن : ثعبان بحر حي في بحر سارغاسو .

ذهب عالم الأحياء البحرية الألماني فريدريش-فيلهلم تيش في رحلة استكشافية كبيرة مع سفينتين ألمانيتين في العام 1979 ، وكانت النتيجة النهائية مقالًا استُشهد به كثيرًا بعنوان «رحلة بحر سارغاسو الاستكشافية ، 1979» . وقد نُفذت الحملة في الربيع وانتقلت عبر أجزاء كبيرة من منطقة التكاثر المفترضة لثعابين البحر . واستطاع تيش استخدام شباكه ومصائده في الموقع المحدد حيث يُعتقد أن التكاثر يحدث ؛ ومثل شميت ، أمسك بأعداد كبيرة من يرقات ليبتوسيفالوس الصغيرة ، ولكن بخلاف ذلك ، لم يجد أي علامة على وجود ثعابين بحر . على سبيل المثال ، تم جمع سبعة آلاف من بيوض السمك ، لكن الفحص الدقيق كشف أن أي واحدة منها لم تأتِ من ثعبان بحر . وغني عن القول أن الباحثين لم يروا أي ثعابين بحر ناضجة تتزاوج أيضاً .

عالم الأحياء البحرية الأميركي جيمس ماكليف James McCleave ، الذي ظل على مدار أكثر من ثلاثين عامًا واحدًا من أبرز خبراء ثعابين البحر في العالم ، ذهب في أول رحلة بحرية له

مع فريدريش-فيلهلم تيش في العام 1974 ، وقام برحلته الأولى إلى بحر سارغاسو في العام 1981 . ومنذ ذلك الحين ، عاد هو وفريقه سبع مرات أخرى ، مستخدمين طائفة من الأساليب المتطورة لمحاولة التقاط لمحة على الأقل لثعبان بحر . وكان مكليف قد اقترح نظرية تقول بأن المناطق التي تلتقي فيها مسطحات مائية مختلفة ذات درجات حرارة مختلفة -ما تسمى بالمناطق الأمامية- لثعابين البحر ، هي التي توفر الظروف المناسبة تمامًا للإنجاب . وكان في مثل هذه المواقع حيث التقط أصغر عينات من يرقات ليبتوسيفالوس ، وهي أيضًا المكان الذي بحث فيه بحماس شديد عن ثعابين البحر الناضجة . وأبحر جيمس ماكليف ذهابًا وإيابًا عبر هذه المناطق ، بسفن مجهزة بأدوات صوتية متطورة مصممة لالتقاط أصداء من ثعابين البحر التي تفرخ في الأعماق . وسجل بالفعل أصداء يحتمل كثيراً أن تكون قد أنتجتها ثعابين بحر متكاثرة حية . وكل مرة حاول الإمساك بها ، خرجت شباكه فارغة .

في إحدى البعثات الاستكشافية ، إلى جانب عالم زميل في الأحياء البحرية ، غيل ويبلهاوزر Gail Wippelhauser ، استخدم ماكليف المكر الخبيث تقريبًا لإغواء ثعابين البحر الخجولة من الأعماق . التقط فريقهم مائة من ثعابين البحر الأميركية الإناث كاملات النمو وحقنوهن بهرمونات لتحفيز النضج الجنسي . وكانت الخطة هي أن يأخذوا هؤلاء الإناث في بعثتهم ويضعوهُن في أقفاص مثبتة بعوامات في منتصف منطقة أمامية في بحر سارغاسو . والمقصود من الإناث هو استخدامهن كطُعم ، لجذب الذكور الذين يسبحون هناك للتكاثر ، وإجبارهم بذلك على الخروج من مخابئهم .

لكن ثعابين البحر كانت مترددة في المشاركة. وقد احتفظ العلماء بالإناث الناضجات في مختبر وكانوا على وشك الدفع بهنّ إلى رصيف الميناء في ميامي قبل المغادرة. ولكن، حتى قبل أن ترفع السفينة مرساتها، ماتت معظم ثعابين البحر تلك. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه البعثة إلى بحر سارغاسو، كانت خمسة فقط من أصل مائة من إناث ثعابين البحر ما يزلن على قيد الحياة.

مع ذلك، وُضعت ثعابين البحر الخمس الباقيات في أقفاص وربطت إلى عوامات، وتناوب ماكليف وويبلهاوزر على مراقبة حركة العوامات على مدار الساعة بمساعدة الرادار. لكنهم فقدوها جميعاً، لسبب غير مفهوم. اختفت ثعابين البحر والأقفاص والعوامات دون أن تترك أثراً ولم يرها أحد مرة أخرى.

وخلال رحلة استكشافية أخرى قام بها غيل ويبلهاوزر من دون جيمس ماكليف، التقطت آلات التنصت أصداء لما اعتُقد أنها مجموعة كبيرة من ثعابين البحر المتناسِلة؛ وألقى الباحثون عليها كل شيء لديهم، وأنزلوا ما لا يقل عن ست شبكات في الماء. ومع ذلك، لم تظهر أي علامة على أي ثعابين بحر.

وثمة تفصيل غريب آخر، بالطبع، هو أن الأمر لم يقتصر على عدم وجود ثعابين بحر حية في بحر سارغاسو فحسب؛ لم يسبق وأن اكتشف أحد واحداً ميتاً أيضاً، سواء في شكل جثة أو ضحية لمفترس أكبر. وقد تم اصطياد أسماك أبو سيف والقرش ووُجدت ثعابين بحر فضية في بطونها، لكن ذلك لم يكن قريبًا من بحر سارغاسو. وتم اصطياد حوت عنبر ذات مرة قبالة جزر الأزور مع ثعبان بحر في معدته كان في طريقه إلى التكاثر، لكن الأزور بعيدة

جدًا عن بحر سارغاسو . وهكذا ، بمجرد وصول ثعابين البحر إلى منطقة تكاثرها ، فإنها تتمكن دائماً من تجنب اكتشاف البشر لها في الحياة والموت على حد سواء .

يجب أن يقال إنه ما مِن إجماع على مدى أهمية العثور على ثعبان بحر ناضج في بحر سارغاسو . ويشعر بعض العلماء بأن ذلك ليس هو الفكرة ، لأننا نعلم مُسبقاً أن هذا هو المكان الذي تذهب إليه ثعابين البحر . ويدّعي آخرون أن معرفتنا بدورة حياة ثعبان البحر لا يمكن اعتبارها كاملة إلى أن يشاهد أحدٌ ثعابين البحر في أرض التكاثر . وبالنسبة لهؤلاء العلماء ، فإن ثعبان البحر المراوغ هو شيء مثل «كأس مقدسة» علميَّة . وفي العقود القليلة الماضية ، بدأ بعض الباحثين ، مثل جيمس ماكليف ، في طرح سؤال صعب آخر : إذا لم نتمكن من تعقب جميع ثعابين البحر الفضية وهي تعود إلى مكان ولادتها ، ولا حتى واحد منها في واقع الأمر ، هل يمكننا أن نكون متأكدين تمامًا من أن ثعابين البحر تتوالد فقط في بحر سارغاسو؟ من المؤكد أن جون شميدت استغرق قرابة عشرين عامًا للعثور على أصغر أوراق الصفصاف الضئيلة هناك ، لكنه لم يفتش سوى شذرة من محيطات العالم . وكتب شميدت نفسه في العام 1922 أنه إلى أن تتم غربلة كل البحار بشباك الصيد بحثاً عن يرقات ثعبان البحر ، فإنه سيكون من المستحيل أن نقول على وجه اليقين أين يتكاثر ، أو على الأقل أين تتكاثر كل ثعابين البحر . وعمليًا ، ركزت جميع حملات استكشاف ثعابين البحر منذ ذلك الحين ، بما في ذلك رحلات جيمس ماكليف ، على منطقة بحر سارغاسو المألوفة مسبقاً . هل يكون الأمر أن بعض ثعابين البحر

تذهب إلى مكان آخر تماماً؟ يبدو هذا مستبعداً ، ولكن ، كيف يمكننا أن نعرف على وجه اليقين؟

بالإضافة إلى ذلك ، بحر سارغاسو شاسع جداً . هل هو أرض تكاثر واحدة كبيرة ، أم أن هناك عدة مناطق منفصلة للتوالد داخل حدوده؟ هل تتكاثر ثعابين البحر الأمريكية والأوروبية في نفس المنطقة بالضبط ،أم أنها تفضل مواقع مختلفة؟ ادعى بعض العلماء ، ومن بينهم فريدريش-فيلهلم تيش ، أن ثعبان البحر الأمريكي يولد في الجزء الغربي من بحر سارغاسو بينما يبقى الأوروبي أبعد إلى الشرق ، لكن المناطق تتداخل جزئيًا . ويجادل البعض الآخر بأن اليرقات التي تم جمعها لا تدعم مثل هذه الاستنتاجات . إن كل ما نعرفه على وجه اليقين هو أنه عندما تغادر أوراق الصفصاف الصغيرة الشفافة بحر سارغاسو ، فإن الأوراق الأوروبية والأمريكية تختلط ، وتنجرف بلا حول في تيارات المحيط القوية ، بينما يبدو أن آباءها وأمهاتها يبقون ، ويموتون ، ويتحللون .

وهكذا ، يضطر علماء الحيوان وعلماء الأحياء البحرية الأبرز في العالم ، وهم الأكثر دراية بثعابين البحر ، إلى تأهيل تقاريرهم ونتائجهم بالتحفظات . إنهم ملزمون بقول شيء من قبيل : «نحن نعتقد» ؛ «تشير البيانات . . .» ؛ «يمكن افتراض أنّ . . .» . ومن خلال استبعاد السيناريوهات الأقل احتمالاً بصبر ، فإنهم يتحركون ببطء نحو احتمال يقترب بدوره من الحقيقة .

يمكن ، على سبيل المثال ، افتراض أن ما ينطبق على أحد أقرب

أبناء عمومة ثعبان البحر، ثعبان البحر الياباني، ينطبق أيضًا على ثعبان البحر الأوروبي. وعندما يتعلق الأمر بالثعبان الياباني، فإن بعض الجوانب الكلاسيكية لسؤال ثعبان البحر هي في الواقع أقل غموضاً.

بشكل أساسي، يبدو ثعبان البحر الياباني، «أنغيلا جابونيكا»، شبيهاً بنظيره الأوروبي. كما أن دورة حياته مشابهة للغاية أيضاً. إنه يفقس في البحر وينجرف نحو الساحل كورقة صفصاف، ويتحول إلى ثعبان بحر زجاجي ويتجول في الممرات المائية في اليابان والصين وكوريا وتايوان. ثم يصبح ثعبان بحر أصفر ويعيش حياته في الماء العذب قبل أن يتحول بعد سنوات عديدة لاحقاً إلى ثعبان بحر فضي ويتجول عائداً مرة أخرى إلى البحر ليفرخ ويموت. وهو سمكة شائعة جدًا للطهي، خاصة في اليابان، ولعب منذ فترة طويلة دورًا مهمًا في ثقافة وأساطير شرق آسيا، كرمز للخصوبة، من بين أمور أخرى.

عندما يتعلق الأمر بمسألة الإنجاب -أين وكيف يحدث- كان ثعبان البحر الياباني لغزًا أكبر بكثير من اللغز الأوروبي. لم يتمكن العلماء من تحديد موقع تكاثره إلا في عام 1991. وباستخدام نفس الأسلوب والتفاني اللذين استرشد بهما يوهانس شميدت، ومع أنها لم تستغرق نفس المدة، أبحرت عالمة الأحياء البحرية اليابانية، كاتسومي تسوكاموتو Katsumi Tsukamoto، في البحر بشبكات وأدوات، بحثًا عن عينات تزداد صغراً من يرقات ليبتوسيفالوس. وفي إحدى أمسيات الخريف في العام 1991، تمكنت أخيرًا من العثور على عينات عمرها أيام -أو ربما ساعات. وكان ذلك بعيدًا

جدًا في المحيط الهادئ ، فقط غرب جزر ماريانا .

بعد هذا الاكتشاف ، لم يمض وقت طويل قبل أن يتحقق اكتشاف أكثر إثارة . في خريف العام 2008 ، تمكن فريق بحث من معهد أبحاث الغلاف الجوي والمحيطات في طوكيو من التقاط ثعابين بحر يابانية كاملة النمو بالضبط في المنطقة الواقعة غرب جزر ماريانا حيث حددت النتائج موقع منطقة التكاثر . وتم اصطياد ذكر وزوج من الإناث . وكان الثلاثة قد تزاوجوا بالفعل وأصبحوا في حالة سيئة ، وماتوا بعد ذلك بوقت قصير . لكن هذا عنى العثور النسخة الآسيوية من «الكأس المقدسة» العِلمية منذ فترة طويلة . ولكن ، ماذا يعني ذلك؟ وفقًا لأحد أعضاء البعثة على الأقل ، مايكل ميللر Michael Miller ، لا شيء في الحقيقة . إنه لم يثبت أي شيء لم نكن نعرفه مسبقاً . إننا نعلم مسبقاً مكان تكاثرها تقريباً . لكننا ما زلنا لا نعرف بالضبط أين ، وكيف وصلت ، أو عدد الذين نجحوا منها . ما زلنا لم نرها تنجب . ولا نعرف لماذا . لماذا ، لماذا؟

تنطوي الأشياء الغامضة على جاذبيتها الخاصة ، لكن هناك أشياء توحي بأن سؤال ثعبان البحر الخالد سوف يُجاب عنه في نهاية المطاف . ليس الأمر أنه تم العثور على ثعابين بحر فضية بعد التكاثر في المحيط الهادئ فحسب ؛ لقد أنجز الباحثون هناك أيضًا ما لم يستطع أحد أن يصنعه مع ثعبان البحر الأوروبي أو الأمريكي . لقد نجحوا في توليد ثعبان البحر الياباني ، أنغيلا جابونيكا ، في الأسر . في وقت مبكر من العام 1973 ، تمكن العلماء العاملون

في جامعة هوكايدو من استخراج البيض من ثعابين بحر إناث ناضجات جنسياً، وقاموا بتلقيحه صناعياً وجعله يفقس ويصبح يرقات. ولم يكن مستقبل ثعابين البحر المهدّدة همّهم الأساسي آنذاك؛ كانت للمشروع بالأحرى دوافع اقتصادية أضيق. فثعبان البحر طبق شائع جداً على طاولات العشاء اليابانية ومركز لصناعة بملايين الدولارات. وإذا أمكنت زراعته، على طريقة سمك السلمون، على سبيل المثال، فإن ذلك سيعني الحصول على قدر أكبر بكثير من ثعابين البحر بجزء صغير من التكلفة. ولذلك، فإن السوق على استعداد لاستثمار مبالغ كبيرة في الأبحاث التي يمكن أن تجعل زراعته ممكنة.

مع ذلك، ليس من المستغرب أن يثبت ثعبان البحر كونه غير متعاون بشكل خاص. بالكاد كان لدى أوراق الصفصاف الصغيرة المثيرة المستولَدة بطريقة اصطناعية في جامعة هوكايدو الوقت لتفقس وتحسّ بالافتقار إلى تيارات المحيط في خزانها قبل أن تموت. رفضت يرقات ليبتوسيفالوس تناول الطعام، ببساطة. ولم يهم ما حاول الباحثون اليابانيون إغراء المخلوقات الصغيرة الشفافة به. ذهبت أوراق الصفصاف إلى الإضراب عن الطعام وهلكت دائمًا.

لسنوات بعد ذلك، ومع أجيال عديدة من يرقات ليبتوسيفالوس التي تم استيلادها صناعيًا –وإنما التي كانت كلها قصيرة العمر على قدم المساواة– كرّس العلماء اليابانيون أنفسهم لاكتشاف كيفية إبقاء يرقات ثعابين البحر التي فقست حديثًا على قيد الحياة. ماذا تأكل؟ لا أحد يعلم. لم تتم أبداً ملاحظة عاداتها الغذائية في أماكن عيشها. وقدموا لها مجموعة من الأطعمة. العوالق؛

البطارخ من الأسماك الأخرى ؛ الدوّارات المجهرية ، أجزاء من الأخطبوطات ، قنديل البحر ، الجمبري ، والمحار . لكن اليرقات الصغيرة رفضت بعناد تناول أي شيء في كل محاولة بعد أخرى وماتت بعد فترة وجيزة من الفقس .

استغرق العلماء ما يقرب من ثلاثين عامًا للتوصل إلى وجبة يمكن أن تهضمها اليرقات . وقد تكونت من مسحوق مصنوع من بيض سمك القرش المجفف بالتجميد ؛ وتمكنوا ، متسلحين بهذا الاكتشاف ، من إبقاء حفنة من اليرقات على قيد الحياة طوال ثمانية عشر يومًا في العام 2001 . وكان ذلك رقمًا قياسيًا جديدًا مثيرًا ، لكنهم ظلوا ، بطبيعة الحال ، بعيدين جدًا عن الإجابة عن كيفية إقناع أوراق الصفصاف الشفافة بالتحول إلى ثعابين بحر مكتملة النمو وصالحة للأكل في الأسر .

بالإضافة إلى ذلك ، استمرت ثعابين البحر في أن تكون صعبة المراس بطرق أخرى . على الرغم من أن الباحثين أصبحوا الآن قادرين على جعلها تأكل -حيث تم تحسين النظام الغذائي الموصوف بمرور الوقت حتى نجت بعض العينات على الأقل وعاشت إلى مرحلة ثعبان البحر الزجاجي- فقد ظل معظمها يموتون في غضون أيام قليلة من الفقس . وعاشت 4 في المائة فقط من اليرقات لمدة خمسين يومًا ، و1 في المائة فقط لمائة يوم . وكان العدد الذي وصل إلى الحجم اللازم للتحول إلى ثعابين زجاجية صفرًا تقريبًا .

علاوة على ذلك ، تصرفت ثعابين المختبر بشكل مختلف عن مثيلاتها في البحر . أنتجت الإناث التي تم التقاطها بيضًا أقل بكثير في الأسر مما تفعل عادة في البرية . وسرعان ما أصبح واضحًا أيضًا

أن جميع ثعابين البحر التي تفقس في المختبر كانت من الذكور. ولا أحد يعرف لماذا. ولكن، لعلاج ذلك، تم حقن ثعابين زجاجية بهرمون الإستروجين لإنتاج الإناث بشكل مصطنع. وفي العام 2010، نجح العلماء اليابانيون لأول مرة في إكمال دورة حياة ثعابين البحر عندما أنتجوا بيضًا، وبمرور الوقت يرقات ليبتوسيفالوس من ثعابين بحر تم تخليقها هي نفسها في المختبر. كما تم إعطاء الثعابين هرمونات لجعلها تنمو بشكل أسرع، مما أدى إلى ظهور تشوهات شديدة في نسلها: أوراق صفصاف لا تبدو أبداً مثل تلك التي يتم صيدها في البحر، رؤوسها مشوهة بشكل غريب، والحيوانات نفسها غير قادرة على السباحة. كان الأمر كما لو أن ثعبان البحر يرفض السماح لأي شخص آخر بالتحكم في خلقه؛ كما لو أنّ وجوده هو عمله الخاص، هو وحده.

حتى كتابة هذه السطور، يعمل العلماء بجد للعثور على الأساليب الصحيحة -إذا كانت موجودة من الأساس- لزراعة ثعابين البحر، والتي ستكون مهمة ليس فقط لصناعة ثعابين البحر اليابانية، وإنما أيضاً، بالتداعي، لبقاء ثعابين البحر كنوع على مستوى العالم. وهم ليسوا في أي مكان قريب من النجاح بعد. لكن كل عام يجلب تقنيات ورؤى وابتكارات علمية جديدة، وبالنسبة لأي شخص مهتم بفهم ثعابين البحر، ثمة -بغض النظر عن كل المشاكل الواضحة- سبب للأمل. ربما سيتم تطوير نوع من أجهزة التعقب في المستقبل غير البعيد، والتي تكون صغيرة وخفيفة بما يكفي لمتابعة ثعبان البحر الفضي على طول الطريق إلى أماكن تكاثره في بحر سارغاسو. وربما سيتيح لنا ذلك تحديد الموقع

بدقة أكبر على الخريطة ، وربما يمكننا بمجرد تتبع ما يكفي من ثعابين البحر ، تأكيد أو رفض فكرة مناطق التكاثر المتعددة .

وربما يكون لدينا أيضاً ، بحلول ذلك الوقت ، فهم أفضل لما يوقف أو يعيق ثعبان البحر في رحلته إلى مسقط رأسه . بل وربما يمكننا فعل شيء حيال ذلك . ربما يتمكن الباحثون الأوروبيون والأمريكيون ، مثل زملائهم اليابانيين ، من تخصيب البيض من ثعابين البحر الأوروبية والأمريكية وتفقيسها في الأسر . وذات يوم ، سوف تعيش هذه الثعابين المستزرعة وتصبح كبيرة وبصحة جيدة بما يكفي لأكلها . أو ، بطبيعة الحال ، ليتم إطلاقها في البرية .

قد يقول متفائل ذو عقلية علمية أنها مسألة وقت فقط . مع الإرادة المركزة والوقت الكافي ، سوف يجد العلم طريقة إلى حل كل أحجية . وقد استمر سؤال ثعبان البحر في الوجود بأشكال مختلفة على مدى آلاف السنين ، لكن التجربة تخبرنا بأننا سنجد الإجابة ، عاجلاً أم آجلاً . إننا بحاجة فقط إلى ما يكفي من الوقت .

لكن المشكلة ، مع ذلك ، هي أن الوقت بات على وشك النفاد .

أن تصبح جاهلاً

أتذكَّر نانا على العشب في الفناء ؛ رأسُها منحنٍ قليلاً وذراعاها مرفوعتان أمامها ، وهي تحمل غصناً مقطوعاً من شجرة التفاح بجوارها . كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها عصا تغطيس ؛ فرعَ شجرة بشعبتين .

مشت ببطء عبر العشب ، مبتعدة عن الشجرة ، ثم اتجهت يسارًا ثم إلى اليمين ، باحثة ، كما لو أنّ كل خطوة هي خطوة إلى المجهول . كانت عيناها شاغرتين ، كما لو أنها تدرك أننا نقف هناك ، ونشاهد .

فجأة توقفت ؛ رفّ ذراعها وسحبها شيءٌ نحو العشب . بدت العصا وكأنها تشدها ، بقوة وعنف ؛ وكأنها تحاول أن تنتزع نفسها من قبضتها . ونانا نظرت وضحكت وقالت : «لا أستطيع أن أفسر . لستُ أنا التي أفعل هذا . حتى أنني لا أتحرك» .

هز أبي رأسه ، ومشى إليها وأمسك بغصن الشجرة بيد . وعندئذٍ حملاها معًا بينما يسيران في المكان ببطء ، جنباً إلى جنب ، في دائرة على العشب ، مثل رقصة بطيئة غريبة ؛ وعندما عادا إلى تلك البقعة نفسها ، توقفا ، وسُحب ذراع نانا مرة أخرى بعنف إلى أسفل . نظر أبي إلى أعلى وضحك هو أيضاً ، بينما الفرع لا يزال يتحرك .

«بالكاد أستطيع إمساكها» ، قال أبي .

وعندما تركها، توقفت نانا عن الحركة. رفعت الفرع أمامها ونظرت إليه بعجب.

«لا أستطيع أن أشرح هذا. ولكن يمكنني الشعور به. إنه يجذب نفسه من تلقاء نفسه».

«أنا لا أفهم هذا فحسب»، قال أبي.

في إحدى الليالي بجوار النهر، وضع أبي الدلو ومعدات صيدنا وكسر فرعًا على شكل حرف Y من شجرة الصفصاف. أزال جميع الغصينات والأوراق وحمله أمامه.

«هل نحاول»؟

أومأت برأسي موافقاً، عصبياً بعض الشيء، وراقبته وهو يمشي ببطء، في سروال تخويضِه البرتقالي وأحذيته المطرية الهائلة. سار بحذر مقوّس الساقين قليلاً على طول المجرى، مبتعداً عني عبر العشب الرطب القاسي إلى حد ما. وعندما استدار ونظر إلي، بدا صورةً ظلية في شمس المساء؛ رأيته يمسك الفرع ممدوداً أمامه، بغرابة وتردد تقريبًا، كما لو أنه يقوده نحو شيء لا يعرف تمامًا ما إذا كان يريد مواجهته. وسار كلَّ الطريق عائداً دون أن يحدث شيء. وعندما أصبح بقربي توقف، وقذف الفرع جانباً، وهز رأسه.

«كلا، لا شيء. أعتقد أنني لا أمتلك الهِبة».

لكنّ ما لم أكن أعرفه أنا وأبي في ذلك الوقت هو أن ثمة تفسيرًا بسيطًا لسبب تحرك قضيب التغطيس. وكان التفسير، في الواقع، معروفاً منذ أكثر من مائة وخمسين سنة. وتم إجراء العديد من التجارب العلمية لاختبار قدرة قضيب التغطيس على تحديد موقع أشياء مثل الماء أو الزيت أو المعدن تحت الأرض. وأظهرت جميعها

تقريبًا أنه لا يعمل ، ببساطة . لا يمكن لفرع شجرة نقل أي معلومات على الإطلاق عن ما هو موجود أو غير موجود تحت الأرض .

ومع ذلك ، يتحرك . في بعض الأحيان ، كما هو واضح ، من دون أن يحاول الشخص الذي يمسكه التأثير عليه قصداً . والتفسير هو ما يسمى «ظاهرة إيديوموتور» . وما يحدث هو أن نوعًا من الحركة العضلية الدقيقة يحدُث من دون نية واعية من الشخص المعني . وبدلاً من أن تكون أفعالاً متعمَّدة ، تكون هذه الحركات تعبيراً عن فكرة أو شعور أو إدراك . ويطلق عليها أحيانًا «تأثير كاربنتر» ، على اسم عالم الفيزياء الإنجليزي ويليام ب . كاربنتر William B. Carpenter ، الذي وصف هذه الظاهرة لأول مرة في العام 1852 ، وهي نفس الظاهرة بالضبط ، على سبيل المثال ، التي تحرك المؤشر على لوح ويجا .

وبعبارات أخرى ، فإن الشخص الذي يحمل قضيب التغطيس يتسبب دون قصد في أن يجعله يضرب الأرض بحركات صغيرة بالكاد يمكن إدراكها . ولكن ، حتى ينجح ذلك ، يجب أن تكون لدى الشخص أولاً فكرة مسبقة ؛ إرادة غير واعية تقوده إلى بقعة معينة -ليست البقعة الصحيحة بالضرورة ، سواء كان الهدف هو العثور على الماء أو المعادن ، وإنما إلى بقعة محددة مع ذلك . ما الذي يجده اللاوعي هناك عندما يسحب الفرع أيدينا نحو الأرض؟ لماذا تتحرك العضلات في بقعة واحدة دون غيرها؟

لا تستطيع ظاهرة إيديوموتور أن تفسر هذا ، بطبيعة الحال . ربما يعتمد الأمر على انطباعاتنا الحسية الدقيقة . ربما نقرأ محيطنا بلا وعي ونصل إلى استنتاجات لا نفهمها . لكننا في كلتا الحالتين

نتخذ نفس هذه القرارات اللاواعية باستمرار .

ربما يكون الأمر ، بعد كل شيء ، مجرد صدفة تخبرنا عندما يحين الوقت لتحريك العضلات ؛ عندما يحين وقت البقاء ، أو عندما يحين وقت المغادرة .

كانت نانا تؤمن بالله .

«إنه كبير» ، كانت تقول لي . «أكبر بكثير من أي شخص يمكنك أن تتخيله» .

«هل هو أكبر من جدي»؟ سألتها .

«أكبر بكثير»!

لم تكن تذهب إلى الكنيسة ، لكنها آمنت بالله ؛ بيسوع وبالحَبَل بلا دنس وبالقيامة ؛ بحياة بعد الموت تلتقي فيها بأمِّها وأبيها وأخواتها الأكبر سنا وزوجها . وفي النهاية ، ابنها . وكانت تؤمن بالعفاريت أيضًا . رأت واحداً عندما كانت في الخامسة عشرة من عمرها وتعمل خادمة . كانت تسير إلى المنزل في وقت متأخر من إحدى الليالي على طريق مرصوف بالحصى وفجأة ، كان يسير هناك بجانبها عن كثب . عفريت . يكتسي بالرمادي . بالكاد يبلغ طوله ثلاثة أقدام . وكانت معها صديقة رأته أيضًا . لفترة من الوقت ، سار المخلوق الصغير بجانبهما ، ثم اختفى .

أما أنا فلم أكن مؤمناً . ذهبت إلى مجموعة الأطفال في كنيستنا المحلية ، لكنني طُردت لأنني لم أستطع الجلوس هادئاً . وعندما ذهبنا إلى الكنيسة مع المدرسة ، رفعت يدي وسألت الكاهن : «من

بحق الله اختلق كل هذا»؟

وأبي لم يكن مؤمنًا أيضًا . كان قد ذهب إلى المدرسة وتعلم عن ملوك السويد القدماء والإنجيل ، لكنه واجه صعوبة مع السلطة . لم يؤمن بالله ولا بالعفاريت .

كان فقط عندما تعلق الأمر بثعبان البحر حين كانت لنا شكوكنا .

ذات مرة ، عندما تفقدنا صنانيرنا في الصباح ، وجدنا أننا لم نلتقط سوى ثعبان واحد سيىء . صحيح أنه كان كبيراً إلى حد ما ، وزنه يقرب من كيلو غرام ، أصفر رمادياً وبرأس عريض . وضعناه في دلو من الماء في المرآب كالمعتاد .

في مساء ذلك اليوم ، خرجت لتغيير الماء واكتشفت أن ثعبان البحر قد ذهب . كان الدلو طويلًا أبيض ، مملوءًا بالماء إلى مسافة تقل عن عشر بوصات تحت الحافة ؛ وكان ثعبان البحر يحوم بالقرب من القاع ويضخ الهواء من خياشيمه في المرة الأخيرة التي تفقدته فيها . الآن ذهب . كان الدلو ما يزال قائماً ومليئاً بالماء ، وإنما بلا ثعبان البحر .

لم أعرف بماذا أفكر . في البداية ، خمنت أنه تمكن من تخليص نفسه من الأسر وانسل مبتعداً . لكن باب المرآب كان مغلقاً ولم يكن هناك أي أثر له ؛ يبدو أن ثعبان البحر قد اختفى دون أن يترك أثراً . هل قام أبي بقتله بتنظيفه مسبقاً؟ من دوني؟ لم يبدُ ذلك محتملًا ، لكنه لم يكن في البيت ولم يكن متوقعًا أن يعود اليوم كلَّه . ربما اعتنى بثعبان البحر قبل أن يغادر بعد كل شيء .

عندما عاد أبي في تلك الليلة ، قابلته عند السيارة . «هل أخذت ثعبان البحر»؟

«ثعبان البحر؟ إنه في الدلو، أليس هناك»؟

«لا، لقد ذهب. لا بد أن أحداً أخذه».

دخلنا المرآب ووقفنا هناك دقيقة، نحدق في الدلو الفارغ. وأكد أبي أن ثعبان البحر ليس موجوداً هناك حقًا.

«لكنني لا أعتقد أن أحداً سيأخذ ثعبان بحر». قال. «يبدو من الغريب أن يسرق المرء. أعتقد أنه هرب. يجب أن يكون هنا في مكان ما».

قمنا بتفتيش المرآب كلِّه. كان قذراً ومليئاً بالأشياء؛ ألواح خشبية، سلالم، أدوات، صناديق بلاستيكية، مجارف، مذار، أمشاط، دلاء، صناديق بطاطا، ومعدات صيد. قمنا بنقل كل شيء، وفحص كل زاوية وركن.

وأخيراً وجدنا ثعبان البحر في زاوية خلف زوج من الأحذية المطَرية. كان ساكناً تمامًا، مغطى بالغبار والحصى. التقطُه؛ كان جسده باردًا ومخدراً، وبشرته جافة وخشنة من الحصى. وتدلى في يدي مثل جورب قذر؛ وكانت عيناه مسطحتين غادرتهما الحياة.

كان ميتاً بوضوح. خرج من الماء لمدة خمس أو ست ساعات على الأقل. وربما أكثر.

«ضعه في الدلو»؛ قال أبي: «سوف أهتم بهذا لاحقاً».

أسقطته في الماء ووقفت هناك أدرسه لبعض الوقت. في البداية، طاف على السطح، بطنُه الشاحب إلى أعلى. ثم انقلب فجأة. تلوى جسده وتأرجح رأسه من جانب إلى آخر وببطء، ببطء، شرع في السباحة في الدلو، وخياشيمه تنفتح وتنغلق.

كنتُ قد رأيت هذا من قبل. ذات صباح مبكر بجوار النهر،

بينما كان الظلام ما يزال مسدلاً ، هبطنا الضفة بجهد إلى صنارة منصوبة على حافة صغيرة ناتئة ، ربما لثلاثة أقدام فوق الماء . وفي الخيط الممتد على الحافة تعلق ثعبان بحر . ليس في الماء وإنما في الهواء ، رأسه بمستوى الصنارة تقريباً وطرف ذيله يرتفع بوصة أو اثنين فوق سطح النُّهير .

كنتُ قد سمعت عن ثعابين بحر تصطاد فريستها ثم تدوِّر أجسامها حول محاورها في حركة مدومة عنيفة . ويبدو أن ثعبان البحر هذا قد دار على نفسه بعنف حتى أنه لف نفسه بالخيط ثم استمر في الدوران حتى رُفِع من الماء وتُرك متدليًا في الهواء .

تعلق هناك بسكون ، ورأسه مطروح بخرَق على أحد الجانبين . التقطته . كانت عدة ياردات من خيط النايلون السميك قد التفت بإحكام حول ثعبان البحر ، وعض جلده تاركاً خطوطًا مدمّاة على جسمه بالكامل ، كما لو أنه جُلد بسوط . فككتُ الخيط برفق وأمسكت ثعبان البحر في يدي ؛ بدا مخدوراً وثقيلاً وميتاً . ثم وضعته في الدلو وشاهدته يطفو وبطنه إلى أعلى لعشر ثوانٍ ، عشرين ثانية ، قبل أن ينقلب ببطء ويبدأ في السباحة في الداخل .

ثمة ظروف تجبرك على اختيار ما تؤمن به ، وبالقدر الذي أستطيع أن أتذكره ، كنت من النوع الذي يختار أن يصدق ما يعتبره الناس قابلاً للتحقق منه ؛ العلم على الدِّين ؛ والعقلاني على المتعالي . لكنَّ ثعبان البحر يجعل ذلك صعبًا . بالنسبة لأي شخص شاهد ثعبان بحر يموت ثم يعود إلى الحياة ، لا تكون العقلانية كافية للتفسير .

كلُّ شيء تقريباً يمكن تفسيره ؛ يمكننا أن نناقش العمليات المختلفة للأكسجين والتمثيل الغذائي أو إفرازات ثعبان البحر التي تحميه أو خياشيمه عالية التكثُّف . لكنني ، من ناحية أخرى ، رأيت ذلك بأم عيني . أصبحتُ شاهداً . يمكن لثعبان البحر أن يموت ثم يعيش مرة أخرى .

«إنهم غريبون ، ثعابين البحر هؤلاء» ، قال أبي . وبدا دائماً مسروراً بعض الشيء عندما يقول ذلك ، كما لو أنه في حاجة إلى الغموض ؛ وكأن ذلك ملأ نوعاً من الفراغ فيه . وقد جعلتُ ذلك الغموض يغويني أيضًا . قررت أن المرء يجد ما يريد أن تؤمن به عندما يحتاج إليه . كنا بحاجة إلى ثعبان البحر . وما كان كلانا ليكون ما هو عليه من دونه .

كان بعد وقت طويل لاحقاً ، عندما قرأت الإنجيل ، حين أدركت أن هذه هي الطريقة التي ينشأ بها الإيمان بالضبط . إن امتلاك الإيمان هو الاقتراب من الغموض ، مما يكمن وراء اللغة والإدراك . يتطلب الإيمان منك أن تتخلى عن جزء من منطقك وعقلانيتك . كتب بولس في رسالته الأولى إلى قورنثية : «لكي لا يكون إيمانكم بحكمة الناس بل بقوة الله» . وبعبارات أخرى ، يجب على المؤمن التخلي عن التفكير العقلاني ؛ يجب أن يسمح لنفسه بأن يُقنع ، ليس بالحجة العقلانية أو العلوم الطبيعية أو الحقيقة التي تكشف عن نفسها تحت المجهر ، وإنما من خلال الشعور بأنه وحيد . كتب بولس : «إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فليصِر جاهلاً لكي يصير حكيماً» . ينبغي لكل من يبحث عن الإيمان أن يجرؤ على أن يصبح جاهلاً .

وحده الجاهل يمكنه أن يؤمن بالمعجزات. ثمة شيء مرعب ومغوٍ في ذلك. عندما يمشي يسوع على الماء، يخاف رسله، الذين يجلسون في قارب، في البداية. يعتقدون أنه شبح. لكن يسوع يقول لهم: «تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا». ويجرؤ بطرس على النزول إلى الماء لمقابلته. تلك الخطوة الأولى، عندما يرفع بطرس قدمه فوق حاجز القارب ويضعها على سطح الماء، هي بداية كل شيء. يلتقي المألوف باللامألوف. ويتبين أن شيئاً اعتقد أنه فهمه بوضوح هو شيء آخر تمامًا. ويختار أن يصدِّق ذلك. وعندما يصل يسوع إلى القارب، يسجد الرسل جميعًا على ركبهم ويقولون: «بالحقيقة أنتَ ابن الله».

وبينما يبحرون في بحر الجليل وتهب عاصفة، يخاف الرسل ويوقظون يسوع الذي يكون نائماً في مؤخَّر القارب. فينتهر المسيح الريح ويقول للبحر: «اسكت! ابكم»! فتسكن الريح على الفور. ويقول لهم مؤنباً، وساخراً تقريباً: «ما بالكم خائفين هكذا؟ كيف لا إيمان لكم»؟

لم أستطع أبدًا أن أجعل نفسي أؤمن بمعجزات أي دين، لكنني أستطيع أن أفهم لماذا يريد أحدٌ أن يستبدل الخوف بالقناعة. أستطيع أن أفهم أن يختار شخص يصادف شيئًا غير مألوف أو مخيف المعجزة على عدم اليقين المستمر. إن فعل شيء إنساني. أن يكون لديك إيمان هو أن تهَب نفسك لشيء ما؛ لما يمكن تفسيره فقط بالمجازات.

ووعدُ الإيمان المسيحي؛ ما ينتظر أي شخص شجاع بما يكفي ليصبح جاهلاً، هو الأكبر بين كل الوعود: «من آمن بي ولو مات

فسيحيا وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الأبد» .

لقد وعد يسوع أتباعه بالحياة الأبدية ، ولذلك ، فإن أهم معجزة هي القيامة . موت يسوع وقيامته هما جوهر الرسالة المسيحية . ومن دونها ، يصبح الإيمان بلا معنى . لا يمكن أن يكون الإيمان شيئاً حول هذه الحياة فقط ؛ إن عليه أن يتجاوزها . ويكتب بولس في رسالته إلى قورنثية : «وإن لم يكن المسيح قد قام فباطلة كرازتنا وباطل أيضا إيمانكم» .

جاهل فقط هو الذي سيؤمن بالقيامة ، لكنني كنت أتمنى أحيانًا لو أنّي كنتُ جاهلاً ، وأعتقد أن أبي تمنى نفس الشيء . لأنه ، ما القيامة؟ إذا ما أُخِذت حرفياً فإنها تعني أن الإنسان (أو ثعبان البحر) يمكن أن يموت ثم يعيش مرة أخرى . لكن بولس يتحدث أيضًا عن شيء آخر في رسالته إلى قورنثية . ويكتب : «آخر عدو يبطُل هو الموت» . الموت حتمي لا مفر منه ، لكن هناك طرقاً ، بحسب بولس ، للتعامل معه . مرة أخرى ، يتحدث بولس عن التغيير ، عن كيف أن الموت ليس نهايةً وإنما نوعًا من التحول : «في لحظة في طرفة عين عند البوق الأخير فإنه سيبوق فيقام الأموات عديمي فساد ونحن نتغير» .

لذلك يمكن أن يموت إنسان (أو ثعبان بحر) ثم يتحول في طرفة عين ويعود في شكل غير قابل للفساد . كلا ، إن هذا ليس صحيحاً . إنه مجاز . لكن المجاز يمكن أن يحمل في داخله حقيقته الخاصة . ليس عليك تصديق المعجزة كي تصدق معنى المعجزة . ثمة العديد من الطرق لتكون جاهلاً . وليس عليك أن تؤمن بالإنجيل (أو ثعبان البحر) بالمعنى الحرفي لتصدق ما هو في صميم رسالتهما : أن أولئك

الذين يموتون يظلون معنا في شكل ما .

وقد آمنت نانا بالله ، ولكن أنا وأبي لم نفعل . ومع ذلك ، بعد طويل وقت لاحقاً ، عندما كانت نانا تُحتضر ، جلستُ إلى جانبها فبكت وقالت : «سوف أكون دائمًا معك» . ومن الواضح أنني صدقتها . لم أكن بحاجة إلى الإيمان بالله كي أصدق ذلك .

كان هذا ، في نهاية المطاف ، هو ما يعِد به يسوع تلاميذه عندما يتجلى لهم ، بعد ثلاثة أيام من موته : «ها أنا معكم كلَّ الأيام إلى انقضاء الدهر» .

وذلك ، بطبيعة الحال ، هو ما نأمل فيه عندما نؤمن ؛ سواء كان ذلك بالله أو بثعبان بحر .

مكتبة
t.me/t_pdf

ثعبان البحر على حافة الانقراض

العدو الأخير الذي ينبغي تدميره هو الموت . وهذا صحيح -ليس للمؤمنين فحسب ، ولكن أيضًا لأولئك الذين يفضلون المعرفة . وهو صحيح بالتأكيد لجميع الناس الذين لا يزالون يحاولون فهم ثعبان البحر .

لأن ثعبان البحر ينقرض ، بوتيرة متزايدة . وهناك بيانات تشير إلى أن جموع ثعابين البحر شرعت في التقلص في وقت مبكر من القرن الثامن عشر ، أي حول نفس الوقت الذي كشف فيه العلم لأول مرة عن شغف جادّ بالمخلوق تقريباً . وثمة المزيد من البيانات الموثوقة التي تُظهر انخفاضًا في أعداد ثعابين البحر منذ الخمسينيات على الأقل . وخلال العقود القليلة الماضية ، يبدو أن المشكلة تسارعت بشكل ملحوظ . ووفقاً لمعظم التقارير البحثية ، فإن الوضع اليوم كارثي بشكل أو بآخر . إن ثعبان البحر يموت ، وليس فقط بالطريقة المتوقعة ، مثل النهاية الطبيعية لحياة طويلة مليئة بالتغيرات . إنه ينقرض . ونحن نخسره .

وهذا هو آخر أسئلة ثعبان البحر وأكثرها إلحاحًا : لماذا يختفي؟

قد يكون من المناسب ، كنقطة انطلاق ، وضع انقراض ثعبان البحر في سياق أكبر . الحياة متغيرة . هذا أول قانون للتطور . كما أن الحياة عابرة أيضاً ؛ وهذا قانون الحياة الأول . لكنّ ما يحدث الآن مع ثعبان البحر ، كما هو الحال مع العديد من الأنواع الأخرى ،

أبعد بكثير من السيرورة الطبيعية للتطور والحياة ، من حيث الطابع والمدى على حد سواء .

كانت راشيل كارسون واحدة من أوائل الذين أدركوا ذلك . كان كتابها الأخير ، الذي سيتم تذكُّرها إلى الأبد بسببه ، هو «الربيع الصامت» Silent Spring . ونشر الكتاب في العام 1962 وهو أحد أكثر الأعمال تأثيرًا على الإطلاق حول قدرة البشرية على تدمير ما تدَّعي أنها تحبه . ويحكي «الربيع الصامت» عن الاستخدام المدمر لمادة الـ»دي . دي . تي» والمبيدات الحشرية الأخرى ؛ عن كيف أن الرش الأرعن للحقول والغابات لا يقتل الحشرات فقط ، وإنما كل أشكال الحياة الأخرى أيضاً : الطيور ، والأسماك ، والثدييات ، وفي النهاية البشر أنفسهم . ومن خلال مزيج من البحث العلمي الضافي ولغتها الجميلة والعميقة بلا حدود ، تمكنت كارسون من توضيح مدى المشكلة ووصف ما تعنيه فعليًا في الممارسة .

كان ما استشرفَته زمناً لا تعود فيه الحياة تُرى أو تُسمع من حولنا ، ببساطة لأنها اختفت من العالم الذي ندركه ، لأنها كفت عن الوجود . تنبأت بزمن أخرس ، فيه الينابيع بلا أزيز الحشرات أو غناء الطيور ؛ من دون أسماك تتقافز في الأنهار أو خفافيش ترفّ في ضوء القمر ليلاً . رأت تدميراً متواصلاً لمساحات شاسعة من الحياة التي كنا معتادين تماماً على وجودها من حولنا ، وعرفت لماذا يحدث ذلك : «بينما يمضي الإنسان قدُماً نحو هدفه المعلن المتمثل في غزو الطبيعة ، فإنه كتب سجلًا محبطًا من الدمار -الموجه ليس ضد الأرض التي يسكنها فحسب ، وإنما ضد الحياة

التي تتقاسمها معه أيضاً».

بالتماهي مع الحيوانات؛ مع شيء يذهب أبعد من ذاتها، تمكنت راشيل كارسون من الوصول إلى فهم أكبر لما يحدث. ومن ذلك نشأ شعور باليأس الذي تحول في نهاية المطاف إلى شجاعة واعتقاد بأن من حقها، بل وحتى من واجبها، أن تقدم شهادتها على ما تعرفه. وكان ذلك الوقت قصيراً. في حزيران (يونيو) 1963، بينما أرسل «الربيع الصامت» تموجات في جميع أنحاء العالم، ظهرت كارسون أمام اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ الأمريكي المعنية بالمخاطر البيئية. وبدأت بيانها بقولها: «المشكلة التي اخترتم استكشافها هي واحدة ينبغي حلُّها في عصرنا. وأشعر بقوة بأن بداية العمل عليها ينبغي أن تكون الآن، في جلسة الكونغرس هذه». ولم يكن شغفها وسرعتها مجرد خطابة. كانت تُحتضَر هي نفسها. بحلول وقت نشر «الربيع الصامت»، كان قد تم تشخيص إصابتها بسرطان الثدي؛ وعندما أدلت بشهادتها أمام اللجنة الفرعية لمجلس الشيوخ، كان السرطان قد انتشر إلى كبدها. وكانت تعرف أن هذه هي فرصتها الأخيرة لتحويل اعتقادها إلى فعل -وقد نجحت، على الأقل بالقدر الذي يتعلق بالمبيدات المدمرة. تم حظر استخدام الـ»دي. دي. تي» في الزراعة في الولايات المتحدة في العام 1972، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد كبير إلى التأثير الهائل لرواية «الربيع الصامت». ولكن بحلول ذلك الوقت، كانت راشيل كارسون قد رحلت عن هذه الدنيا؛ فقد توفيت في نيسان (أبريل) 1964 عن عمر ناهز السادسة والخمسين. وسوف يكون إرثها دائمًا ذلك

الانتباه الذي لفتته مبكرًا إلى التهديد الذي أصبح الآن مصدر قلق واسع النطاق .

عدة مرات خلال الأكثر من ثلاث مليارات سنة التي وُجدت فيها الحياة على هذا الكوكب ، حدثت تغيرات كانت بعيدة الاحتمال ، والتي يمكن للمرء أن يقول إنها كانت بمثابة نوع من التحول البنيوي ، حين غيّرت كل منها تكوين الحياة على الأرض نفسه . خمس مرات ، كانت هذه التغييرات بالغة الشمول بحيث أعطيت لها فئاتها الخاصة . وعادة ما تسمى هذه الفترات الخمس بأحداث الانقراض الجماعي الخمسة .

بدأت أول أحداث الانقراض الجماعي قبل حوالي 450 مليون سنة ، خلال نهاية العصر الأردوفيسي Ordovician period ، عندما كانت الحياة لا تزال محصورة في المحيطات ، أكثر أو أقل . حينذاك ، بسبب مناخ بارد ، والذي جاء بدوره نتيجة لانجراف القاري ، انقرضت ما يقرب من 60 إلى 70 في المائة من جميع الأنواع الحية على مدى نحو عشرة ملايين سنة .

وحدث الانقراض الجماعي الثاني الذي نجَم أيضاً عن ابتراد عالمي مدمر ، قبل نحو 364 مليون سنة ، ومع نهايته ، كان قد قُضي على 70 في المائة من جميع الأنواع الحية .

وكان ثالث أحداث الانقراض الجماعي هو الأكثر فتكاً . وحدث في فترة الانتقال بين الحقبتين البرمية Permian والترياسية (الثلاثية) Triassic ، قبل حوالي 250 مليون سنة ، وقتل أكثر من

95 في المائة من جميع الأنواع . ولا يوجد إجماع حول السبب ، لكن الإجابة الأكثر ترجيحًا هي أن تلاقياً للأحداث أدى إلى تغير مناخي كبير .

ووقع حدث الانقراض الجماعي الرابع على مدى فترة طويلة نسبيًا بين الحقبتين الترياسية والجوراسية Jurassic ، قبل حوالي 200 مليون سنة ، وشهد زوال ما يصل إلى 75 في المائة من جميع الأنواع .

وكان الحدث الخامس للانقراض الجماعي هو الأكثر شهرة . قبل 65 مليون سنة ، يُعتقد أن نيزكاً أصاب شبه جزيرة يوكاتان Yucatán Peninsula ؛ وكان التأثير على الأقل أحد عوامل التي ساهمت في انقراض الديناصورات ، إلى جانب 75 في المائة من بقية الأنواع الحية في العالم .

وقد تعرضت نباتات وحيوانات كوكبنا لتحولات أكثر من ذلك ، بعضها شامل بنفس المقدار تقريبًا . لكنّ الانقراضات الجماعية قياساً بتاريخ الحياة الطويل ، تظل مع ذلك ظاهرة نادرة جدًا . ثمة أنواع تموت ، وحيوانات ونباتات تأتي وتذهب ، لكن الإطار الزمني لهذه العملية عادةً ما يكون طويلًا جدًا بحيث لا يُقلق ترتيب الأشياء بشكل أساسي . هذه هي طريقة الحياة العادية : وداع عرَضي ، وليس دماراً جماعياً لحظياً .

ومع ذلك ، يقترح العديد من الباحثين أن ما نشهده الآن ليس هو الطريقة العادية للأشياء ؛ أننا نعيش -في الواقع- حدث الانقراض الجماعي السادس . في آب (أغسطس) 2008 ، كتب عالما البيولوجيا الأمريكيان ديفيد ويك David Wake وفانس فريدنبرغ Vance

Vredenburg مقالًا بعنوان «هل نحن في خضم الانقراض الجماعي السادس»؟ والذي نُشر في المجلة العلمية «وقائع الأكاديمية الوطنية للعلوم» . وعلى الرغم من أن المؤلفين لم يكونا أول من طرح هذا السؤال ، إلا أن إجاباتهما عنه كانت مقنعة للغاية لدرجة أن التهديد لم يعد يبدو افتراضيًا وإنما محتملاً إلى حد كبير .

ركز ويك وفريدنبرغ على وجه التحديد على البرمائيات وحيوانات السمندل ، وتمكنا من إظهار أنه -نعم ، ثمة شكل من أشكال الانقراض الجماعي جارٍ مُسبقاً بلا شك . من حوالي 6.300 نوع من البرمائيات المعروفة ، ثمة ما لا يقل عن ثلثها من الأنواع المهددة بالانقراض فعلياً ، وقد أظهر هذا التطور كل علامة على أن الأمور تتفاقم بسرعة .

أحد الذين قرأوا المقال كانت الصحفية العلمية إليزابيث كولبرت Elizabeth Kolbert . ونُشر كتابها «الانقراض السادس» The Sixth Extinction في العام 2014 ولخص ما نعرفه عن حدث الانقراض المحتمل الذي يحدث الآن . ثمة ثلث كل الشعاب المرجانية في العالم مهددة بالانقراض . وكذلك ثلث جميع أسماك القرش ، وربع جميع الثدييات ، وخُمس جميع الزواحف وسدس جميع الطيور . وقد لا يتبين أن حدث الانقراض هذا واسع النطاق مثل أي من الأحداث الخمس الكبرى ، ولكن التهديد كبير للغاية ، ويتسارع بوتيرة كبيرة بحيث لا يخرج عن نطاق الاحتمال . وإذا استمرت الأمور على هذا النحو ، فهناك الكثير مما يوحي بأن عدد الأنواع على كوكبنا سينخفض إلى النصف في غضون مائة عام فقط .

وهذا سريع بطريقة استثنائية -حدثت حالات الانقراض

الجماعي السابقة على مدى ملايين السنين . ونحن نتحدث الآن عن قرون -لكن ما يجعل حدث الانقراض الحالي فريدًا حقًا هو أن هناك ، لأول مرة في التاريخ ، مُقترف جريمة حي . ليس الجاني جسمًا سماويًا ، أو انجرافًا قاريًا أو ثورات بركانية ؛ إنه كائن . إن أحد الأنواع الكثيرة التي تسكن هذا الكوكب هو الذي غزاه ، وبفعله ذلك تسبب في تدمير واسع النطاق لموائل جميع الأنواع الأخرى . وقد نجح في تغيير -ليس سطح الأرض فقط ، وإنما غلافها الجوي أيضاً . ولم يقترب أي نوع حي آخر من ممارسة مثل هذا النوع من التأثير على الحياة ؛ على الأشكال المختلفة من الحياة ؛ على كل الحياة .

تكتب إليزابيث كولبرت : «إذا كان ويك وفريدنبورغ على حق ، فإن أولئك الذين هم على قيد الحياة اليوم لا يشهدون أحد أندر الأحداث في تاريخ الحياة فحسب ، إننا نتسبب فيه أيضًا» .

ولكن ، لماذا يموت ثعبان البحر بشكل خاص؟ ما هي الظروف المحددة التي جعلت هذا الناجي الذي بدا خالداً غير قادر على الاستمرار؟ كبداية ، تصاحب السؤال مشكلة نظرية . كما نعلم ، لا يمكن أن يكون سؤال لماذا الخطوة الأولى في معالجة مشكلة علمية أبداً . على المرء أن يبدأ من البداية . أولاً ، ينبغي إثبات أن ثمة شيئاً يحدث : هل ثعبان البحر يموت؟ ثم نراقب ونشرح ما يحدث : كيف يموت ثعبان البحر؟ وعندما ننتهي من ذلك فقط يمكننا أن نبدأ في معالجة سؤال لماذا .

ولكن ، عندما يتعلق الأمر بسؤال انقراض ثعبان البحر ، تبيّن أن هذا النهج معقد بعض الشيء .

اسم المنظمة التي تنسق الكثير من العمل في مجال حماية البيئة والتنوع البيولوجي في جميع أنحاء العالم ، والتي تضم أكثر من ألف منظمة عضو ، هو «الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة ومواردها» (IUCN) .

من بين أمور أخرى ، يقوم الاتحاد بتجميع ما يسمى «القائمة الحمراء» ، وهي قائمة جرد للحيوانات والنباتات يتم تحديثها بانتظام لتحديد الأنواع التي تعتبر مهددة حول العالم . والهدف الواضح من القائمة الحمراء هو إنشاء «نظام مقبول عالميًا لتصنيف الأنواع المعرضة لخطر الانقراض في العالم» . وبعبارة أخرى ، فإن معايير الاتحاد الدولي لحماية الطبيعة تعمل كنوع من المعايير الدولية ؛ كتقييم تم اختباره علمياً لكيفية أداء الحياة بأشكالها المختلفة .

في القائمة الحمراء ، يتم تقييم كل نوع وفقًا للمعايير المعمول بها ويُدرج على نطاق يتراوح من الترتيب الأكثر تشجيعاً («أقل ما يقلق») إلى «المهدَّد تقريبًا» و»الضعيف» و»المهدد بالانقراض» و»المهدد بالانقراض بشدة» ، و»انقرض في البرية» ، إلى الإعلان النهائي الذي لا رجعة فيه : «منقرض» . وبما أنها سجل يتم تجميعه بشكل موضوعي ومنهجي لجميع أشكال الحياة المعروفة على الأرض ، فإنها توفر معلومات حول حالة كل شيء ، من الطحالب إلى الديدان الحلَقية ، فالبشر .

البشر يبلون حسناً . يقول أحدث تقييم للاتحاد لحالة نوع «الإنسان العاقل» ، من العام 2008 ، ما يلي : «مدرج على أنه ’أقل

ما يُقلق' ، حيث أن هذا النوع موزَّع على نطاق واسع جدًا ، وقادر على التكيف ، ويتزايد حاليًا» . كما يلاحظ التقييم أيضًا أن «للبشر أوسع توزيع لأي نوع من الثدييات الأرضية ، التي تسكن كل قارة على وجه الأرض (على الرغم من عدم وجود مستوطنات دائمة في أنتاركتيكا) . وتم إدخال مجموعة صغيرة من البشر إلى الفضاء ، حيث يقيمون في 'محطة الفضاء الدولية'» . وفي الوقت الحاضر ، وفقًا لتقييم الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة والموارد الطبيعية ، «لا يلزم اتخاذ تدابير لحفظ النوع» . إن جنس «الانسان العاقل» يزدهر .

من ناحية أخرى ، فإن ثعبان البحر ، أنغيلا أنغيلا ، في مشكلة . أو ثمة سبب وجيه للاعتقاد بأنه كذلك . هذا ما نُقاد إلى تصديقه . وغنيّ عن القول أنه بما أنّ ثعبان البحر هو الذي نتعامل معه ، فإنه لا يمكننا الادعاء بأننا نعرف على أي شيء وجه اليقين . وكما يكون واقع الحال في كثير من الأحيان ، تأتي معرفتنا مع محاذير ، ولأنه تبيّن أن ثعبان البحر لا يتناسب تمامًا مع المعايير التي يستخدمها الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة في تقييماته . أولاً ، إن عدم قدرتنا على تحديد الحجم الدقيق لإجمالي السكان يمثل مشكلة . وبطبيعة الحال ، يشكل حجم السكان المعيار الأول لتحديد مستوى التهديد للأنواع .

ولكن ، وفقًا لتقارير الاتحاد ، يجب تحديد حجم السكان من خلال حساب «إنجابية الفرد» ، أي عدد العينات مكتملة النمو والناضجة جنسياً منه . وهذا يعني ، كما كتب الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة ، أنه من الناحية المثالية ، سيتم تطبيق المعيار

على «ثعابين البحر الناضجة في أماكن تكاثرها» . وبعبارة أخرى ، سيكون من الضروري إجراء تعداد لثعابين البحر الفضية في بحر سارغاسو . ومع ذلك ، نظرًا لأن أحداً لم يتمكن من العثور على ثعبان البحر الفضي في بحر سارغاسو بعد أكثر من مائة عام من المحاولة ، فمن الواضح أن ذلك مستحيل . لن يسمح ثعبان البحر بأن تُرسمَ له الخرائط بهذه الطريقة . إنه يتفادى حتى أولئك الذين قد يساعدونه .

ما يمكن عمله هو حساب عدد الثعابين الفضية الناضجة التي انطلقت من سواحل أوروبا باتجاه مناطق التفريخ . ولكن ، حتى هنا أيضًا ، تبقى البيانات نادرة ؛ عادة ما تختفي ثعابين البحر في أعماق المحيطات المظلمة بسرعة كبيرة . ومع ذلك ، تشير المشاهدات إلى أن عدد ثعابين البحر الفضية المهاجرة قد انخفض بنسبة 50 في المائة على الأقل في السنوات الخمس والأربعين الماضية .

ثالث أفضل بديل ، وهو الذي يبني عليه الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة تقييمه في المقام الأول ، هو ببساطة البدء من الطرف الآخر وتقييم ما يظهر نتيجة لمواعدات ثعابين البحر الغرامية في بحر سارغاسو –ما سمته راشيل كارسون «الوصية الوحيدة المتبقية من ثعابين البحر الوالِدة» . وبعبارة أخرى ، عدد الثعابين الزجاجية التي تظهر في أوروبا في الربيع . والمعروف عن هذا أكثر بكثير ، وهذه البيانات هي التي تقترح أن الوضع كارثي للغاية . وتشير جميع الإحصائيات الموثوقة إلى أن عدد الثعابين الزجاجية الواصلة حديثًا في أوروبا اليوم لا يمثل سوى 5 في المائة مما كان عليه في نهاية السبعينيات . مقابل كل مائة قضيب زجاجي صغير شفاف يسبح

إلى أعالي المجاري المائية كل عام عندما كنتُ صبياً ، تقوم حفنة صغيرة في أفضل الأحوال بنفس الرحلة اليوم .

هذا هو الأساس لقرار الاتحاد العالمي للحفاظ على الطبيعة تصنيف ثعبان البحر الأوروبي ، أنغيلا أنغيلا ، بأنه مهدد بالانقراض . وهذا يعني ، وفقًا للتعريف الرسمي ، أنه «يواجه خطراً شديداً من الانقراض في البرية» . وليس الوضع كارثيًا فحسب ، وإنما دقيق أيضًا . يمكن أن يختفي ثعبان البحر حقًا ، في المستقبل المنظور ، وليس عن أنظارنا ومن مملكة معرفتنا ، وإنما من عالمنا كلّه جملة وتفصيلاً .

وإذن ، هذا هو السؤال النهائي : لماذا يموت ثعبان البحر؟ والجواب النهائي ليس مفاجئًا ، بالنظر إلى أن ثعبان البحر هو الذي نتحدث عنه : من الصعب أن نعرف . إنها نفس المشكلة التي واجهها كل من حاول فهم ثعبان البحر : الجواب يراوغنا . لا نعلم على وجه اليقين . نحن نعرف أجزاء ، ولكن ليس كل شيء . نحن مجبرون ، إلى حد ما ، على الاعتماد على الإيمان .

هناك العديد من التفسيرات للسبب في أن ثعابين البحر في مشكلة ، ويستطيع العلم تأكيدها جميعًا ، ولكن لا أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كانت هي الأسباب الوحيدة ، أو حتى الأكثر جوهرية . طالما كانت هناك أسئلة غير مجاب عنها حول دورة حياة ثعبان البحر ؛ لا يمكننا أن نعرف على وجه اليقين سبب موت ثعبان البحر . وطالما أننا غير متأكدين تمامًا من كيفية تكاثر ثعبان

البحر أو كيفية إبحاره، فإننا لا نستطيع أن نعرف ما الذي يمنعه من القيام بهذه الأشياء. من أجل إنقاذه، علينا أن نفهمه. هذا ما تؤكده معظم الأبحاث حول حالة ثعبان البحر في الوقت الحاضر: من أجل مساعدة ثعبان البحر، نحتاج إلى معرفة المزيد عنه. إننا بحاجة إلى مزيد من المعرفة ومزيد من الدراسات، والوقت قصير.

وهكذا، نصل إلى المفارقة الكبيرة: فجأة أصبح سر ثعبان البحر أكبرَ عدو له. إذا كان لينجو ويبقى، فيجب على البشر إغواؤه للخروج من الظلال والعثور على إجابات للأسئلة المتبقية. وستكون لهذا، بالطبع، تكلفة. لأنه على مر التاريخ، كان هناك أناس اعتنقوا هذا الغموض، والذين انجذبوا إليه واختاروا التشبث به. أولئك الناس الذين يريدون، مثل غراهام سويفت، أو راوي قصة توم كريك، الاعتقاد بأن عالَمًا فيه كل شيء مفسَّر هو عالم وصل إلى نهايته.

إنه، إذا شئت، موقف «كاتش-22» كلاسيكي، حيث تكون النتيجة سيئة مهما فعلت: أولئك منا الذين يريدون حماية ثعبان البحر من أجل الحفاظ على شيء غامض وملغِز حقًا في عالم متسم بالتنوير، سوف يخسرون، من بعض النواحي، بغض النظر عن الكيفية التي ستتكشف بها الأمور. ولن يستطيع أي شخص يشعر بأن ثعبان البحر ينبغي السماح له بأن يظل ثعبان بحر أن يتكلف ترف بقائه لغزًا بعد الآن أيضاً.

ثمة شيء واحد على الأقل نعرفه عن موت ثعبان البحر: أنه خطأنا نحن. كل التفسيرات التي قدمها العلم حتى الآن لها صلة بالنشاط البشري. كلما اقتربت البشرية من ثعبان البحر؛ أصبح

أكثر تعرضاً لتأثيرات حياتنا الحديثة، كلما مات أسرع. عندما لخص المجلس الدولي لاستكشاف البحار (ICES) ما يجب القيام به لإنقاذ ثعابين البحر في العام 2017، كان غامضًا وفي الوقت نفسه واضحًا بطريقة جديرة بالثناء: يجب أن يكون تأثير النشاط البشري على ثعبان البحر «قريبًا من الصفر قدر الإمكان». ما زلنا لا نعرف كل شيء عن التهديد الذي يستهدف ثعبان البحر، لكن ما نعرفه حقاً يكفي لتحديد الطريقة الوحيدة لإنقاذه: علينا أن ندعه وشأنه.

ما نعرفه، على سبيل المثال، هو أن ثعبان البحر يكافح مع المرض، والآن أكثر من السابق. وهو معرض، من بين أشياء أخرى، لفيروس هربس أنغويلا، وهو مرض تم اكتشافه لأول مرة بين ثعابين البحر اليابانية في الأسر، والذي انتشر منذ ذلك الحين من خلال الاستيراد إلى ثعابين البحر البرية في أوروبا. وتم تحديد أول حالة هولندية في العام 1996؛ وفي جنوب ألمانيا، أظهرت الاختبارات أن ما يقرب من نصف ثعابين البحر مصابة به.

لسبب ما، يبدو أن الفيروس يؤثر فقط على ثعابين البحر –ومن هنا جاء اسمه– وهو مرض مزعج بشكل غير عادي. ويمكن للفيروس أن يبقى خاملاً في مضيفه لفترة طويلة، لكنه بمجرد أن يندلع، فإنه يتخذ مساراً سريعاً وعنيفاً. يطوِّر ثعبان البحر المصاب قروحًا نازفة حول الخياشيم والزعانف. وتموت الخلايا في الخياشيم وتلتصق الشعيرات المليئة بالدم ببعضها البعض. وتصبح أعضاؤه الداخلية ملتهبة، مما يجعل ثعبان البحر متعبًا وخمولًا حتى يتمكن من التحرك ببطء وقرب السطح فقط، إلى أن يستسلم جسمه في النهاية ويموت.

ويمكن أن تلتقط ثعابين البحر أيضاً دودة نيموتادا أنغويلا الطفيلية Anguillicoloides crassus ، وهي من الديدان الخيطية . وتم اكتشاف المرض لأول مرة بين ثعابين البحر اليابانية أيضاً ووصل إلى أوروبا في ثمانينيات القرن الماضي ، ربما محمولاً في أجساد الثعابين الحية المستوردة من تايوان . وفي بضعة عقود فقط ، انتشر المرض منذ ذلك الحين في جميع أنحاء أوروبا وإلى أمريكا . وأظهرت دراسة أجريت عام 2013 في ولاية كارولينا الجنوبية أنه في وقت مبكر من مرحلة ثعبان البحر الزجاجي ، كان 30 في المائة من ثعابين البحر يحملون الدودة الطفيلية . كما أشارت الدراسة إلى أن المرض الطفيلي انتشر بشكل أسرع بسبب محاولات حسنة النية لإنقاذ ثعبان البحر من الانقراض عن طريق إطلاق ثعابين زجاجية بعد اصطيادها في مياه جديدة .

والديدان الخيطية نوع من الدودة المستديرة التي تهاجم بشكل خاص مثانة ثعبان البحر ، متسببة في النزيف والالتهاب والخدوش . وينمو ثعبان البحر المصاب ببطء أكثر ويصبح أكثر عرضة للإصابة بالأمراض ، وينتقل إلى مياه أكثر ضحالة ويستطيع السباحة لمسافات قصيرة فقط . وليس هذا المرض الطفيلي مميتًا بالضرورة ، لكن ثعبان البحر المليء بالديدان الطفيلية تكون لديه فرص ضعيفة جداً للوصول إلى بحر سارغاسو .

ونعرف أيضًا أن ثعبان البحر حساس بشكل خاص للتلوث . ونظرًا لأن ثعابين البحر تعيش فترة طويلة وتقع في أعلى السلسلة الغذائية ، فإنها تتأثر بشكل خاص بالسموم الصناعية والزراعية . وكما هو الحال مع الطفيليات ، يبدو أن السموم تعوق قدرة ثعبان

البحر على العودة إلى بحر سارغاسو . وقد تبين أن ثعابين البحر التي تتعرض لثنائي الفينيل المعامَل بالكلور المتعدد ، على سبيل المثال ، تطور عيوبَ القلب والوذمة ومشاكل في تخزين الدهون والطاقة ، مما يجعل الهجرة الطويلة مستحيلة عليها فعليًا . وتبيِّن أن ثعابين البحر التي تتعرض لمبيدات الآفات المختلفة تكون أقل قدرة على الانتقال من المياه العذبة إلى المياه المالحة . وإذا كانت المظاهر شيئاً يمكن الاسترشاد به ، وإذا كان صحيحًا أن عدداً أقل من الثعابين الفضية تصل إلى مناطق التفريخ ، فإن التلوث عامل مساهم محتمل على الأقل .

ثمة بعض النظريات التي يصعب إثباتها . هناك بعض الدلائل التي تشير إلى سقوط ثعابين البحر فريسة لمفترسات أخرى أكثر من ذي قبل ، وهو ما قد لا يُعزى مباشرة للبشر . لكنّ من الممكن تصور أن ثعابين البحر المريضة ، التي أضعفتها السموم والطفيليات وأصبحت بالتالي تتحرك بطريقة أبطأ وأقرب إلى السطح ، تشكل أيضًا أهدافًا أسهل للحيوانات المفترسة مثل طيور الغاق الكثيرة التي تحب أكل ثعابين البحر .

ومن بين بعض التهديدات المعاصرة التي يعتبرها الباحثون الأكثر خطورة والتي تسببها البشرية بلا ريب هي العوائق المادية المختلفة أمام هجرات ثعابين البحر . يمكن للمغاليق والسدود وغيرها من الوسائل الاصطناعية لتنظيم تدفق المياه أن تمنع ثعابين البحر الشابة من السباحة في المجاري المائية ، وثعابينَ البحر الناضجة من الوصول إلى البحر . وبقدر ما قد تكون محطات الطاقة الكهرومائية مفيدة للبيئة الأوسع ، فإنها بمثابة الموت الزؤام لثعابين البحر .

وتقتل توربينات السدود عشرات من ثعابين البحر الفضية في طريقها نحو المحيط الأطلسي ، وتدّعي بعض التقارير أن كل محطة كهرباء تقتل ما يقرب من 70 في المائة من جميع ثعابين البحر التي تحاول المرور . ويبدو أن سلالم الأسماك التي تُبنى للتحايل على السدود مخصصة بشكل عام لتستخدمها أسماك السلمون الأكثر ميلاً إلى المياه الضحلة .

أحد التهديدات القديمة لبقاء ثعابين البحر بطبيعة الحال هو الصيد ، على الرغم من أن شدة تأثيره كانت موضوع نقاش منذ وقت طويل . تاريخياً ، كانت ثعابين البحر طعاماً شائعاً في أجزاء كثيرة من أوروبا . ولم يقتصر الأمر على أن لصيادي ثعابين البحر تقاليدهم وأدواتهم وأساليبهم الخاصة ؛ لقد دعمت صناعة ثعابين البحر أيضًا اقتصادًا مميزًا –ومهماً جداً في بعض الأماكن . وعلى مدى العقود القليلة الماضية ، ارتفعت الصادرات إلى اليابان –التي أصبحت الآن مسؤولة عن 70 في المائة من استهلاك ثعابين البحر في العالم والتي تشعر ، مثل أوروبا وأمريكا ، بآثار تقلص أعداد ثعابين البحر– بشكل كبير .

كان صيد ثعابين البحر الزجاجية مدمرًا بشكل خاص لدورة الحياة المعقدة لثعابين البحر . هذه الأيام ، يحدث ذلك في المقام الأول في إسبانيا وفرنسا –في إقليم الباسك ، أصبحت ثعابين البحر الزجاجية المقلية بالزيت والثوم طبقاً شهيًا باهظ الثمن على نحو متزايد في العقود الأخيرة– وبما أنه يتم صيدها بهذه الأعداد الكبيرة ، وفي هذه المرحلة المبكرة من حياتها ، فإن للصيد تأثيراً مفرطاً على عدد السكان الأوسع منها .

وثمة تهديد يصعب توضيحه ، وإنما الذي قد يكون الأكثر خطورة مع ذلك ، هو تغير المناخ . من الحقيقة التي لا تقبل الجدل أنه عندما يتغير المناخ ، فإن كلاً من اتجاه وقوة تيارات المحيطات الكبيرة يتغيّر ، وهو يعوق هجرة ثعابين البحر بشكل كبير على ما يبدو . ويمكن أن تجعل التيارات المتغيرة من الصعب على ثعابين البحر الفضية المرور عبر المحيط الأطلسي والعثور على أرض تكاثرها الصحيحة . والأهم من ذلك ، هو التأثير على اليرقات التي فرخت حديثًا والتي تنجرف بلا حول ولا قوة مع التيارات إلى أوروبا .

وعندما تضعف التيارات ويتغير مسارها ، يكون من المحتمل أنها تؤثر أيضًا على موقع مناطق التكاثر داخل بحر سارغاسو ، مما يعني أن اليرقات الشفافة عديمة الوزن قد تفشل في العثور على التيار الذي يُفترض أن يحملها إلى أوروبا ، أو أنها تُحمَل ببساطة في الاتجاه الخاطئ . وعلاوة على ذلك ، يمكن لتغير المناخ أن يغير درجة حرارة وملوحة التيارات ، مما يؤثر بدوره على إنتاج العوالق التي تتغذى عليها اليرقات أثناء رحلتها .

تشير العديد من الدراسات إلى تغير المناخ كعامل مساهم رئيسي في خفض أعداد ثعابين البحر الزجاجية التي تصل إلى السواحل في السنوات الأخيرة . وهي ، إذا لم يكن ثمة شيء ، إشارة تحذير مشؤومة . إنها تعني ، بعد كل شيء ، أن العملية المعقدة والحساسة للغاية المتمثلة في هجرة ثعابين البحر وتكاثرها ، والتي كانت عاملة منذ ملايين السنين ، قد تعطلت بشكل أساسي في غضون بضعة عقود قصيرة فقط .

وإذن، ما الذي سيبقى من ثعبان البحر إلى يطويه الانقراض؟ الصور، والذكريات والقصص بالطبع، وأحجية لم يتم حلها بالكامل أبدًا.

ربما يصبح ثعبان البحر طائر الدودو الجديد. ربما سيبدو أقل وأقل مخلوقاً حياً حقيقياً، وأكثر فأكثر مثل تذكير رمزي تراجيدي- كوميدي بما يستطيع الإنسان أن يفعله في أكثر لحظاته غفلة.

كان الدودو طائراً أخرق واسع المنقار صادفه البشر لأول مرة في نهاية القرن السادس عشر واصطادوه حتى الانقراض بعد أقل من مائة عام. وقد اكتشفه ووصفه لأول مرّة البحارة الهولنديون على الجزيرة في المحيط الهندي التي ستُسمى لاحقًا موريشيوس، وهي المكان الوحيد في العالم الذي عاش فيه الدودو، بالقدر الذي نعرفه.

كان طائرًا كبيرًا طوله نحو تسعين سنتمتراً ويزن أكثر من ثلاثة عشر كيلوغراماً. وكانت له أجنحة صغيرة، وريش بني ضارب إلى الرمادي، ورأس صلعاء مع منقار منحنٍ قليلاً، أخضر وأسود. وكانت أرجله صفراء قوية، وأوراكه مستديرة عريضة. ولم يكن يطير وكان يتنقّل ببطء إلى حد كبير، ولكن لم يكن له أعداء طبيعيون في الجزيرة قبل وصول البشر. وغالبًا ما سخّفت الصور المعاصرة مظهره، جاعلة منه كاريكاتورياً تقريباً؛ عيونه الخالية من التعبير مثل أزرار مستديرة صغيرة في في رأسه الصلعاء الكبيرة، بنظرة اندهاش وذكاء خافت على وجهه.

أول ذكر لطائر الدودو كتابة، في تقرير لبعثة هولندية في العام 1598، يصفه بأنه طائر بضعف حجم البجعة -وإنما بأجنحة حمامة. وقيل أيضًا أن طعمه لم يكن جيدًا بشكل خاص وأن

لحمه كان قاسياً مهما تكُن مدة طهيه ، لكن البطن والصدر كانا على الأقل صالحين للأكل .

وهو بالطبع ما فعله البحارة الهولنديون لطائر الدودو : لقد أكلوه . كان الإمساك به سهلاً جداً ، بعد كل شيء . ويقال إن تلك الطيور لم تحاول حتى الهروب عندما اقترب منها البحارة . كانت سمينة وغنية باللحم ؛ تكفي ثلاثة أو أربعة منها لإطعام طاقم كامل . ووُصفت طيور الدودو بأنها غير مكترثة وغير معنية بشيء ، كما لو أنها لم تكن قادرة مطلقاً على تخيل أن مخلوقًا آخر يمكن أن يشكل لها تهديدًا . ويُظهر رسم من العام 1648 بحارة وهم يضربون الطيور الخرقاء حتى الموت بعصي كبيرة . ولم يكن قدرُها أن تكون عشاء للبحارة الهولنديين الجياع فقط ، مع ذلك ؛ لقد جلب البشر معهم أيضًا أنواعًا غازية أخرى إلى الجزيرة : الكلاب ، والخنازير ، والجرذان التي تنافست على الحيز والطعام وأغارت على أعشاش الدودو ، وأكلت البيض والكتاكيت .

في صيف العام 1681 ، ذكر بنيامين هاري ، وهو بحار ، في مذكراته أنه رأى طائر الدودو في موريشيوس . وكانت تلك آخر مشاهدة موثقة لعينة حية منه . كان طائر الدودو الذي رآه ، إذا ما كانت قصته لتُصدَّق ، هو الأخير . ثم مات ، انقرض ، وكل ما تبقى كان الذكريات المتلاشية .

لبعض الوقت ، نُسي طائر الدودو أو صُوِّر كمخلوق أسطوري غامض أكثر من كونه حيوانًا حقيقيًا . وشكك البعض في أنه كان موجوداً من الأساس . وعندما نشر ألكسندر ميلفيل Alexander Melville وهيو ستريكلاند Hugh Strickland كتابهما «الدودو

وأقاربه» The Dodo and Its Kindred ، وهو الوصف الأكثر شمولية للدودو في ذلك الوقت ، في العام 1848 ، فإنهما اضطرا إلى الاعتراف بأن المعلومات حول هذا الطائر ، الذي انقرض منذ أكثر من 160 عامًا ، كانت شحيحة على أقل تقدير . وكتبا : «نحن نمتلك فقط تلك الأوصاف الفظة لرحلات غير علمية ، وثلاث أو أربع لوحات زيتية ، وعدداً قليلاً من الشظايا العظمية المتناثرة التي نجت من إهمال مائتي عام . وفي كثير من الحالات ، يمتلك عالم الأحافير بيانات أفضل بكثير لتحديد الخصائص الحيوانية لنوع هلك منذ سنوات عديدة ، مقارنة بتلك التي قدمتها مجموعة من الطيور التي عاشت عدة أنواع منها في عالم تشارلز الأول» .

وقد تمكنا على الأقل من إثبات أن أقرب قريب حي لطائر الدودو هو الحمام . وأكد اختبار الحمض النووي الحديث النتائج التي توصلا إليها . وبخلاف ذلك ،لم يضف ميلفيل وستريكلاند الكثير إلى مجمل فهمنا لطائر الدودو . وجادلا بأن هذا المخلوق الفريد عاش حيث عاش ، وهناك فقط لم يكن غريباً على الإطلاق . ليس للتوزيع الزمني والجغرافي للأنواع علاقة بالبيئة أو المناخ ، وبالتأكيد ليس بالتطور . كانت هذه طريقة «الخالق» في الحفاظ على «توازن الطبيعة المتأرجح بلا توقف» . أما أن طائر الدودو أصبح منقرضاً ، فليس ذلك مفاجئاً إذن . وكتبا : «الموت هو قانون الطبيعة في الأنواع كما هو في الفرد» .

مع ذلك ، سوف نتعلم مع الوقت الكثير عن طائر الدودو . في العام 1865 ، تم العثور على الأحفورة الأولى ، وبدأ العلم في الاهتمام أكثر بمصيره الفريد ، سواء كان ذلك لأنه الطائر الغريب الذي كانه ،

أو كمثال على تأثير البشرية الذي لا حدود له ولا رجعة فيه على جميع أشكال الحياة على هذا الكوكب . ومنذ نهاية القرن التاسع عشر ، كُتِب عدد لا يحصى من الكتب عن طائر الدودو . وجعلته رواية لويس كارول Lewis Carroll «مغامرات أليس في بلاد العجائب» أيقونياً ؛ وهو بلا شك واحد من أكثر الأنواع المنقرضة المعروفة اليوم . وبالإضافة إلى ذلك ، أصبح طائر الدودو مخلوقًا رمزيًا ، ليس كمثال تحذيري على التهور القاتم للجنس البشري فحسب ، وإنما أيضاً كمجاز لشيء مضى وانقضى وعفا عليه الزمن . و»الدودو» هو شخص غبي أخرق غير قادر على التأقلم مع حقبة جديدة ؛ شخص رُفِض ونُسي ، وأصبح غير ذي صلة .

«ميت مثل دودو» ، يقول التعبير الدارج . وربما نقول في نهاية المطاف ، «ميت مثل ثعبان بحر» ، بدلاً من ذلك .

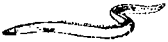

وربما يكون ذلك مفضلاً على مصائر أخرى يمكن تصوُّرها . ربما تصبح ثعابين البحر بدلاً من ذلك شيئاً مثل بقرة بحر ستيلر ؛ محض ذكرى سريعة التلاشي لشيء غريب وغير مألوف .

كان «بقرة بحر ستيلر» Steller's sea cow اسماً لحيوان ثديي بحري وصفه لأول مرة العالِم الألماني جورج فيلهلم ستيلر Georg Wilhelm Steller في منتصف القرن الثامن عشر . وكان حيوانًا ثديِيًا ضخمًا ، عاشباً بطيئاً فاتراً مثل أقرب أقاربه ، الأُطومات البحرية وخراف البحر . كان له جلد سميك يشبه اللحاء ورأس صغير

بالنسبة لجسمه الهائل، وذراعان صغيران في الأمام، وذيل يشبه ذيل حوتٍ في المؤخرة.

اكتشف جورج فيلهلم ستيلر الحيوان لأول مرة خلال رحلة استكشافية بقيادة المستكشف الدنماركي-الروسي فيتوس بيرينغ Vitus Bering ، في ما سيطلق عليه في النهاية اسم «بحر بيرنغ». وكانت الرحلة هي الثانية لبيرينغ إلى المنطقة التي لم تكن مستكشفة في الغالب، وكانت مهمته، التي كلفته بها البحرية الروسية، هي الإبحار عبر البحر ورسم خريطة للساحل الغربي لأمريكا الشمالية. وسافر ستيلر بمبادرة منه، مدفوعًا بالفضول والعطش للمغامرة، شرقًا عبر روسيا للانضمام إلى بيرينغ. وكان قد درس اللاهوت وعلم النبات والطب في جامعة فيتنبرغ، ورافق قافلة من الجنود الروس الجرحى إلى سانت بطرسبرغ، وحصل على منصب الطبيب الشخصي لرئيس أساقفة نوفغورود. وكان عمره ثلاثون عامًا تقريبًا ومتزوجاً للتو عندما انطلق عبر سيبيريا الشاسعة في شتاء العام 1737، وقد وضع أنظاره على شبه جزيرة كامتشاتكا، حيث يستعد فيتوس بيرينغ لرحلته الاستكشافية.

في 29 أيار (مايو) 1741، انطلقت السفينة «سانت بيتر» من أوك-هستوك بطاقم من سبعة وسبعين فرداً. وسوف تكون هذه رحلة كارثية في معظم النواحي. على الفور تقريبًا، واجهت البعثة طقسًا قاسياً، وفقدت الاتصال بالسفينة الشقيقة، «سانت بول»، وأُجبِرت على الانعطاف جنوبًا عبر المضيق باتجاه ساحل أمريكا الشمالية. وبمجرد وصولهم إلى ألاسكا، كان الطاقم في حالة سيئة مسبقاً، وكان الكثير منهم يعانون من الإسقربوط. وفوق كل شيء

آخر، لم يتفق بيرينغ وستيلر. أراد بيرينغ الإسراع ورسم خريطة لأكبر قدر ممكن من الساحل ثم العودة مرة أخرى قبل وصول عواصف الخريف. وأراد ستيلر، من جانبه، أن يفعل ما جاء إلى هناك لكي يفعله: دراسة النباتات والحيوانات.

بعد نحو شهرين في البحر، أصيب بيرينغ بالإسقربوط، وتقرر أن تستدير السفينة على الفور وتعود إلى كامتشاتكا. لكن عاصفة شديدة اعترضتهم، وجنحت السفينة إلى الشعاب المرجانية قبالة جزيرة لم يكن أحد يعلم بوجودها. وهناك، في الأمواج الثقيلة المزبدة قبالة الأرض الغريبة، بينما كان معظم أفراد الطاقم مستلقين فاقدي الوعي في السفينة المتضررة وكانت جثث المتوفين مسبقاً تُقذَف في البحر، بدأ ستيلر المتلهف على الفور في التخطيط لرحلاته الاستكشافية. كانت لديه حيوانات ونباتات ليدرسها. وفي تلك الجزيرة، التي سميت لاحقًا «جزيرة بيرينغ»، إلى الشرق من كامتشاتكا مباشرة، اكتشف جورج فيلهلم ستيلر في 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1741، قطيعًا كبيرًا من النوع غير المعروف سابقًا من أبقار البحر التي تستريح على حافة المياه.

كان ذلك مشهدًا رائعًا بكل وضوح، ووصف ستيلر الحيوانات التي ستُسمى لاحقًا على اسمه بالتفصيل. كتب أنها بدت، من السُرة فما فوق، مثل فقمات كبيرة، ولكنها بدت تحت السرة أقرب إلى الأسماك. كانت رؤوسها مستديرة ولا تختلف على الإطلاق عن رؤوس الجواميس. ولم تكن أعينها، على الرغم من حجم الحيوان، أكبر من عيون الأغنام ولم تكن لها جفون. وكانت آذانها مختفية في طيات وتجاعيد جلودها السميكة. وبخلاف الذيل

العريض، كانت بلا زعانف، وهو ما ميزها عن الحيتان. وكتب ستيلر: «تعيش هذه الحيوانات مثل الماشية في قطعان في البحر. ولا تفعل شيئًا سوى الأكل».

لم يصف ستيلر كيف تبدو أبقار البحر الغريبة، وماذا تأكل، وكيف تتصرف، وكيف تتكاثر فحسب. لقد وصف أيضاً بتفصيل مماثل كم كانت دسمة وشهية، وكيف أنها وفيرة للغاية بحيث يمكن أن تطعم كامتشاتكا بالكامل. وكتب أنها لم تُظهر خوفًا من البشر على الإطلاق. لم تحاول الهرب عندما اقتربوا، وكان ردها الوحيد عندما التقطها أعضاء البعثة الجائعون بخطافات حديدية كبيرة وقطعوا اللحوم منها وهي ما تزال على قيد الحياة، هو التنهد بهدوء.

كان ما افتقرت إليه أبقار البحر هو غريزة البقاء، كما أعلن ستيلر، والذي عوضت عنه بعروضٍ مؤثرة للتعاطف.

«علاماتٍ لذكاء رائع... لم أستطع أن ألاحظها، وإنما في الحقيقة (لاحظتُ) حباً غير مألوف لبعضهم البعض، والذي ذهب بعيداً جداً حتى أنه عندما يُلتقط أحدُهم بخطاف، كان كل الآخرين يعكفون على محاولة إنقاذه. حاول البعض الحيلولة دون (جرّ) الرفيق الجريح على الشاطئ من خلال (تشكيل) دائرة مغلقة (حوله)؛ وحاول البعض أن يقلبوا القارب. ووضع آخرون أنفسهم فوق الحبل أو حاولوا إخراج الحربة من جسده».

وكتب ستيلر أن أحد الذكور عاد يومين متتاليين لتفقد أنثى استلقت ميتة على الشاطئ. «ومع ذلك، بغض النظر عن عدد الجرحى أو القتلى بينهم، ظلوا دائمًا في مكان واحد».

لم يكن اللقاء مع أبقار البحر الفاترة والمُحبة مجرد تجربة عميقة فقط لجورج فيلهلم ستيلر ؛ كان ذلك حدثاً بيولوجياً مثيراً. عادة ما يتم العثور على الثدييات المائية ، وهي ثدييات أقرب صلة في الحقيقة بالفيل أكثر مما ترتبط بالفقمة أو الحوت ، في المياه الاستوائية فقط. وعاشت هذه الأنواع على جزيرة قاحلة باردة بعيدة في الجزء الشمالي غير المكتشف من المحيط الهادئ -وهناك فقط على ما يبدو. وكانت بقرة بحر ستيلر مثالاً قويًا آخر على تعقيد التطور والتنوع الفاتنَين لهذا العالم ؛ عجيبةً غريبة حيّة في واحد من أقل الأماكن ترحاباً في العالم.

ولكن ، مثل جنيات البحر ، جلبت بقرة بحر ستيلر الدمار على كلٍّ من مكتشفيها ونفسها معاً. توفي فيتوس بيرينغ في الجزيرة في 8 كانون الأول (ديسمبر) ودُفن في الرمال عند حافة الماء. وشاركه حوالي نصف أفراد الطاقم مصيره. لكن ستيلر نفسه تمكن من النجاة. قضى هو والناجون الآخرون الشتاء في جزيرة بيرينغ ، وعاشوا على اصطياد القنادس التي كانوا يأكلون لحمها نيئًا. وفي الربيع ، تمكنوا من بناء سفينة جديدة من حطام «سانت بيتر» ، وفي آب (أغسطس) 1742 ، بعد أكثر من عام من انطلاقهم ، عادوا إلى كامتشاتكا ، مهزولين محطمين. ونشر جورج فيلهلم ستيلر ملاحظاته ، وتمكن من إخبار العالم عن الثدييات المائية الشمالية الغريبة ، لكنه خسر نفسه بعد فترة وجيزة لشرب الكحول ومات ، فقط في السابعة والثلاثين من عمره ، في تيومين ، روسيا ، في العام 1746.

وقد هلكت أبقار بحر ستيلر أيضاً. اتبع الصيادون الروس خُطا

بيرينغ ووجدوا الحيوانات البطئية فريسة سهلة . وفي العام 1768 ، بعد سبعة وعشرين عامًا فقط من اكتشاف ستيلر لها ، قتلت آخر أبقار بحر ستيلر في بحر بيرينغ ، واليوم ، ثمة القليل من الناس الذين يعرفون أنها وُجِدت على الإطلاق . وقد تلاشت من وعي البشرية وعالم المعرفة معاً بتنيهدة هادئة ، متقبلة مصيرها بخضوع مستسلِم . وعلى عكس طائر الدودو ، لم تتمكن حتى من العبور إلى عبارات اللغة المحكيّة .

لكن ثعبان البحر ليس الدودو ولا بقرة بحر . إنه ، أولاً ، ليس كائناً منعزلاً في جزيرة ما في المحيط الهندي أو في بحر بيرينغ . وثانياً ، تمكن من النجاة من الإنسانية لفترة أطول كثيراً من أن يصل إلى هذا النوع من النهاية المفاجئة . وبالتأكيد لا يمكن أن تكون كل الطاقة التي تم إنفاقها على فهمه على مر القرون قد ذهبت من أجل لا شيء؟

ولأن هناك ، بعد كل شيء ، كثيراً من الناس الذين يبذلون قصارى جهدهم لمساعدة ثعبان البحر . تماماً مثلما أثارت دورة حياة ثعبان البحر فضول العلم قروناً ، ثمة الآن العديد من العلماء الذين يعتبرون زواله أهم تحدٍ يواجهونه حاليًا .

لقد أُخِذت بعض التحذيرات التي أطلقها الباحثون والمنظمات مثل «المجلس العالمي لاستكشاف البحر» ICES و»الاتحاد الدولي للحفاظ على الطبيعة» على محمل الجد ؛ على الأقل في أوروبا . وفي العام 2007 ، اعتمد الاتحاد الأوروبي خطة إدارة تضم سلسلة

من المقترحات الجذرية لمحاولة إنقاذ ثعبان البحر . والتزم كل بلد عضو باتخاذ التدابير اللازمة لضمان وصول 40 بالمائة على الأقل من ثعابين البحر الفضية إلى البحر ؛ على سبيل المثال عن طريق الحد من صيده وبناء ممرات بديلة لتجنيبه السدود ومحطات الطاقة .

كما تم حظر جميع صادرات ثعابين البحر إلى البلدان غير الأوروبية ، مثل السوق اليابانية التي لا تشبع ، (على الرغم من أن الصادرات غير القانونية ما تزال كبيرة ، كما يُفترَض) ، ويترتب على أي شخص يبحث عن صيد ثعابين البحر الزجاجية أن يخصص 35 في المائة على الأقل مما يصطاد لإعادة إدخاله في البرية . وفي العام نفسه ، العام 2007 ، حظر المجلس الوطني لمصايد الأسماك في السويد أي شكل من أشكال صيد ثعابين البحر في السويد ، باستثناء صيادي ثعابين البحر المحترفين بتصاريح خاصة ، أو في المياه العذبة أعلى الجدول صعوداً من حاجز الهجرة الثالث .

في البداية ، بدا أن هذه التدابير تُحدِث تأثيراً . في السنوات التي تلت ، بدا أن ثعبان البحر الأوروبي يتعافى قليلاً . كانت هناك ، فوق كل شيء ، زيادة في عدد ثعابين البحر الزجاجية القادمة من بحر سارغاسو ، وللمرة الأولى منذ فترة طويلة ، أمكن للناس الذين يهتمون لشأن ثعابين البحر أن يسمحوا لأنفسهم بقدر من التفاؤل .

لكنّ هذا الاتجاه انعكس منذ العام 2012 ، واستقر معدل التعافي . ويبدو أن الارتفاع الطفيف كان استثناءً مؤقتًا ، وظلت الأهداف المحددة في خطة إدارة الاتحاد الأوروبي بعيدة المنال . وبشكل عام ، ما يزال وضع ثعابين البحر اليوم مخيفاً على الأقل كما كان حاله قبل عام 2007 . ويبدو أننا عالقون في «مأزق طوباوي» ، كما

كتب ويليم ديكر Willem Dekker ، خبير ثعابين البحر في الجامعة السويدية للعلوم الزراعية في أوبسالا ، في ملخص للوضع في العام 2016 . وتبين أن الأمل الذي خالطَنا لبعض الوقت ارتكز على توقعات غير واقعية . وزعم ديكر أن الإجراءات التي اتُخذت لإنقاذ ثعبان البحر ليست غير كافية فحسب ، بل إنها تعرض أيضاً خطر أن تصبح شكلًا من أشكال التوجيه الخاطئ . طالما أننا نتمسك بما نعتقد أننا نعرفه ، ما نعتقد أنه صحيح ، فلن يتحسن وضع ثعابين البحر أبدًا ، وسوف يزداد سوءًا بدلاً من ذلك فحسب .

بينما يستمر نقاش المشكلة ، يمرُّ الوقت أيضاً . في خريف العام 2017 ، كان من المقرر أن يحدد وزراء الزراعة ومصائد الأسماك في الاتحاد الأوروبي حصصًا جديدة لصيد الأسماك ، وكان اقتراح المفوضية الأوروبية المتطرف بطريقة مفاجئة هو حظر صيد ثعابين البحر جميعاً في بحر البلطيق . ودعمت السويد فرض حظر شامل في البداية ، ولكن عندما لم تنضم أي دولة أخرى إلى القضية ، اختارت التخلي عنها . وشدد الوزير السويدي للشؤون الريفية ، سفين إريك بوشت ، على أهمية الانفتاح على المفاوضات ؛ كانت لديه ، مثل كثيرين آخرين ، على ما يبدو مشاعر أكثر غراماً بالأسماك من غير ثعابين البحر . وجادل بأننا إذا اخترنا دعم ثعبان البحر ، فإننا نتخلى عن فرصتنا لحماية الأنواع الأخرى . «لن يتمكن أحد من الوقوف إلى جانب سمك السلمون» . وبمجرد اتخاذ القرار ، حدثت تخفيضات في حصص صيد السلمون والقُد والرنجة وسمك موسى ، في حين يمكن الاستمرار في صيد ثعابين البحر بنفس القدر السابق .

استغرق الأمر عامًا آخر ، حتى كانون الأول (ديسمبر) 2018 ، قبل أن يقرر الاتحاد الأوروبي فرض حظر على نطاق الاتحاد على صيد ثعابين البحر ، بما في ذلك في البحر الأبيض المتوسط وعلى طول ساحل المحيط الأطلسي . لكن الحظر يغطي ثلاثة أشهر فقط من العام ، ولم يتم تضمين ثعابين البحر الزجاجية فيه حتى الآن .

وهكذا ، تستمر أعداد ثعابين البحر في التراجع ، في حين تتأخر القرارات بشأن ما يجب فعله لمساعدتها على الطريق – إلى أن نعرف المزيد ؛ أو حتى لا يتبقى شيء لنعرفه .

هل يُمكن أن نتخيل عالمًا بدون ثعابين البحر؟ هل من الممكن أن يُمحى من الوجود مخلوق وُجِد منذ أربعين مليون عام على الأقل ، ونجا من العصور الجليدية وشهد القارات وهي تنجرف وتفترق ، والذي عندما وجد البشر مكانهم على هذا الكوكب كان ينتظرنا مسبقاً منذ ملايين السنين ، وكان الموضوع لما لا يُحصى من التقاليد والاحتفالات والأساطير والقصص؟

كلا هي الجواب الغريزي ، ما هكذا يعمل العالم . إن ما يوجد يوجد ، وما لا يُوجَد يبقى دائماً غير قابل للتخيل ببعض الطرق . إن تخيل عالم بدون ثعابين البحر سيكون مثل تخيل عالم خالٍ من الجبال أو المحيطات ؛ من الهواء أو التراب ؛ من الخفافيش أو أشجار الصفصاف .

ومع ذلك ، في نفس الوقت كل الحياة قابلة للتغيير ، وسوف نتغير جميعًا ذاتَ يوم . ربما كان من الصعب ، في مرحلة ما ، بالنسبة

لعدد قليل من الناس على الأقل ، أن نتخيل عالمًا بدون الدودو أو بدون بقرة بحر ستيلر . تمامًا كما لم أكن أستطيع أن أتخيلَ عالماً بدون نانا أو أبي .

ومع ذلك ، رحل كلاهما الآن . والعالم ما يزال هنا .

في بحر سارغاسو

لا أتذكر آخر مرة ذهبنا فيها لصيد ثعابين البحر ، ولكن ، مع مرور الوقت ، حدث ذلك بشكل أقل وأقل تكرارًا . ليس لأن ثعبان البحر فقد أيًا من أسراره ، ولكن ربما لأن ألغازاً أخرى أصبحت أكثر أهمية . وجد عالمُنا الصغير المغلق هناك أسفل النهر صعوبة متزايدة في التنافس مع كل العوالم الأخرى التي انفتحت تدريجيًا . كان هذا بالطبع تطوراً متوقعاً . الناس يكبرون ، ويتغيرون ؛ يغادرون ويتحولون ، ويتوقفون عن صيد ثعابين البحر . ومع كل التحولات الرمزية التي نمر بها ، لا بد أن تضيع بعض الأشياء ، حتمًا .

أيام كنتُ مراهقاً ، كنت اصطحب الأصدقاء أحيانًا إلى النهر . كان أبي يظل في المنزل . وكنا نأخذ معنا الجعة وبندقية رش ، وعندما نمسك ثعبان بحر ، نحاول أن نطلق النار عليه في الرأس . وكنا نتبادل الأدوار ، نطلق ونخطئ ونطلق مرة أخرى . وقد أحضرت ثعابين البحر تلك لأبي الذي استشاط غضباً عندما كاد يكسر أسنانه على حبيبات الدمدُم . وأعتقد أنه شعر بأننا كنا غير محترِمين ، له –ولكن ربما أكثر لثعبان البحر .

هبط أبي ضفة النُّهير ليصطاد وحده في بعض الأحيان ، ولكن بنفس التكرار . أنهيت المدرسة وبدأت العمل . وكنتُ أخرج في عطلة نهاية الأسبوع . وأصبحنا منفصلين ، ليس بسبب مشكلة أو رفض ، وإنما ببساطة لأن كل شيء تغير من تلقاء نفسه . يبدو

أن التيار الذي جرف معه أبي ذات مرة إلى مكان جديد أصبح يحملني بعيدًا عنه هذه المرة. وعندما بلغت العشرين من العمر، انتقلتُ وانتهى بي المطاف إلى ما بدا أن التيار يعتبره وجهتي النهائية: الجامعة.

إذا كان ثعبان البحر هو تجربتنا المشتركة، فإن الجامعة كانت النقيض؛ تجسيداً لكل الأشياء التي لم نتقاسمها. إنها مكان غريب، مختلف تمامًا عن كل شيء اعتدته؛ مكان حيث تجلت الذكريات في هيئة مبانٍ كبيرة والذي يتحدث فيه الناس في المجرَّدات بلغة لم أفهمها؛ حيث لم يبدُ أن أحداً يعمل وحيثُ الجميع منشغلون في تحقيق ذواتهم. وقد افتُتنتُ بها، ولو ببعضٍ التردد. تركتُ لنفسي أن تمتص البيئة والثقافة وتعلمت كيف أقلّد كل الرموز الاجتماعية الغريبة. حملتُ كتبي في كل مكان كما لو أنها أوراق هوية وتعلمت أن أجيب بإيجاز وبشكل دفاعي عندما يسألني أحد من أين أنا. أعتقد أنني خمّنتُ أن رائحة الأسفلت سوف تكشفني كغريب في الأروقة الأكاديمية.

ولكن، في وقت ما كلَّ صيف، كنت أعود إلى المنزل وكنا نهبط إلى النهير لنصطاد ثعابين البحر. كنا قد تخلينا عن الصنانير والمصيدة بحلول ذلك الوقت، وتحولنا بدلًا منها إلى شكل أكثر حداثة من الصيد في القاع. استخدمنا قضبان أشجار البندق العادية مع مقبض يتكون من خطاف واحد كبير وغطاس ثقيل. وكنا نضع في خطافاتنا طُعماً من الديدان وندعها تغرق إلى قاع الجدول. وكان أبي قد صنع حاملات للقضبان من أنابيب معدنية ثقيلة دفعناها داخل الأرض حتى تقف القضبان منتصبة مثل

الصواري على صفحة السماء الليلية . أحضرنا كراسي التخييم القابلة للطي ووضعنا أجراسًا على طرف القضبان ، والتي ترن عندما يعلق شيء بالخطاف . ثم جلسنا هناك ، في الليل ، نستمع إلى صوت اندفاع التيار الرتيب ، ونراقب ظل شجرة الصفصاف وهو يستطيل والخفافيش وهي تنحرف برشاقة حول قضباننا أثناء مرورها . شربنا القهوة وتحدثنا عن ثعابين البحر التي اصطدناها وثعابين البحر التي فقدناها وعن أشياء أخرى ليست كثيرة . على الرغم من كل شيء ، لم يخالطني السأم من ذلك أبداً .

في النهاية ، اشترى والداي كوخاً . كان كوخاً خشبياً أحمر ، صغيراً وليس جميلاً بشكل خاص ، من دون سِباكة داخلية ومع بئر مليء بالماء القذر . لكنه كان مبنياً بجوار بحيرة صغيرة ، محاطة بالغابات من كل جانب ، مع بقاعٍ كبيرة من القصب التي عشعش فيها البجع الصامت وطيور الغطاسِ المنقَّطة . كل يوم تقريبًا ، كانت طيور مالك الحزين والعقبان تطير فوق البحيرة ، وفي المساءات ، تهبطُ الشمس مثل كرة كبيرة من النار خلف أشجار التنوب على الجانب الآخر . وقد أحبَّ أمي وأبي ذلك المكان وأمضيا هناك أكبر قدر ممكن من الوقت .

كان لديهما قارب بلاستيكي صغير تابع للكوخ ، وفي زياراتي ، كنا نصطاد السمك في البحيرة ؛ في الغالب سمك الكراكي والبرش . كنا نجدف متجولين في الأنحاء ، نستكشف البحيرة التي كانت أكبر مما بدت في البداية . كان الكوخ يقع على الجانب الشرقي ، وفي الطرف الجنوبي رقعة كبيرة ضحلة من القصب ، حيث يمكنك سماع صوت الكراكي وهي ترش الماء قرب الغسق . وكان جدول

صغير يصب في البحيرة في نهايتها الشمالية ؛ وهناك كانت أسماك البرش تصطاد على مدار الساعة . وفي الغرب ، امتدت البحيرة في ذراع طويلة ضيقة مليئة حتى الاختناق بالقصب وزنابق الماء والجزر الصغيرة المعشبة . واعتقدنا أن هذا هو المكان الذي تعيش فيه أكبر أسماك الكراكي .

ذات ليلة ، كنا نجلس في الكوخ ، نحدق عبر المياه . كانت البحيرة قد فاضت وتسلقت المياه عدة ياردات إلى الحديقة ، وفجأة ، كسرت زعانف ذيل كبيرة قوية السطح ، على حافة العشب مباشرة . وتموجت إلى هذا الجانب وذلك مثل أعلام مثلثة غامقة في ضوء القمر . إنها أسماك التِنش ، كما قررنا في النهاية ، وكنا نصطادها بالطريقة التي نصطاد بها ثعابين البحر : بتغطيس قضبان البندق وقد ثُبتت أجراس على أطرافها . واصطدت واحدة تزن أكثر من كيلوغرام ونصف . كانت غامقة ونحيلة ولها قشور صغيرة غير مرئية تقريبًا . كما اصطدنا الدنيس أيضًا ، وهي أسماك بطيئة خرقاء تسمح بأن تُسحَب من الماء باستسلام بطريقة ما .

لكننا لم نلتقط حتى ثعبان بحر واحداً ، وهو ما بدا مع مرور الوقت شأناً أكثر غموضاً باطراد .

«يجب أن تكون ثعابين بحر هنا» ، قال أبي . وقد أشارت كل العلامات إلى هذا القدر . كانت البحيرة ضحلة وقاعها موحلاً ؛ وفيها الكثير من النباتات والصخور للاختباء بينها ، وكان الماء يعج بالسمك الصغير . ولن يشكل الجدول الذي يصب في البحيرة أي تحد لثعبان بحر مهاجر ، وكان متصلاً بالنُّهير الذي كنا دائماً نصطاد منه ثعابين البحر ، والذي يبعد نحو عشرين ميلًا فقط .

«لا أفهم لماذا لا نلتقط أياً منها» . يقول أبي . «يجب أن تكون ثعابين بحر هنا فقط» .

ومع ذلك ، لم نرَ حتى لمحة لثعبان بحر واحد . كما لو أنّه أراد أن يذكِّرنا بما عناه لنا ذات مرة ، اختبأ في الظلال . وفي النهاية ، بدأنا نتساءل عما إذا كان موجوداً هنا من الأساس .

سقط أبي مريضاً في وقت مبكر من الصيف في السنة التي بلغ فيها السادسة والخمسين . أما أن هناك شيئاً خطأ في صحته ، فكان معروفاً منذ زمن طويل . كان يتألم وذهب في نهاية المطاف لرؤية طبيب ، والذي أحاله بدوره إلى المستشفى . وأجروا له فحوصات بالأشعة السينية واختبارات ، وحددوا في النهاية ما هي المشكلة : ورم كبير وعدواني . أما لماذا مرض أبي ، ففسره طبيب حدثنا عن العلاقة الواضحة بين العمل في الأسفلت ونوع السرطان الذي يعاني منه . شقَّ البخار الحار المتصاعد من الأسفلت الساخن طريقه في نهاية المطاف إلى عمق قلبه ، ولا توجد الآن أي طريقة لإخراجه من هناك .

خضع لعملية جراحية مع تحول الصيف إلى الخريف . كانت جراحة كبيرة ومعقدة ، وكنا قد قطعنا شوطاً جيداً في فصل الشتاء قبل أن يتمكن من مغادرة المستشفى . لعدة أشهر رقد في سرير موصولاً بأنابيب التغذية ، غير قادر على تناول الطعام أو حتى الاستمتاع به ، وكنا نذهب لزيارته ونشاهد بصمت بينما يجعله المعالِجون ينهض من السرير ويمشي ذهاباً وإياباً في الردهة ، متكئاً

على «ووكر» . كان شاحبًا ونحيلاً تحت ثوب المستشفى . وكانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها ضعيفًا حقًا .

وكان هناك أيضًا ، في أحد الأيام في كافيتيريا المستشفى ، بينما استلقى أبي في غرفته ، خاملاً من المورفين الذي أُعطيَ له ، عندما أخبرتني أمي بما كان يجب أن أفهمه أبكر من ذلك بكثير . جدّي ، الشخص الذي كنت أناديه دائمًا بالجد ، لم يكن والد أبي . كان والده البيولوجي شخصًا آخر تمامًا ؛ شخصاً لم يعرفه أحد منا ، ولا حتى أبي . كانت جدتي قد التقت بذلك الرجل وهي في العشرين من عمرها تقريباً . وحملت وأنجبت طفلاً ، ولم يُرد الرجل أن تكون له أي صله بها ولا بابنها . كان هذا كل ما عرفناه عنه باستثناء اسمه الأول ، الذي كان أيضًا الاسم الأوسط لوالدي .

لماذا لم أدرك ذلك من قبل؟ كيف فاتني ذلك؟ كنت أعلم أن أبي أمضى سنواته الأولى في العيش مع والديّ نانا . كنت أعلم أن شقيقات نانا اعتنين به عندما كانت تعمل في مصنع المطاط في المدينة . سمعت عن وقت وفاة أم جدتي ، عندما كان عمر أبي عامين فقط ، وعندما انتقلوا من منزل العمال المتعاقدين إلى منزلهم الخاص . لسبب ما ، لم أضع اثنين واثنين معًا .

لم تلتق نانا بالشخص الذي كنت سأناديه في النهاية بالجد إلى أن بلغ عمر أبي السابعة تقريباً . كانا قد دخلا في علاقة لفترة قصيرة فقط عندما عاد أبي إلى المنزل حزيناً بطريقة لا يعزّيها شيء بعد اليوم الأول في المدرسة . طُلب من جميع الأطفال في فصله الجديد إخبار الآخرين عمّن آبائهم . لكن أبي لم يعرف . لم يكن قادراً على قول أي شيء ، وربما أدرك للمرة الأولى أن أصلنا هو

شيء يؤثر علينا ، سواء أردنا ذلك أم لا ، وأن الشخص الذي لا يعرف أصله سيكون ضائعاً دائماً بعض الشيء . إنك إذا لم تعرف من أين أتيت ، فإنك لا تستطيع أن تعرف إلى أين تمضي . وتتبع الرحلة بعيدًا عن المنزل والعودة إليه نفس المسار المرسوم .

بعد وقت قصير من ذلك اليوم الأول في المدرسة ، أصبح جداي مخطوبَين . وتزوجا بعد بضعة أسابيع فقط ، بسرعة وبلا ضجيج ، مع شقيقات نانا كشهود فقط .

والجد ، الشخص الذي سأستمر في مناداته بالجد ، عامل أبي منذ البداية مثل ابنه ، ويبدو أن أبي اتخذ قرارًا عندئذٍ وهناك . كان أصله أحجية هو الذي سيختار إجابتها . أمضى سنواته السبع الأولى من دون أب ، والآن أصبح لديه واحد فجأة . الشخص غير المرئي الذي كان قد شغل سابقاً هذا الدور بشكل سلبي حتى ذلك الحين لم يُثر اهتمامه على الإطلاق ، والسبب في أنه لم يخبرنا بالحقيقة مطلقًا هو أنه لم يكن يريدنا أن نشعر بأي شك حول الطريقة التي سارت بها الأمور . كان جدّي رجلاً لطيفاً محترماً ، على النقيض من الرجل اللامرئي ، إذا كان موجوداً من الأساس . وعند مرحلة ما ، قرّر أبي ببساطة أن أصله ، وبالتالي أصلنا نحن ، موجود هناك معه ، في المزرعة بجوار النهر ، وكانت تلك هي الحقيقة بكل طريقة لا معنى . ولم يتكلم أبي عن الأمر ، حتى في هذا الوقت ، عندما أصبح مريضاً ولم يكنْ أي شيء مؤكّداً ، ونحن لم نسأله قط .

وهبت الجراحة ، وقرابة ستة أشهر من الراحة في الفراش ، لأبي أربع سنوات أخرى ؛ أربع سنوات من التعافي البطيء قبل أن تعود

الأورام، أكثر وحشية كل مرة. أولاً انتكاسة وخريف آخر من العمليات الجراحية والمضاعفات والألم وعدة أشهر في المستشفى. ثم انتكاسة ثانية؛ وعندئذٍ، كان قد ضعُفَ جداً ولم تعد ثمة جدوى من القتال.

كان أبي قد بلغ الستين في ذلك الوقت. وكنت جالساً معه في المنزل، نشاهد التلفاز، ذات مساء حلّ مبكراً. كان مسترخياً على كرسي أسود بذراعين وقد وضع قدميه على كرسي صغير أمامه. وكان متعباً وإنما في مزاج جيد. لم نكن نعلم حينها أن الورم قد عاد؛ لم نكن نعرف شيئًا عما يترصد داخل جسده مرة أخرى. لم أكن أعرفُ أنا على الأقل.

«هل ما زالت مستويات المياه مرتفعة في الخارج»؟ سأل.

«كلا، المياه تنحسر، إنها تغطي رصيف القارب فقط الآن».

«لكن الرصيف لا يزال هناك، أليس كذلك؟ لم يذهب»؟

«لا، إنه يبدو على ما يُرام، قمنا بعمل جيد بتأمينه. سوف يتطلب الأمر شيئًا كبيرًا جداً لتحريكه الآن».

«بالتأكيد، ولكن كم مرة قلنا ذلك»؟

أدار رأسه ونظر إلي. «إذن، هل كنتَ تصطاد»؟ سألني، وكان عندئذٍ حين أدركت أن عينيه تبدوان مختلفتين. ذهب بياضهما وتحول إلى الأصفر الضارب إلى الرمادي، مثل قطعة ورق قديمة حال لونها وأصبحت منطفئة بلا بريق؛ وأحاط الأصفر ببؤبؤيه الأسودين مثل ضباب كثيف. نظرت إليه في عينيه لجزء من الثانية، ولا بد أنني تفاعلت بطريقة ما، لأنه أبعد نظرته وعاد إلى مشاهدة التلفاز؛ جلست بجانبه بصمت، وأنا أحدق في الأمام

مباشرة ، دون أن أعرف حقاً ما حدث للتو .

تحدثنا أكثر قليلاً ، ولكن في كل مرة كنت أنظر إليه بدا كما لو أنه يحاول تجنب نظراتي . كان يدير رأسه بعيدًا ، كما لو أنه يخفي شيئًا عني ، وتذكرت مرة عندما كنت صغيرًا وكنا نجلس إلى طاولة المطبخ . كان الوقت منتصف الشتاء والثلج والبرد في الخارج . وكان أبي يرتدي قبعة صفراء منسوجة عليها تاج أزرق ، وعندما خلعها اتخذ جلد جبهته نفس لون صُفرة القبعة . وقال ضاحكاً : «لدي يرقان» ، لكنني لم أفهم أنها كانت مزحة . سألت أمي ما هو اليرقان وقالت إنه مرض يصيب الكبد ويمكن أن يكون قاتلاً وأصبحتُ خائفاً وهادئاً . اعتقدت أن أبي يموت ، ولم تكن لدي كلمات للتعبير عن خوفي . وعندما ضحك وشرح أنه يمزح ، وأن ذلك كان مجرد لون القبعة الذي تركته على جبهته ، لم أجرؤ على التصديق . أدركت أنه إذا كان أشخاص آخرون يمكن أن يصابوا بالمرض ويمكن حتى أن يموتوا ، فلماذا لا يكون أبي؟ لماذا لا أكونُ أنا .

بينما نشاهد التلفاز ، هبط الظلام في الخارج وتعب أبي ، لكنني شعرت به يحارب التعب . أراد أن يبقى مستيقظاً لفترة أطول . لم يُرد أن يعترف بالإرهاق الذي استولى على جسده ، أو بأن ثمة شيئاً خطأ . وهكذا جلس هناك ، يستمع ويتحدث ، بصوت منخفض هادئ ، وفجأة ، في منتصف جملة تقريبًا ، أغلق عينيه ونام . جلس هناك على كرسيه ذي المسند ، هادئاً تماماً وعيناه مغلقتان ، يتنفس بعمق وثِقل ، كما لو أنه ختم بطاقة مغادرة العمل للتو . جلست وحدي في الكرسي بجواره ؛ وفي النهاية ، عدت إلى التلفاز وانتظرت

دون أن أعرف حقًا ما الذي كنت أنتظره .

بعد فترة قصيرة -عشر ثوانٍ ، أو عشرين- فتح عينيه مرة أخرى ، نظر إليَّ وحاول أن يبتسم . قال : «لا بد أنني انجرفت» .

بعد بضعة أسابيع لاحقاً زرته في المستشفى ؛ كان ذلك بعد يومين من منتصف الصيف ، ولم يعد هناك ما هو مخفيٌ بعد . لقد عاد ، كما شرح الطبيب ؛ وهذه المرة ، كان الورم يهاجم الكبد . وعندما سألنا عما يمكن فعله ، مد الطبيب الشاب الجاد يديه وهز رأسه .

وأعتقد أن أبي فهم ذلك بشكل أفضل مما فعلتُ أنا . «لن أتمكن من النجاة هذه المرة» قال ؛ حاولت أن أجادل ، ولكنني لم أجد الكلمات . قال : «آمل أنكَ ستريد أن تحتفظ بالكوخ» -على الأقل يمكنُني أن أعده بذلك . وبعد بضعة أيام ، نُقل إلى مركز رعاية المرضى الدائمين وغرقَ في غيبوبة .

كان الثالث من تموز (يوليو) يوم خميس . وكان الطقس حاراً وخانقًا . جلسنا في غرفة أبي الصغيرة في مركز الرعاية وباب الفناء مفتوح على رقعة من العشب . ووراء الفناء ، خلف بعض الأشجار ، كانت بركة صغيرة ، حيث وقف طائر مالك الحزين ، يدير رأسه هنا وهُناك ، مُحدقاً عبر السطح الساكن .

كانت ليلة صعبة . صنع أبي الكثير من الضجيج ، ناشجاً وشاكياً كما لو أنه كان قلقًا ومتألمًا ، حتى في غيبوبته . وأمي ، التي أمضت لياليها على سرير صغير في غرفته ، بالكادت نامت طرفة عين .

في ذلك الصباح ، عندما وصلت ، كان أكثر هدوءًا . جلست

وحدي بجانب سريره ممسكاً يده . كانت دافئة ورطبة ؛ وكانت أصابعه الخشنة قاسية مثل قطع الخشب . كان هادئاً وساكناً تماماً . استمعت إلى تنفسه ، وكان خافتاً وغير منتظم . وبين كل نفسَين ، تطاولت الثواني وتمددت مثل الأبدية .

وتساءلتُ ، للمرة الأولى ، كيف يمكنكَ أن تميز الموت . كيف تعرف عندما يكون قد أتى؟

«عندما يتوقف القلب عن الخفقان» هو على الأرجح ما سيقوله معظم الناس . عندما يغادر النفس الأخير الجسد ويسكُن كل شيء . هكذا فكرنا تقليدياً في لحظة الموت ؛ نبضات القلب والتنفس ضرورية للعيش ، وهكذا تكون لدينا حدود واضحة بين الحياة والموت . نفس الثانية بالضبط التي يتوقف فيها القلب عن النبض هي لحظة حدوث الموت . وهكذا ، يمكن تحديد وقت الوفاة بشكل نهائي . مثل شمعة تنطفئ .

لكن هذا ليس بالضرورة ما يبدو عليه الموت . لا تتوقف القلوب عادة عن النبض من ثانية إلى التي تليها ؛ بدلاً من ذلك ، تخفق تدريجياً بشكل أبطأ وأكثر اضطراباً . ويمكن أن تتوقف عن النبض ثم تبدأ مرة أخرى . ينخفض ضغط الدم ، تنخفض مستويات الأكسجين . وبدلاً من يحل محل الحياة فجأة ، ينساب الموت إليها ببطء .

في السويد ، لا علاقة للموت القانوني بدقات القلب والتنفس . وفقًا للقانون السويدي ، يظلُّ الشخص على قيد الحياة طالما أن دماغه يُظهر نوعًا من النشاط . وتنص الفقرة الأولى من القانون التي تحدد معايير تحديد الوفاة في الإنسان على أن «الشخص يعتبر

ميتًا عندما يكون هناك توقف تام ولا رجعة فيه لجميع وظائف الدماغ» .

وتمت صياغتها بهذه الطريقة ، جزئيًا لتسهيل عملية حصاد الأعضاء لإعادة زرعها من شخص ميت دماغيًا على جهاز تنفس -وإنما أيضًا كتعريف يقرر نوعاً من القيمة للحياة . لأنه يعني أن الحياة ليست مجرد وظيفة بيولوجية ، وإنما هي بالأحرى شيء مرتبط بالوعي -إن لم يكن الوعي المستيقظ ، فعلى الأقل بالقدرة النظرية على إدراك الأشياء ، والشعور أو الحلم .

ولا يبدو أن هذه القدرة تعتمد كلياً على ضربات القلب أو التنفس . في العام 2016 ، درس فريق بحثي من جامعة أونتاريو الغربية في كندا لحظة الوفاة في أربعة مرضى . وبعد أن فُصلت أجهزة دعم الحياة عنهم بالكامل ، تم قياس نشاط الدماغ بأقطاب كهربائية . وفي ثلاثة من المرضى الأربعة ، توقف نشاط الدماغ قبل توقف القلب عن الخفقان ؛ في أحدهم قبل ما لا يقل عن عشر دقائق . ولكن في المريض الرابع ، كان العكس صحيحًا . أظهرت الأجهزة نشاطاً للدماغ بعد عشر دقائق كاملة من خفقات القلب الأخيرة . ما الذي يجري هناك؟ ما الذي تتكون منه قمم الذرى هذه على منحنى التخطيط الكهربي للقلب؟ صور؟ مشاعر؟ أحلام؟

في دراسة أخرى ، أجراها لخمير تشاولا Lakhmir Chawla ، وهو طبيب أمريكي للعناية المركزة ، تم تسجيل نشاط دماغي مرتفع لحظة الوفاة . ولاحظ تشاولا زيادة النشاط لمدة ثلاثين ثانية إلى ثلاث دقائق من لحظة توقف القلب عن النبض في سبعة مرضى .

وأظهر المرضى، الذين كانوا في حالة من فقدان الوعي العميق، في لحظات الحياة الأخيرة، فجأة مستويات نشاط دماغي مساوية تقريبًا لمستويات النشاط عند شخص واع تمامًا. ومنذ أن نشر تقريره في العام 2009، كان لَخمير تشاولا قد لاحظ نفس الظاهرة في أكثر من مائة مريض محتضَر، وعلى الرغم من أن نتائجه قوبلت بالتشكيك، يبدو أنها تقدم بعض الدعم لمفهوم ما يشار إليه عادة باسم خبرات الاقتراب من الموت. ربما تكون هناك حالات عقلية لا نعرف عنها والتي قد لا نفهمها بالكامل أبدًا حتى يتمكن أحد من إخبارنا بها من ما-بعد- القبر. وربما تكون هذه الحالات العقلية منفصلة تمامًا عن الأشياء التي نستخدمها عادةً لتحديد كمّية الحياة -دقات القلب والتنفس- وإنما عن الزمن نفسه أيضاً. على الأقل هذه هي النظرية التي طرحها أرفيد كارلسون Arvid Carlsson، الذي نال جائزة نوبل في الطب في العام 2000. ربما، كما علق في مقال، نختبر في لحظة الموت حالة منفصلة تمامًا عن الزمن.

«وما هو هذا الذي نختبره»؟ سأل. «الخلود. أليس كذلك»؟

أبي لم تكن لديه أقطاب كهربائية متصلة برأسه. لم أكن أعرف ما إذا كان هناك أي مستوى من الوعي متبقٍ فيه في ذلك الصباح الحار، أو ما الذي ربما كان يشعر أو يحلم به -إذا كان ثمة شيء. ولم أكن أعلم لِكَم من الوقت بقيتُ جالسًا هناك -كنتُ قد فقدت في نهاية المطاف كل إحساس بالوقت- ولكن عندما ضغطتُ يده بقوة أكبر، أدركت فجأة أنني لم أسمع صوت تنفسه منذ فترة. استدعيت ممرضة، والتي جاءت مسرعة وجسّت

معصمه لتتحسس نبضه . راقبتها وأنا ما أزال أمسك يده الأخرى في يدي . نظرت إليّ وأومأت برأسها بهدوء .

في اليوم التالي ، كنا نجلس خارج المنزل ، نستمع إلى أجراس الكنيسة التي تُقرع من أجل أبي على بعد أقل من نصف ميل . جلسنا على العشب بجوار شجرة التفاح ، أمام الدفيئة حيث بدأت الطماطم تتحول إلى الأحمر ، في المكان نفسه الذي كنا قد زرعنا فيه أشواكَ مذراة لإخراج الديدان من الأرض ؛ حيث طلينا زورق التجديف ، وحيث أعدّ أبي مصيدة ثعابين البحر ذات يوم . دق الجرس بضجر ورتابة مما بدا مكاناً بعيدًا إلى ما لا نهاية .

بعد أسبوع أو نحو ذلك ، بعد الجنازة ، ذهبنا إلى الكوخ عند البحيرة . كان يوماً صيفياً حاراً آخر . وكان العشب جافًا وبحاجة إلى جزّ . حلّقت العُقبان فوق البحيرة ، التي انبسطت ساكنة تمامًا تحت شعاعات الشمس الحارقة . وقفتُ عند حافة الماء بقضيب صيد في يدي ، أحدق في كرة الغطاس . ناداني أحد ما . وضعت القضيب على العشب وما يزال الغطاس في الماء . وعندما عدت بعد بضع دقائق ، أدركت أن هناك شيئاً يوشك أن يسحب القضيب بأكمله إلى البحيرة . كان ينزلق سريعاً خلال العشب والخيط مشدود ؛ أمسكت به في اللحظة الأخيرة وشعرت على الفور بالمقاومة المتموجة التي تميز الأسماك . كان لدي الوقت لأفكر بأن الشعور مألوف قبل أن تنطلق السمكة في اتجاه زنابق الماء . ثم استدارت فجأة وسبحت عائدة نحو الشاطئ ، وقبل أن أقوم برد

فعل ، كان الخيط قد اختفى بين الصخور الكبيرة المجاورة للشاطئ . وهناك علق .

للحظة ، توقف الوقت ؛ الخيط المشدود والحركات الصغيرة المناضِلة . حَنوتُ وسحبت ، وانحنى القضيب مثل عود قصب . مشيتُ خطوات قليلة إلى جانب للعثور على زاوية جديدة ، وضغطتُ بقوة على خيط النايلون . فكّرتُ بأن هناك طريقتين وحيدتين للخروج من هذا الوضع وكلتاهما خاسرتان ، وشتمت من تحت أنفاسي وهبطتُ أخيرًا على ركبتيّ ، وتمسكت بالخيط ، محدقاً في الأسفل في المياه العكرة .

أعرف أنه كان ثعبان البحر لأنني رأيته . انزلق ببطء من الظلال وجاء في اتجاهي . كان كبيرًا وظلًا شاحبًا من الرماديّ ، بعينين سوداوين مثل الأزرار ، ونظر إلي كما لو ليتأكد من أنني أراه . تركت الخيط ورأيت الخطاف وهو يخرج تماماً عند وصول ثعبان البحر إلى السطح ، ثم استدار وانزلق مرة أخرى إلى الأعماق المخفية .

لبعض الوقت ، جلست هناك عند حافة الماء . كان كل شيء هادئًا والبحيرة ساكنة تماماً ؛ وأرسلَت الشمس بريقاً أبيض انفرَش على صفحة الماء واختفى كل شيء تحت السطح ، كما لو خلْف زجاج مرآة . وكان ما قبَع مختفياً تحته سراً ، لكنّه الآن أصبح سرّي .

مكتبة
t.me/t_pdf

المراجع

المقتطف في الصفحة (5) من قصيدة شيموس هيني «ترنيمة لوك ناي» من مجموعته الشعرية «باب إلى الظلمة» . (نيويورك : مطبعة جامعة أكسفورد ، 1969) .

أرسطو وثعبان البحر المولود من الطين

Aristotle. *Historia animalium* (The History of Animals). Translated by D'Arcy Wentworth Thompson. Oxford: Clarendon Press, 1910.

Homer. *The Iliad.* Translated by Robert Fitzgerald. Garden City, NY: Anchor, 1974.

Lennox, James. "*Aristotle's Biology.*" In Stanford Encyclopedia of Philosophy. Stanford University, Metaphysics Research Lab, Center for the Study of Language and Information. Revised January 31, 2016. https://plato.stanford.edu/entries/aristotle-biology/.

Marsh, M. C. "*Eels and the Eel Question.*" Popular Science Monthly 61 (September 1902).

Prosek, James. Eels: *An Exploration, from New Zealand to the Sargasso, of the World's Most Mysterious Fish.* New York: Harper, 2010.

Schweid, Richard. *Consider the Eel: A Natural and Gastronomic History.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002.

Walton, Izaak. *The Compleat Angler.* London: 1653.

سيغموند فرويد وثعابين بحر ترييستي

Cairncross, David. *The Origin of the Silver Eel—With Remarks on Bait & Fly Fishing*. London: G. Shiel, 1862.

Eigenmann, Carl H. "*The Annual Address of the President—The Solution of the Eel Question.*" Transactions of the American Microscopical Society 23 (May 1902).

Freud, Sigmund. *The Letters of Sigmund Freud to Eduard Silberstein, 1871–1881.* Edited by Walter Boehlich. Cambridge, MA: Belknap Press, 1990.

Marsh, M. C. *"Eels and the Eel Question."* Popular Science Monthly 61 (September 1902).

Simmons, Laurence. *Freud's Italian Journey*. Amsterdam: Rodopi, 2006. Whitebook, Joel. Freud: An Intellectual Biography. New York: Cambridge University Press, 2017.

الدانماركي الذي وجد أرض نشوء ثعابين البحر

Eigenmann, Carl H. "*The Annual Address of the President—The Solution of the Eel Question.*" Transactions of the American Microscopical Society 23 (May 1902).

Garstang, Walter. *Larval Forms and Other Zoological Verses*. 1951.

Grassi, Giovanni Battista. *"The Reproduction and Metamorphosis of the Common Eel (Anguilla vulgaris)."* Proceedings of the Royal Society of London, January 1896.

Marsh, M. C. "*Eels and the Eel Question.*" Popular Science Monthly 61 (September 1902).

Poulsen, Bo. Global Marine Science and Carlsberg: *The Golden Connections of Johannes Schmidt (1877–1933)*. Boston: Brill, 2016.

Schmidt, Johannes. "*The Breeding Place of the Eel.*" Philosophical Transactions of the Royal Society of London 211 (1923), 179–208.

Tsukamoto, Katsumi, and Mari Kuroki, eds. *Eels and Humans*. New York: Springer, 2014.

صيادو ثعابين البحر

www.alarv.se. www.alakademin.se.

Prosek, James. Eels: *An Exploration, from New Zealand to the Sargasso, of the World's Most Mysterious Fish.* New York: Harper, 2010.

Schweid, Richard. *Consider the Eel: A Natural and Gastronomic History.* Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2002.

Tsukamoto, Katsumi, and Mari Kuroki, eds. *Eels and Humans.* New York: Springer, 2014.

ثعبان البحر الغامض

The Bible, Revised Standard Version.

Eco, Umberto, ed. *On Ugliness.* Translated by Alastair McEwen. New York: Rizzoli, 2007.

Freud, Sigmund. *Das Unheimliche.* 1919.

Friedman, David M. A Mind of its Own: *A Cultural History of the Penis.* New York: Free Press, 2001.

Grass, Günter. *The Tin Drum.* Translated by Ralph Manheim. New York: Pantheon, 1961.

Hoffmann, E. T. A. "*The Sandman.*" 1816.

Jentsch, Ernst. *Zur Psychologie des Unheimlichen.* Psychiatrisch-Neurologische Wochenschrift: 1906.

Myśliwiec, Karol. *The Twilight of Ancient Egypt: First Millennium.* B.C.E. Translated by David Lorton. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000.

Nilsson Piraten, *Fritiof. Bombi Bittochjag.* Stockholm: A. Bonnier, 1932. Swift, Graham. Waterland. New York: Poseidon Press, 1983.

Vian, Boris. *The Foam of Days.* 1947.

Winslow, Edward, and William Bradford, Mourt's Relation: *A Journal of the Pilgrims at Plymouth.* London: J.Bellamie, 1622.

تحت سطح البحر

Carson, Rachel. *The Sea around Us.* New York: Oxford University Press, 1951.

———. *Silent Spring.* Boston: Houghton Mifflin, 1962.

———. *Under the Sea-Wind.* New York: Simon & Schuster, 1941.

Jabr, Ferris. "*The Person in the Ape.*" Lapham's Quarterly 11, no. 1 (Winter 2018).

Lear, Linda. Rachel Carson: *Witness for Nature.* New York: Henry Holt, 1997.

Nagel, Thomas. "*What Is It Like to Be a Bat?*" Philosophical Review 83, no. 4 (October 1974): 435–50.

الرحلة الطويلة إلى الوطن

Carson, Rachel. *Under the Sea-Wind.* New York: Simon & Schuster, 1941.

Inoue, Jun G., Masaki Miya, Michael Miller, et al. "*Deep-Ocean Origin of the Freshwater Eels.*" Biology Letters 6, no. 3 (June 2010): 363–66.

Munk, Peter, Michael M. Hansen, Gregory E. Maes, et al. "*Oceanic Fronts in the Sargasso Sea Control the Early Life and Drift of Atlantic Eels.*" Proceedings of the Royal Society B 277 (June 2010): 3593–99.

Prosek, James. Eels: *An Exploration, from New Zealand to the Sargasso, of the World's Most Mysterious Fish.* New York: Harper, 2010.

Righton, David, Håkan Westerberg, Eric Feunteun, et al. "*Empirical Observations of the Spawning Migration of European Eels: The Long and Dangerous Road to the Sargasso Sea.*" Science Advances 2, no. 10 (October 2016): https://doi.org/10.1126/sciadv.1501694.

Schmidt, Johannes. "*The Breeding Place of the Eel.*" Philosophical Transactions of the Royal Society of London B 211 (1923): 179–208.

Swift, Graham. *Waterland.* New York: Poseidon Press, 1983.

Tesch, Friedrich-Wilhelm. *Der Aal: Biologie und Fischerei.* Hamburg: P. Parey, 1973.

———. "*The Sargasso Sea Eel Expedition 1979.*" Helgoländer Meeresuntersuchungen 35, no. 3 (September 1982): 263–77.

أن تصبحَ جاهلاً

The Bible, Revised Standard Version.

Jerkert, Jesper. "*Slagrutan i folktro och forskning.*" *Vetenskap eller villfarelse.* Edited by Jesper Jerkert and Sven Ove Hansson. Leopard förlag: 2005.

ثعبان البحر على حافة الانقراض

Carson, Rachel. *Silent Spring.* Boston: Houghton Mifflin, 1962. Castonguay, Martin, Peter V. Hodson, Christopher Moriarty, et al. "*Is There a Role of Ocean Environment in American and European Eel Decline?*" Fisheries Oceanography 3, no. 3 (September 1994): 197–204, https://doi.org/10.1111/j.1365-2419.1994.tb00097.x.

Castonguay, Martin, and Caroline M. F. Durif. "*Understanding the Decline in Anguillid Eels.*" ICES Journal of Marine Science 73, no. 1 (January 2016): 1–4, https://doi.org/10.1093/icesjms/fsv256.

Gärdenfors, Ulf. IUCN:s *manual för rödlistning samt riktlinjer för dess tillämpning för rödlistade arter i Sverige*, 2005.

Hume, Julian P. "*The History of the Dodo Raphus cucullatus and the Penguin of Mauritius.*" Historical Biology 18, no. 2 (2006): 69–93.

Jacoby, D. and M. Gollock, "*On the European Eel.*"

www.iucnredlist.org.

Kolbert, Elizabeth. *The Sixth Extinction: An Unnatural History.* New York: Henry Holt, 2014.

Lear, Linda. Rachel Carson: *Witness for Nature.* New York: Henry Holt, 1997.

Melville, Alexander, and Hugh Strickland. *The Dodo and Its Kindred*; or, *The History, Affinities, and Osteology of the Dodo, Solitaire, and Other Extinct Birds of the Islands Mauritius, Rodriguez, and Bourbon.* London: Reeve, Benham, and Reeve, 1848.

Steller, Georg Wilhelm. "*Steller's Journal of the Sea Voyage from Kamchatka to America and Return on the Second Expedition, 1741– 1742.*" American Geographical Society Research Series 2 (1925).

Tremblay, V., C. Cossette, J. D. Dutil, G. Verreault, and P. Dumont. "*Assessment of Upstream and Downstream Pass Ability for Eels at Dams.*" ICES Journal of Marine Science 73, no. 1 (January 2016): 22–32, https://doi.org/10.1093/icesjms/fsv106.

Wake, David, and Vance Vredenburg. *"Are We in the Midst of the Sixth Mass Extinction? A View from the World of Amphibians.*" Proceedings of the National Academy of Sciences 105 (August 2008): 11, 466–73.

في بحر سارغاسو

Norton, L., R. M. Gibson, T. Gofton, et al. "*Electroencephalographic Recordings During Withdrawal of Life-Sustaining Therapy until 30 Minutes after Declaration of Death.*" Canadian Journal of Neurological Sciences 44, no. 2 (March 2017): 139–45, https://doi.org/10.1017/cjn.2016.309.

Snaprud, Per. "*Dödsögonblicket i hjärnan.*" Forskning och framsteg, September 2011.

Svensson, Martina. "*Min släktsaga.*" School paper, Klippans gymnasium, 2006.

مكتبة
t.me/t_pdf

telegram @t_pdf

«كتاب رائع . حكاية ثعبان البحر واحدة من أكثر القصص فتنة على هذا الكوكب ، لكن الفاتن بنفس المقدار هو القصة التي يرويها باتريك سفينسون ببراعة عن أسرار الوجود نفسه» .

(بيرند هاينريش، مؤلف كتاب «عقل الغراب»)

«أسر . . . ليس تراتيل ثعابين البحر ، في النهاية كتاباً عن ثعابين البحر بقدر ما هو كتاب عن الحياة نفسها» .

(وول ستريت جورنال)

«كتاب سفينسون ، مثل موضوعه ، وحش غريب : مخلوق متحوّل ، متغير الشكل يتنقّل بين العوالم . إنه كتاب في التاريخ الطبيعي ، ومذكرات عن ابن وأبيه . وهو استكشاف للأدب ، والدين ، والعادات ، وما يعنيه العيش في عالم مليء بالأسئلة التي لا يمكننا الإجابة عنها دائمًا» .

(مجلة نيويوركر)

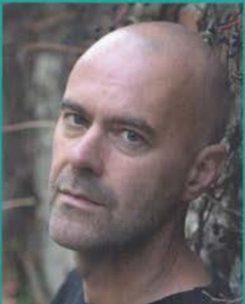

Foto: Emil Malmborg

باتريك سفينسون : ولد عام 1972 . يعمل في الصحافة الثقافية . كتاب تراتيل ثعابين البحر هو باكورة أعماله ، ونال عنه جائزة أوجست المرموقة في السويد .

ISBN 978-91-88863-33-1

9 789188 863331

دار المنى